
المجمع العلمي العراقي
بغداد
مجلة المجمع العلمي



شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net رابط بديل

الجزء الاول / المجلد الواحد والستون



الدكتور احمد مطلوب

رئيس المجمع العلمي

الملخص :

هذه ورقة تضمنت مسألتين :

الأولى : نشأة اللغة العربية وما مرت به من أدوار خلال عدة قرون الى أن أخذت صورتها بعد نزول (القرآن الكريم) ونمت لتستوعب المستجدات .

الثانية : العناية باللغة العربية والحفاظ عليها قديما وحديثا ، وكانت الوقفة طويلة عند (العراق) المعاصر لأنّ له جهودا متميزة حيث صدرت قوانين للحفاظ عليها ، ثم كان الكلام على ما في (الوطن العربي) والدعوة الى إصدار تشريعات لغوية على غرار ما فعل (العراق) ، وتأسيس منظمة عالمية للغة العربية على غرار (الفرانكفوية) وهو ما دعت اليه بعض المنظمات والمؤتمرات أخيرا .

تقدم ، ومعظم ما قيل عنها لا يزال بعيداً عن التوثيق الذي تستند اليه الدراسات العلمية ، وترجع الروايات العربية تأريخها الى النبي (اسماعيل) -- عليه السلام -- وتذكر أنه ((أول من تكلم بالعربية ، ونسي لسان أبيه))[1] وأنه ((أول من فتق لسانهُ بالعربية المبينة وهو ابن أربع عشرة سنة)) وأن الله ((ألهمه اللغة إلهاماً))[2] وأن ((العرب كلها وُلْد إسماعيل إلا حمير وبقايا جبرهم))[3] والعربية التي يَعْنون ((اللسانُ الذي نزل به القرآن ، وما تكلمت به على عهد النبي - صلى الله عليه وسلم - وتلك عربية أخرى غيرُ كلامنا هذا))[4] ولذلك قال (عمرو بن العلاء) :

((ما لسان حمير وأقاصي اليمن اليوم بلساننا ، ولا عربيتهم بعربيتنا))[5].

وإذا صحّت الروايات فان تأريخ اللغة العربية قديم إذ عاش أبو العرب (ابراهيم) -- عليه السلام -- قبل (المسيح) بألفي عام ، وربما كانت العربية قبل ذلك العهد ، فقد جاء عن النبي (محمد) -- صلى الله عليه وسلم -- أن ((أول من كتب بالعربية اسماعيل)) وقال (أبو عمر بن عبد

---

(1) طبقات فحول الشعراء ج١ ص٩ ، ينظر المزهر ج١ ص٣٢ .

(2) [illegible] التبيين ج٣ ص [illegible]

(3) طبقات فحول الشعراء ج١ ص٩ .

(4) نفسه ج١ ص١٠

(5) نفسه ج١ ص١١ .

بالعربية اسماعيل))[٦] ، وهذا يدل على ان العربية اقدم من ذلك بكثير ، لأن الكتابة لاتظهر مع اللغة وإنما بعد أن تشيع وتنتشر ، وتصبح بالناس حاجة الى التدوين .

ويسند هذه الروايات دراسةُ صيغ اللغة العربية وأساليبها ، وقد حاول (عباس محمود العقاد) أن يستدل على ذلك بدراسة ضمائر الجنس والعدد فيها ، وانتهى الى أنها أقدم اللغات الحية بدلالة الضمائر والأسماء الموصولة وهذا ((ظاهر من احتوائها عليها جميعا ، وبقاء أُصولها جميعا فيها الى اليوم مستعملة لأغراضها التي تناسبها))[٧] .

واستدل الأب (أنستاس ماري الكرملي) بسِفْر (أيوب) قال : ((إن لغة الضاد قديمة يشهد على ذلك (سِفْر أيوب) فان كثيرين من العلماء يذهبون الى أن صاحبه وضعه بلغته العربية إذ فيه عبارات وتشبيهات ومجازات لا تُعرف إلا في العربية ، ولا شك أنه نُقل من اللغة العربية الى اللغة العبرية ، وظلت في النقل أصول اللغة ومبانيها وصيغها على أَصلها أو يكاد))[٨] .

---

[٦] الروض الأنف ج١ ص٧٨ ، وينظر خصائص العربية في كتاب (بحوث لغوية) ص٢١ وما بعدها .

[٧] أشتات مجتمعات ص٧١ .

[٨] نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها ص١٠١ .

[illegible]
للفصحى نفسها يرجع الى سنة ٣٢٨ للميلاد [٩].

ومنهم من جعل العربية إحدى اللغات السامية ، والسامية مصطلح أُخذ من (التوراة) وكان أول من أطلقه العالم النمساوي (أوغست لوديك شلوتسر)[١٠] والسامية مصطلح يعبر عن فكرة دينية وقد خرجت من ((علماء يهود (الأندلس) في العصور الوسطى))[١١] . ولعل ابن حزم (الاندلسي) كان متأثرا بهم حين أشار الى صلة العربية بالعبرية والسريانية ، قال : ((إلا إن الذي وقفنا عليه وعلمناه يقينا أنَّ السريانية والعبرانية والعربية التي هي لغة (مضر) و (ربيعة) لا لغة (حمير) واحدة تبدلت بتبدل مساكن أهلها فحدث فيها جرش (احتكاك) كالذي يحدث من الأندلسي ومن الخراساني إذا رام نغمة أهل (القيروان) ومن القيرواني إذا رام نغمة (الأندلس) ومن الخراساني إذا رام نغمتها)) . ثم قال : ((ومن تدبر العربية والعبرانية والسريانية أيقن أن اختلافهما إنما هو من نحوما ذكرنا من تبديل ألفاظ الناس على طول الزمان ، واختلاف البلدان ومجاورة الأمم ، وأنها لغة واحدة في الأصل))[١٢] .

---

[٩] ينظر تأريخ العرب قبل الاسلام ج١ ، المفصل ج١ ص٣٢ ، دراسات في فقه اللغة العربية ص٧ ، فصول في فقه العربية ص٣٥ ؛ فقه اللغة ص٩٢ .

[١٠] تاريخ العرب قبل الاسلام ج٧ ص٧ ، المفصل ج١ ص٢٢٣ ، ٥٢٥ ، تاريخ اللغات السامية ص٢ .

[١١] لغتنا والحياة ص٢٠ .

[١٢] الاحكام في أصول الأحكام ج١ ص٣٠ .

واستغلت الصهيونية هذه النسبة لتربط اليهود بالمنطقة العربية وتحقق (حلم إسرائيل) ولكنها تنكرت للعرب بعد أن استتب أمرها وقام لها كيان ، وأصبحت تُطلقُ الاسم على اليهود وحدهم أما غيرهم من العرب والأقوام الأخرى فهم ضد (السامية) . وهذه اللغة السامية لا وجود لها ، وإنما هي تصور ، والفكرة القائلين بها ((انها تعبير قُصِدَ به شيءٌ مجازيٌ هو الافصاح عن فكرة تقارب تلك اللغات واشتراكها في أصول كثيرة اشتراكا يكاد يجمعها في أصل واحد)) [٢] .

فاللغة العربية قديمة جدا ، ولا يَعرف الباحثون اللغة التي تكلم بها (اسماعيل) – عليه السلام – ويبدو مما ورد في (القرآن الكريم) أنه تعلمها من أهل (مكة) الذين عاش معهم حيث كانت هذه المدينة المباركة موطن بعض القبائل العربية ومن يأتي اليها حاجا من أطراف المعمورة ، وكان النبي (ابراهيم) – عليه السلام – قد أودع ذريته في (مكة المكرمة) وقال : ((رَبَّنا إِنِّي أَسكنتُ من ذريتي بوادٍ غير ذي زرعٍ عند بيتك المحرم . رَبَّنا ليُقيموا الصلاةَ فاجعلْ أفئدةً من الناس تهوي اليهم ، وارزقْهُم من الثمرات لعلهم يشكرون)) (ابراهيم ٣٧) وأمره – سبحانه وتعالى – أن يؤذن بالحج فقال : ((وأذِّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامرٍ يأتين من كل فجٍ عميق . ليشهدوا منافعَ لهم ، ويذكروا اسمَ الله في أيامٍ معلوماتٍ على ما رزقهم من بهيمة الأنعامِ ، فكلُوا منها ، وأطعِموا البائسَ الفقيرَ ثم ليقضُوا تفثهم وليوفوا نذورهم ، وليطَّوَّفوا بالبيت العتيق)) (الحج ٢٧-٢٩) .

---

[٢] تاريخ العرب قبل الاسلام ج٧ ص١٠ .

فمكة المكرمة كانت آهلةً بالسكان وفيها الأنعام التي تذبح ويطعم منها الناسِ ولا سيما الفقراء ، وفيها الثمرات ، وأمره الله وابنَه (إسماعيل) أن يهتما بالكعبة المشرفة ويُطهرا بيته فقال – سبحانه وتعالى -- ((وإذ جعلنا البيتَ مثابةً للناس وأمنا ، واتخذوا من مقام إبراهيمَ مُصلّى ، وعهدنا الى ابراهيمَ واسماعيلَ أن طهرا بيتيَ للطائفينَ والعاكفينَ والرُكَّع السُّجود)) (البقرة ١٢٥) ثم قال سبحانه وتعالى : ((وإذ يرفعُ ابراهيمُ القواعدَ من البيت وإسماعيلُ ، ربَّنا تقبلْ منا ، إنك أنتَ السميعُ العليمُ)) (البقرة ١٢٧) .

ولا يُعرف شيء عنِ اللغة العربية سوى ما ذكرت المصادر القديمة من أن (إسماعيل) أولُ من تكلم العربية أو كتب بها ، ولعل ما جاء من عصر الجاهلية من شعرٍ وخطبٍ وأمثال وهي تمثل لغةً موحدةً يؤيدُ أنَ العربيةَ عريقةٌ في القدم وأنها مرت بمراحلَ كثيرةٍ حتى وصلت الى ما وصلت اليه من سمو عزَّزها الله بانزاله (القرآن الكريم) بلسانٍ عربيٍ مُبين وفيه اتضح الاعجازُ البلاغيُ الذي لم يأتِ بمثله الإنس والجن : ((قل لئنِ اجتمعتِ الإنسُ والجنُ على أن يأتوا بمثلِ هذا القرآنِ لا يأتونَ بمثلِهِ ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا)) (الإسراء ٨٨) .

ونقل (القرآن الكريم) العربيةَ نقلةً واسعةً وعَبَّرَ عن المعاني والأغراض المختلفة ، وأعطى دلالاتٍ جديدةً للألفاظ كالصوم والصلاة والزكاة والنفاق والكفر والفسوق والفساد ونحوها مما كان يدُلُّ على معانٍ أخرى .

ونمت اللغةُ العربيةُ واتسعت لتستوعبَ الجديد وبدأ عهد التأليف فظهرت علومها في (البصرة) ثم انتقلت الى (الكوفةِ) فبغداد ، فالعالمِ

الاسلامي ، وأصبحت أداة التأليف في العلوم والآداب والفنون ، ولم تعدْ لغة شعر وخطب وأمثال فحسب كما كانت قبل نزول (القرآن الكريم) .

وازدادت العنايةُ والاهتمام بها ، وكان المؤمنون برسالة السماء حريصين عليها لأنها لغة كتابهم الأكبر الذي نوّر العربيةَ وأغناها بما لم يكن قبل نزوله ، وكان اللحن الذي بتفشى فيها يثيرُ قلقهم ، ولذلك حرصوا عليها حرصهم على أرواحهم لأنها لغةُ الكتاب العزيز ، المعبرةُ عن هُويتهم ، وأخذت كتبُ تنقيتها تظهر لتصحح اللحن الذي يتسرب الى جوانب متعددة منها ، اذ دخلت اللكنة الى نطق الأصوات أي الحروف ، وكان بعضهم ينطق الحاء هاء ، والسين شينا ، والخاء هاءً ، وكان يدخل الكلمةَ تغييرُ الحركة مثل : كيف أهلِك) – بكسر اللام – أي : كيف أهلُك) -- بضم اللام .

ومن ذلك وضع الألفاظ في غير مواضعها مثل : (افتحوا سيوفكم) والمقصود (سلوا سيوفكم) واستعمال (اسم التفضيل) بغير ما هو دال مثل : (هذا أحمر من هذا) والصحيح : (هذا أشدُ حمرةً من هذا) لأن (أفعل) الدالة على الألوان لا يُصاغ منها اسمُ تفضيل .

وكان بعضهم يسكّن آخر الكلمة فلا يظهر إعرابها ، ومن ذلك (إن كنت سبعْ) والمقصود (إن كنت سبعا) . وكثر اللحن في استعمال الأسماء الخمسة . ومن ذلك (إن أخينا وثب على مال أبانا فأكله) .

فاللحن وقع في الاصوات أي الحروف ، وفي التصرف والنحو ، وكان يزداد كلما بعُد العربُ والمسلمون عن منبع الفصاحة[14] ، ولذلك نهد

---

[14] ينظر تفصيل ذلك في كتاب فصول في العربية ص٦٧ وما بعدها .

الحريصون على العربية لتصحيح ما يقع من لحن أو خروج على أصول الصرف والنحو ، وألفت في ذلك كتب لتنقية العربية مما لحق بها من خلل[١٥] ، ومن أقدم كتبها (ما تلحن فيه العوام) لعلي بن حمزة الكسائي (- ١٨٩هـ) ومنها (كتاب (الألفاظ) لأبي يوسف يعقوب بن إسحاق المعروف بابن السكيت (- ٢٤٤هـ) ، واهتم العلماء بهذا الكتاب ووضع الخطيب التبريزي (- ٥٠٢هـ) كتاب (كنز الحفاظ في كتاب الألفاظ) .

ولابن السكيت كتاب (إصلاح المنطق) ، ولابن قتيبة (- ٢٧٦هـ) كتاب (أدب الكاتب) ووضع أبو العباس احمد بن يحيى المعروف بثعلب (٢٩١هـ) كتاب (الفصيح) الذي وُضعتْ عليه عدة شروح وقد ذيَّل عليه عبد اللطيف البغدادي ، (٦٢٩هـ) ، وللقاسم بن علي الحريري ، (- ٥١٦هـ) كتاب (دُرة الغواص في أوهام الخواص) ووضع أبو منصور الجواليقي (- ٥٤٠هـ) كتاب (تكملة إصلاح ما تغلط فيه العامة) .

وألف أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي (- ٥٩٧هـ) كتاب (تقويم اللسان) .

وكانت هذه الكتب سبيلا لتقويم اللسان العربي بعد أن بدأ اللحن يتفشى في اللغة العربية ، ولم تقف حركة التنقية عند عصر دون عصر وإنما استمرت ولا تزال المكتبة العربية تشهدُ في أيامنا هذه كتبا تصْدُرُ في التصحيح اللغوي أو تصحيحِ التصحيح اللغوي [١٦] .

---

[١٥] الكتاب السابق ص ٩ وما بعدها

[١٦] صدر في سنة ٢٠١٢ عن مكتبة لبنان ناشرون (معجم تصحيح التصحيح) .

ولم يقف الأمر عند التنقية اللغوية وحرص المؤلفين على تصحيح اللحن والأخطاء وإنما كانوا يعتزون بها كل الاعتزاز ، إذ كانت العربية موطن اعتزاز وتعظيم لا من العرب صليبية وحدهم وإنما من العلماء المسلمين الذين رأوا العربية أصلح لغةٍ للكتابة والتأليف ، وهذا أبو الريحان محمد بن احمد البيروني (– ٤٤٠هـ) يقول في مقدمة كتابه (الصيدنة) : ((ديننا والدولة عربيان ترفرف على أحدهما القوةُ الإلهيةُ ، وعلى الآخر اليدُ السماوية ، وكم احتشد طوائف من التوابع وخاصة منهم (الجيل) و (الديلم) في إلباس الدولة جلابيب العجمة فلم ينفُقْ لهم في المراد سوقٌ ما دام الأذان يقرعُ آذانهم كلّ يوم خمساً ، وتقام الصلواتُ بالقرآن العربي المبين خلف الأئمة صفّاً صفاً)) ثم قال : ((والهجو بالعربية أحبُّ اليّ من المدح بالفارسية . ويعرفُ – مصداق قولي منْ تأمل كتاب علم قد نُقلَ الى الفارسي كيف ذهب رونقة وكسف باله)) وهذا كلام رجل آمن بالله واتخذ الاسلامَ ديناً ومن العربية سبيلاً الى العلم والتحصيل والتأليف .

ويقول جار الله الزمخشري (– ٥٢٨هـ) في مقدمة كتاب (المفصل) : ((الله أحْمدُ على أن جعلني من علماءِ العربيةِ ، وجبلني على الغضب للعرب والعصبية)) وهذه شهادةُ رجل عاش في بيئة أعجمية وتكلم بلغة أهلها ، ولكنّ الله نوّر قلبه بالقرآن ولغته ، فأقبل على التفسير فيه ، وكان تفسيره (الكشاف) قمة ما عرفته العربيةُ معنى وأسلوبا ، وكانت كتبه في اللغة والنحو من أروع الكتب ، وهذا شأن المؤمنين بالله وكتابه العظيم ، فهم يعتزون باللغة العربية ويفضلونها على لغاتهم التي نشأوا عليها ، ويتخذونها

لغة العلم والأدب فتغنى بهم ويغنون بها ، وما ذلك إلا لأنها لغة كتابهم الأكبر ونبيهم الأعظم .

(٢)

شهدتِ اللغةُ العربيةُ نموا وازدهارا في العصر الحديثِ حيثُ وعَى العربُ حاضرَهم بعد النهضة التي أخذت تشرق على (الوطن العربي) وكان للرواد الأوائل فضلُ نموها وازدهارها إذ عكفوا على إحياء ماضيها المشرقِ وإقامةِ صرحٍ جديد يستوعبُ المستجداتِ وما طرأ على الحياةِ العلميةِ والحضاريةِ من تقدمٍ ، وكانوا يَمُدون الصحافةَ بكل جديد ، ويضعون المعاجمَ ويؤلفون الكتبَ ، ووقفت بعد ذلك المجامعُ العلميةُ واللغويةُ والجامعاتُ والمؤسساتُ العلميةُ والثقافيةُ ترفدُ العربية ألفاظا جديدة وأساليب بديعةَ تأخذُ من الماضي أَصالتَها ومن العصر جدتَها ورونقَها ، وبذلك ازدهرت (لغةُ الضاد) ، ولكنْ على الرغم من ذلك لم تسلم من التحديات التي واجهتها في القديمِ ، إذ علت أصواتٌ منكرةٌ تدعو الى العامية أو اتخاذ اللغاتِ الأجنبيةِ أداةً للتعبيرِ والتأليفِ لأنها لغةُ العلم والحضارةِ الحديثة ، وتصدى لهذه الأصواتِ المؤمنون بلغةِ (القرآن الكريم) التى هي رمز هُويتهم ، ووحْدتهم في هذا العالم ، والخضم الرهيب .

كان لابدَّ من الوقوف بوجه الدعَوات المضللةِ ، ولكن ليس بالتصدي والمواجهةِ فحسبُ وإنما بإصدار تشريعاتٍ لغويةٍ تُلزِمُ بالحفاظ على سلامةِ اللغةِ وكان (العراق) أول دولة عربية تُصدر

تشريعاً لغوياً في سنة ١٩٧٧م صدر (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية) وقد تولت مواده منسقة لتحدد الأهداف وتضع الأحكام .

ففي المادة الأولى : ((تلتزم الوزارات وما يتبعها من الدوائر الرسمية وشبه الرسمية ، والمؤسسات والمنظمات الشعبية بالمحافظة على سلامة اللغة العربية واعتمادها في وثائقها ومعاملاتها ، وذلك بجعل اللغة العربية وافية بأغراضها القومية والحضارية)) .

وجاء في المادة الثانية : ((على المؤسسات التعليمية في مراحل الدراسة كافة اعتماد اللغة العربية لغة تعليم ، وعليها أن تحرص على سلامتها نطقاً وكتابة ، وتنشئة الطلاب على حسن التعبير والتفكير بها ، وإدراك مزاياها ، والاعتزاز بها)) .

وجاء في المادة الثالثة : ((تلتزم مؤسسات النشر والإعلام التي تكون مطبوعاتها ومناهجها باللغة العربية أن تعنى بسلامة اللغة العربية ألفاظاً وتراكيب ، نطقاً وكتابة وتيسيرها للجماهير وتمكينهم من فهمها على أن لا يجوز لها استعمال العامية إلا عند الضرورة القصوى مع السعي إلى تقريبها من اللغة الفصيحة ، والانتفاع بها (على) وفق خطة منظمة ومقصودة)) .

وجاء في المادة الرابعة : ((يجب أن يحرر باللغة العربية ما يأتي :

أولاً : الوثائق والمذكرات والمكاتبات وغيرها من المحررات التي تقدم إلى الدوائر الرسمية وشبه الرسمية ، ومنها المصالح والمؤسسات والشركات العامة ، وإذا كانت هذه المحررات بلغة أجنبية وجب أن ترفق بها ترجمتها العربية .

ثانيا : السجلاتُ والمحاضرُ وغيرُها من المحررات التي يكون لممثلي الحكومةِ والمؤسساتِ حقُ الاطلاعِ عليها وتفتيشُها بمقتضى القوانين والأنظمة .

ثالثا : العقودُ والايصالاتُ والمكاتباتُ المتبادلةُ بين الأفراد ، ويجوز أن تُرفق بها ترجمتُها بلغةٍ أجنبية عند الحاجة .

رابعا : اللافتاتُ التي تضعها المؤسساتُ والمنظماتُ والجمعياتُ والمحلاتُ التجارية أو الصناعيةُ على واجهات محالّها ، ويجوز كتابةُ ذلك عند الحاجةِ بلغةٍ أجنبيةٍ الى جانب اللغة العربية بشرطِ أن تكونَ الكتابةُ باللغةِ العربيةُ أكبر حجما وأبرز مكانا)) .

وألزمت المادةُ الخامسةَ أن ((تُكتب باللغة العربية العلاماتُ وبراءاتُ الاختراع والنماذجُ التي تتّخذ شكلا مميزا لها كالأسماءِ والإحصاءات والكلماتِ والحروف والأرقامِ وعنوانِ المحالّ والاختامِ والنقوشِ البارزة ، ولا يجوز تسجيلُ علامة تجارية تتخذ أحدَ هذه الأشكال إلا إذا كُتبت باللغةِ العربية على أنَّ ذلك لا يمنع طلبَ تسجيلِ علامةٍ مكتوبة بلغة أجنبية الى جانب اللغةِ العربية بشرطِ أن تكونَ اللغةُ العربية أكبر حجما وأبرز مكانا منها)) .

ونصت المادةُ السادسة على أن ((تُكتب باللغةِ العربيةِ البياناتُ التجاريةُ المتعلقةُ بأي سلعة تمَ إنتاجُها بالقطر العراقي ، كما تُلصقُ بطاقةٌ باللغة العربية على المنتجات والبضائع التي تُستوردُ من الخارج تتضمنُ البياناتِ التجاريةِ ذاتَ الصلة بتحديد قيمتها ، ويجوزُ أن تُكتبَ بلغة أجنبية

الى جانب اللغة العربية فيما يتعلق بالبضائع الواردة من الخارج أو المعدة للتصدير الى خارج العراق)) .

ونصت المادةُ السابعة على أن ((تشمل العنايةُ باللغةِ العربيةِ اعتمادًا في التعبير في جميع ما سبق ذكرُه ، وتجنب استعمال المصطلحات الأجنبية إلا عند الضرورة وبصورة مؤقتة عند عدم توفر المصطلحات العربية)) وحددت المادةُ الثامنة سبيلا للعمل وقد جاء فيها : ((على الوزارات أن تُنشئ أجهزةً تُعنى بسلامة اللغة العربية في وثائقِها ومعاملاتها بما يكفل حُسْنَ تطبيق هذا القانون)) .

وأناطت المادة التاسعة بالمجمع العلمي وضعَ المصطلحات العلمية والفنية ، وقد جاء فيها : ((يكون المجمعُ العلميُّ العراقيُّ المرجعَ الوحيدَ في وضعِ المصطلحات العلمية والفنية ، وعلى الأجهزةِ المعنية الرجوعُ اليه بشأنها)) فأهمُّ ما أوجبه القانون وأكده :

الأول : الالتزامُ باللغة العربية الفصيحة والابتعادُ عن اللهجاتِ العامية والألفاظ الأجنبية .

الثاني : الالتزامُ بالمصطلح العلمي العربي .

الثالث : الالتزامُ بالحرفِ العربي الجميل .

الرابع : الالتزامُ بالرقم العربي العريق .

وهذه القضايا الأربعُ من أهم القضايا التي شغلت المعنيين بلغة الضاد ، والمخلصين لأمتهم ووضعهم بعد الهجماتِ الشرسة التي تعرض لها (الوطنُ العربي) في القرن العشرين .

وكان لابد من جهة تشرف على تطبيق القانون وتتابع شؤون اللغة العربية ، ففي سنة ١٩٧٩م صدر (قانون اللجنة العليا للعناية باللغة العربية) ثم أُلغي سنة ١٩٨٣م وصدر (قانون الهيئة العليا للعناية باللغة العربية) الذي أصبح نافذا بعد نشره في الجريدة الرسمية .

وتسعى الهيئة الى تحقيق ما يأتي :

أ – العنايةُ باللغة العربية من جميع الوجوه ، بوصفها اللغة القومية للأمة العربية التي هي في مقدمة اللغات المستقلة الحية المتطورة المنتشرة على النطاق العالمي :

ب – تيسيرُ استعمالِ اللغة العربية لتعميم الاستفادة منها في الأغراض كافةً ، وفي الشؤون العلمية بوجه خاص .

ج – المحافظةُ على أصالة اللغة العربية وجوهرها وسلامتها من الأخطار ، وخلوِها من الألفاظ العامية والأجنبية .

وتتولى

أ – الرقابةَ والإشراف على تنفيذ (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية) رقم (٦٤) لسنة ١٩٧٧م والقوانينِ والأنظمةِ والتعليمات والقرارات المتعلقةِ بشؤون اللغة العربية .

ب – اقتراحَ مشروعات القوانين والأنظمة المتعلقة بشؤون اللغة العربية .

ج – وضع تقرير سنوي يرفع الى (مجلس قيادة الثورة) عن تطبيقات التشريعاتِ المتعلقة بشؤون اللغة العربية .

د – المشاركةَ في المؤتمرات ، وعقد الندوات ، والاستعانةَ بالمختصين ، وتأليف لجان لدراسة الموضوعات المتعلقة بشؤون اللغة العربية .

وكانت الهيئة مؤلفة من الرئيس وعضوية وزارة التعليم العالي والبحث العلمي والتربية ، والثقافة والاعلام ، ورئيس المجمع العلمي وبعض أساتذة اللغة العربية المعروفين بعلمهم واهتمامهم بلغة الضاد .

وشَكّلت هيئاتٌ في الوزارات والموسسات الحكومية برئاسة وكيل الوزارة أو أقدم المسؤولين وبدأت تعملُ ، وتستقري المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية ، وتعقد الندوات للتوعية اللغوية ، وكان المجمعُ العلمي يتعاون معها في وضع المصطلحات وكانت الصحافةُ والأذاعة المسموعة والأذاعةُ المرئيةُ تنفذ ما تُصْدِرُ الهيئةُ من قرارات أو توصيات .

واستطاعت الهيئةُ أن تُصدِر مجلةً متخصصة باسم (الضاد) التي كانت منبرا للبحوث الخاصة بتنمية العربية وتطورها لتستوعب المستجدات .

وكانت تحتفل في تشرين الأول من كل عام هي والوزاراتُ والمؤسساتُ بيوم الضاد ، وفيه تُعقدُ الندواتُ وتُلقى المحاضراتُ وتُنشر المقالاتُ وتَبُثُّ الاذاعتان ما يُقال وما ينشر ، وقد تحقق الكثير في نموّ العربية وازدهارها ، والتزم المواطنون بقانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية وقرارات الهيئة . وتعليماتها ، وأنجزت ما فيه خيرُ العربية ، وفائدةُ المواطنين[١٧] . ولأمر ما أُلغيت ، سنة ١٩٩٢م وشكلت (هيئةُ العناية باللغة العربية) وارتبطت بالأمانة العامة لمجلس الوزراء . ولم تقدّم ما قدمته الهيئةُ الأولى لأنها فقدت سُبُلَ التنفيذِ . فضلا عن أن رئيسَها أصبح أمينا عاما للمجمع العلمي في تشكيلته الأخيرة سنة ١٩٩٦م .

---

[١٧] تنظر انجازاتها في كتاب (الهيئة العليا للعناية باللغة العربية) .

لم تتوقف العناية باللغة العربية والحفاظ عليها ، ففي الثامن من نيسان سنة ٢٠٠٩م وجهت (الأمانةُ العامة لمجلس الوزراء) تعميما الى الوزاراتِ والهيئاتِ ومجالس المحافظات جاء فيه :

((لوحظ في الآونة الأخيرة استخدامُ العديدِ من الوزارات والجهاتِ غير المرتبطةِ بوزارةِ المصطلحات الأجنبية في المراسلات والمخاطبات الرسمية ، وبشكل مخالفِ لأحكام (قانون الحفاظِ على سلامة اللغة العربية) رقم (٦٤) لسنة ١٩٧٧م المعدل ، وبغيةَ الموازنةِ بين أحكام القانون آنفا والتطورات التي يشهدها المجتمعُ حاليا في الانفتاح على المجتمعِ الدولي ومتطلبات (الحفاظ على سلامة اللغة العربية) تقرر مراعاةُ الآتي :

أولا : وضع آلية مناسبةٍ في الوزارات والجهات غير المرتبطة بوزارة ، وكذلك الجامعات والكليات ودوائر الدولة كافةً تتضمن ما يأتي :

١ – متابعة سلامة اللغة العربية في المخاطباتِ والمراسلات الرسمية ، وتصحيحَ الأخطاء اللغوية .

٢ – نشر الوعي اللغويّ في المؤسسة .

٣ – إصدارَ نَشراتٍ لغوية .

٤ – جمعَ الألفاظِ الأجنبية المتداولة وإرسالَها الى (المجمع العلمي) ليضع لها المقابلَ العربي استنادا الى حكم (المادة التاسعة) من (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية) أعلاه .

ج- بإمكان تلك اللجان الاستعانةُ بالمعاجم التي تتضمنُ المصطلحات العلمية والألفاظ الحضارية ، والكلمات المتداولة في المعاملات الرسمية التي يُصدرها (المجمع العلمي) .

ثانيا : وضعُ المصطلح الأجنبي داخلَ أقواسٍ الى جانب المصطلح المكتوب باللغة العربية .

ثالثا : وضعُ المصطلحِ الأجنبي الذي ليس له مرادفٌ عربي داخل قوسين ، ويُشار الى تفسيره في سياق المراسلة)) .

وتلت ذلك خطواتٌ لتعزيز دور اللغة العربية واستيعابها المستجدات والعنايةِ بها والحفاظِ على سلامتها ، ففي سنة ٢٠١٢ م صدر (أمرٌ ديواني) تضمن تشكيلَ لجنةٍ دائمةٍ مختصة بالحفاظ على سلامة اللغة العربية ، وبدأت اللجنةُ تعقدُ الاجتماعاتِ وتقدمُ التوصياتِ الى الأمانةِ العامة لمجلس الوزراء لتعميمها على الوزاراتِ والجهاتِ غيرِ المرتبطة بوزارة والمحافظاتِ ومجالسِ المحافظات ، جاء في تعميم (الأمانة العامة) في ٢٠١٣/١/٢م : ((تفعيلُ (قانون سلامة اللغة العربية) رقم (٦٤) لسنة ١٩٧٧م وتنفيذُ ما ورد في المادة (٨) منه التي نصت ((على الوزارات أن تنشئَ أجهزةً لها تُعنى بسلامة اللغة العربية في وثائقِها ومعاملاتها بما يكفُلُ حسْنَ تطبيقِ هذا القانون)) .

وعززت (الأمانةُ العامةُ) هذا بتعميمها في ٢٠١٣/١/٢١م الذي جاء فيه ((متابعةُ مضمون المادة (٤/رابعا) من القانون المذكور بإلزام جميعِ تشكيلاتها الرئيسةِ والدوائر الفرعيةِ التابعة لها بكتابة اللافتات التي تضعُها على واجهاتها بلغةٍ عربية سليمة)) .

وتحددت مهامُ اللجنة بما جاء بكتاب (الأمانة : العامة) في ٢٠١٣/٣/١٣ ، وهو : ((تتولى اللجنةُ المهامَ الآتية)) :

١ – الرقابةَ والإشرافَ على تنفيذ (قانون الحفاظِ على سلامة اللغة العربية) رقم (٦٤) لسنة ١٩٧٧م .

٢ – اقتراحَ مشروعاتِ القوانين والأنظمة المتعلقة بشؤون اللغة العربية .

٣ – وضعَ تقريرٍ سنويٍّ يُرفعُ الى (أمانة مجلس الوزراء) عن نتائج تطبيق التشريعات المتعلقةِ بشؤون اللغة العربية .

٤ – المشاركةَ في المؤتمرات وعقدَ الندوات ، والاستعانة بالمختصين ، وتأليفَ لجانٍ لدراسة الموضوعات المتعلقة باللغة العربية .

٥ – متابعةَ جهود الوزارات ودوائر الدولة فيما نفّذتْهُ وتنفذه من أحكام (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية رقم (٦٤) لسنة ١٩٧٧م ، وقرارات اللجنة ، وإعانةَ تلك الجهات على تكوين أجهزتها للعناية باللغة العربية عن طريقِ تقديم الخبرة ، أو تكليف العناصر المؤهلة ، وانتدابها من أي مؤسسة رسمية الى الجهة الطالبة للعون بالاتفاق والتنسيقِ مع الدوائرِ المعنية .

٦ – تكليفَ دوائرِ الدولة بفتح دوراتٍ لتحسين الأداء باللغة العربية الفصيحة تهدفُ الى رفع كفاءةِ المشتغلين في تحرير الكتب الرسميه في دوائر الدولة ، وإقرارِ المناهج اللازمة لها ومتابعةِ تنفيذها .

٧ – تكليفَ الباحثين والمعنيين بشؤون اللغة العربية باعداد بحوث ودراسات تهدُفُ الى العنايةِ باللغة العربية ، وتحسينِ الأداء بها .

٨ إشراك اللجنة في اللجان المركزية المعنية بالمناهج الدراسية للنظر في مناهج اللغة العربية في مرحلةِ التعليم الجامعي وما يسبقُها من مراحل .

٩ إصدار سلسلةٍ من الكراسات الدورية في الأخطاءِ اللغوية والأسلوبية الشائعة وإعمامها على دوائر الدولة لتجاوزها ، والأخذ بالبديل الصحيح .

١٠ القيام بأي نشاط آخر ييسر أعمال اللجنة واعتمد يوم الثامن عشر من كانون الأول (الذي أقرته الأمم المتحدة يوما عالميا للغة العربية) من كلِّ عام يوما وطنيا للاحتفال باللغة العربية والإعداد لإقامة احتفالية بهذا اليوم سنويا ، وتقرر – كما جاء – في كتاب الأمانة العامة في ٢٠ / ٦ / ٢٠١٣م تشكيلُ لجانٍ فرعية في المؤسسات تتولى متابعة تطبيق (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية) رقم (٦٤) لسنة ١٩٧٧م وجاءت في كتاب (الأمانة العامة) في ٢٤/٧/٢٠١٣م المقترحاتُ الخاصةُ للاحتفال بيومِ اللغة العربية وهي :

١ – إقامةُ احتفالٍ يليق باللغة العربية في قاعة الوزارة أو الدائرة الرئيسة وبحضور كبار المسؤولين فيها على أن يتضمنَ الاحتفالُ كلماتٍ وقصائدَ تُمجدُ اللغةَ العربية .

٢ – تأليفُ النشرات وتعليقُ الملصقات الجدارية المعبرة عن أهمية اللغة العربية وتأكيدُ العناية بها . والحفاظ على سلامتها .

٣ – رفعُ معالم الزينة واللافتات .

٤ – تكريمُ الموظفين الذين سيشاركون في دورات اللغة العربية ، وتحويه المهارات الكتابيةِ ، والذين يحصلون على مراتبَ متقدمةٍ فيها .

٥ – إقامةُ مَعْرِضٍ للكتابِ والخطِ العربي والزخرفةِ بالحروف (على هامش الاحتفال) .

وأكدت (الأمانةُ العامة) في ٦ /١١/٢٠١٣م اتخاذ الاجراءات لتنفيذِ هذه المقترحاتِ .

هذا ما كان من نشأةِ اللغة العربية وازدهارها ، ودور (العراق) في العناية بها والحفاظ على سلامته ، وهو بذلك يحملُ هذه المسؤولية كما حملها في القديم حين مُصّرت (البصرةُ) و (الكوفةُ) في مطلع القرن الأول للهجرة ، وتلتهما (بغدادُ) في القرن الثاني ، وحملت هذه الحواضرُ الثلاثُ (لغة الضاد) ونشرتها في العالم الاسلامي لتظل لغةَ (القرآن الكريم) وهُوية الأمةِ العربية ، وأداة الترجمة والتأليف في العلوم والآداب والفنون ، ولغةً تتردد على كل لسان .

لم تكن الدول العربية بعبدةً عن العناية باللغة العربية والحفاظ عليها ، ففي سورية ومصر والأردن وفلسطين[١٨] والمغرب والسودان والجزائر مجامع لغوية . وكلها تسعى الى العناية باللغة العربية وتنميتها لتستوعب المستجدات ، ولكنها لا تملك سلطة متابعةٍ وتنفيذٍ لعدم وجود تشريعي لغوي[١٩] .

والأمل معقودٌ على القيادات في إصدارِ قوانينَ لغويةٍ تصون (لغةَ الضادِ) من كل تحريف ، وتحققُ نموها وازدهارَها ، فضلاً عن أن يقوم (اتحاد المجامع اللغوية والعلمية) بتقديم مقترح الى (الأمانة العامة) لجامعة الدولة العربية لتأسيس منظمة عالمية للغة العربية على غرار (الفرانكفونية) التي تُعنى باللغةِ الفرنسية وتنشُرُها في العالم ، وهو ما دعوت اليه منذ سنوات[٢٠] .

لقد أصبح الظرفُ مناسباً لانشاء المنظمة ولاسيما أن العربية من اللغات الخمس المعترف بها في (المنظمة الدولية) فضلا عن أنَّ (المجلسَ التنفيذي لمنظمة الأمم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة –

---

[١٨] في فلسطين مجمعان : واحد في دولة فلسطين والآخر في الكيان اليهودي الصهيوني .

[١٩] في الجزائر (المجلس الأعلى للغة العربية) وهو قريب من (الهيئة العليا للعناية باللغة العربية) في العراق .

[٢٠] ينظر التشريع اللغوي ص١٧ وغيره من مؤلفاتي .

اليونسكو) قد أعلن أنَّ الثامن عشر من (كانون الأول) من كل عام هو (اليوم العالمي للغة العربية) .

وستكون المنظمة حين يجدُ الجدُّ فاعلةً في الساحتين : العربية والإسلامية ، لأن المؤسسات غير الحكومية لا تستطيع أن تُؤدي الدور كما تُؤديه المؤسسات الرسمية ، وإن كان في (الوطن العربي اكثر من منظمة[٢١] .

ومهما يكن من أمر فلا بُدَّ من تشريعٍ لغويٍّ مُلزمٍ ، لأن التمسك العاطفي باللغة وحْدَه قد يخف ، وكان النبيُّ (محمد) – صلى الله عليه وسلم – قد قال : ((مَنْ يزعُ السلطانُ أكثرُ ممن يَزَعُ القرآنُ))[٢٢] .

أي : مَنْ يُكف عن ارتكاب العظائم مخافة السلطان أكثرُ ممن يكُفه مخافة القرآن والله تعالى .

وكنتُ قد دعوات في المؤتمرات العربية الى إصدار القوانين اللغوية الملزمة[٢٣] ، لأن المجامعَ اللغويةَ والعلميةَ لا تملكُ سلطة المتابعة والتنفيذ كما في (العراق) حيث ألزم القانونُ (الحفاظ على سلامة اللغة العربية) وأناطت مادته التاسعة وضع المصطلحات العلمية والفنية بالمجمع العلمي العراقي .

---

[٢١] منها (المجلس العالمي للغة العربية) و (المؤتمر الدولي للغة العربية) وفي مكة المكرمة مجمع للغة العربية غير رسمي .

[٢٢] النهاية في غريب الحديث والأثر ج٥ ص١٨٠ . وزع يزعه وزعا إذا كفه ومنعه .

[٢٣] ينظر التشريعات اللغوية ص١١ .

وتبنّت (مؤسسةُ الفكر العربي) في إعلانها (لننهض بلغتنا) باجتماعها في دبي (١١ محرم ١٤٣٤هـ - ٢٥ تشرين الثاني ٢٠١٢م) ما كنت قد دعوت اليه[٢٤] ، ودعت الى :

١ - اتخاذ سياسات لغوية ملزمة ، وتفعيل النصوص الدستورية والتشريعية التي تنص على أنّ اللغة العربية هي اللغةُ الرّسميةُ ، وتحويلها الى منظومةٍ دقيقة من اللوائح التفصيلية والقرارات ذات الصفة الملزمة .

٢ - قيام جامعة الدولة العربية بتأسيس كيان دولي للغة العربية على غرار (المنظمة الفرانكفونية) تكون بمثابة مظلة لتنسيق الجهود والأعمال بين المؤسسات العاملةِ في مجال اللغة العربية الحكوميةِ والأهليةِ .

هذا ما يصبو اليه المؤمنون بالله ، والمخلصون للغتهم التي نزل بها (القرآن الكريم) ولعلهم ينجزون ما يبغون ، وأن يهيء الله لنا من أمرنا رشدا .

---

[٢٤] كنت أحد المشاركين في إعداد الإعلان اذ قدمت بحثي (التشريع اللغوي) وفيه المقترحان ، وقد حضرت مؤتمر (مؤسسة الفكر العربي) الذي عقد في (دبي) .

المصـــادر :

١ - الإحكام في أُصول الأحكام - على بن حزم الأَندلسي الظاهري - القاهرة .

٢ - أشتات مجتمعات في اللغة والأدب - عباس محمود العقاد . القاهرة ١٩٦٣م .

٣ - بحوث لغوية - الدكتور احمد مطلوب - عمان ١٩٨٧م .

٤ - البيان والتبيين - عمرو بن بحر الجاحظ - تحقيق عبد السلام محمد هارون - القاهرة ١٣٦٧هـ - ١٩٤٨م .

٥ - تأريخ العرب قبل الاسلام - الدكتور جواد علي (ج٧) الجزء اللغوي - بغداد ١٣٧٧هـ - ١٩٥٧م .

٦ - تأريخ اللغات السامية - أ . ولفنسون - بيروت ١٩٨٠م .

٧ - التشريع اللغوي - الدكتور احمد مطلوب - بغداد ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

٨ - دراسات في فقه اللغة العربية - الدكتور السيد يعقوب بكر - بيروت ١٩٦٩م .

٩ - الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام - عبد الرحمن السهيلي - تحقيق عبد الرحمن الوكيل - القاهرة .

١٠ - الصيدنة - أبو الريحان محمد بن احمد البيروني - (مخطوطة مكتبة الدراسات العليا في كلية الآداب بجامعة بغداد) .

١١ - طبقات فحول الشعراء - محمد بن سلام الجمحي - تحقيق محمود محمد شاكر - القاهرة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م .

١٢ - فصول في العربية - الدكتور احمد مطلوب - بغداد ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م .

١٣ - فصول في فقه العربية - الدكتور رمضان عبد التواب - القاهرة ١٩٧٣م .

١٤ - فقه اللغة - الدكتور علي عبد الواحد علي - الطبعة الرابعة - القاهرة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م .

١٥ - قوانين اللغة العربية (في كتاب الهيئة العليا للعناية باللغة العربية) للدكتور احمد مطلوب .

١٦ - المفصل - جار الله الزمخشري - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد - القاهرة .

١٧ - المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام - الدكتور جواد علي - بيروت ١٩٧٦م وما بعدها .

١٨ - معجم تصحيح التصحيح - الدكتور احمد مطلوب - بيروت ٢٠١٢م.

١٩ - نشوء اللغة العربية ونموها واكتهالها - الأب أنستاس ماري الكرملي - القاهرة ١٩٣٨م .

٢٠ النهاية في غريب الحديث والأثر - مجد الدين المبارك بن محمد الجزري (ابن الأثير) تحقيق محمود محمد الطناحي -- القاهرة ١٣٨٣هـ ١٩٦٣م .

٢١ - الهيئة العليا للعناية باللغة العربية - الدكتور احمد مطلوب - بغداد ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م .

٢٢ -- الوثائق الرسمية الخاصة بلجنة اللغة العربية في العراق .

بغداد في رحلة ناصر الدين شاه للعتبات المقدسة في العراق
سنة ١٨٧٠- ١٨٧١

الدكتور جميل موسى النجار
قسم التاريخ- كلية التربية
الجامعة المستنصرية

الملخص :

نكتبُ الرحلات أهمية لما فيها من معلومات لا يجدها القراء والباحثون في الكتب العامة ، واشتهرت في اللغة العربية (رحلة ابن جبير) و (رحلة بن بطوطة) وعرفت في الفارسية (رحلة ناصر الدين شاه) التي دون فيها ما شاهده في بغداد ، وزيارته للعتبات المقدسة في العراق ، وفيه معلومات عما كان عليه الوضع في القرن التاسع عشر .

المقدمة :

أولاً : في إطار الوصف والتقديم

قام العاهل الإيراني ناصر الدين شاه (١٨٤٨- ١٨٩٦) بزيارة الى العتبات المقدسة في العراق في أواخر سنة ١٨٧٠ . واستمرت تلك الزيارة حتى مطلع سنة ١٨٧١ . وكان العراق خلال زيارته ولاية عثمانية واحدة تعرف بولاية بغداد ، تتبعها الموصل والبصرة بوصفهما سنجقين من سناجقها

العشرة . وكان يتولى حكم ولاية بغداد آنذاك الوالي العثماني المصلح مدحت باشا أحد مشاهير رجال الدولة العثمانية . وقد دخل ناصر الدين شاه الى ولاية بغداد من حدودها مع إيران ، القريبة من مدينة خانقين في ٢٢ شعبان ١٢٨٧هـ[١] ، الموافق ١٧ تشرين الثاني ١٨٧٠م . وبعد أن مكث في العراق خمسة وخمسين يوما ، مر خلالهما بمدن وأماكن عديدة تقع في مسيره على الطرق المؤدية الى العتبات المقدسة في بغداد وكربلاء والنجف وسامراء . غادر ناصر الدين شاه أراضي ولاية بغداد في ١٧ شوال ١٢٨٧هـ[٢] ، الموافق ١٠ كانون الثاني سنة ١٨٧١م . وقد استغرقت رحلة ناصر الدين شاه لزيارة العتبات المقدسة في العراق بأكملها أكثر من خمسة أشهر . فقد انطلق موكب الشاه من طهران في ٢٠ جمادى الآخرة

---

[١] الزوراء(جريدة) ، العدد ٩٦ ، ٢٦ شعبان ١٢٨٧هـ . ويذكر ناصر الدين شاه في رحلته (سفرنامه عتبات) ، أنه وصل خانقين في ٢١ شعبان ١٢٨٧هـ . سفرنامه عتبات(سال ١٢٨٧ قمرى) ، از ناصر الدين شاه قاجار ، با مقدمه وفهرست وبازخوانى به كوشش ايرج افشار ، چاپ اول ، انتشارات فردوسى ، تهران ١٣٦٣ ، ص٨٦ . ويرجع الاختلاف في تحديد تاريخ وصوله ، بين ما ذكرته جريدة الزوراء وما ذكره هو ، الى الاختلاف الذي يحصل أحيانا في تحديد بدايات الشهور القمرية بين إيران والدولة العثمانية .

[٢] سفرنامهٔ عتبات ، ص١٦٥ . على أن مصدرا فارسيا ذكر ، خطأ ، أن ناصر الدين شاه مكث في العراق ثلاثة أشهر . يراجع : ساسانى ، خان ملك ، سياستگران دورهٔ قاجار ، به كوشش سيد مرتضى آب داود ، چاپ اول ، انتشارات مگستان ، تهران ١٣٧٩ ، ص٤٤٣ .

١٢٨٧هـ[3] ، الموافق ١٧ أيلول ١٨٧٠م ، وعاد الى طهران في غرة ذي الحجة ١٢٨٧هـ[4] ، الموافق ٢٢ شباط ١٨٧١م .

ومن الجدير بالذكر أن ناصر الدين شاه قام برحلات عديدة داخل إيران وخارجها ، اتسمت بكونها رحلات استغرقت أزمانا ومسافات طويلة[5] . وكان في رحلاته الخارجية أول عاهل إيراني يزور أوربا[6] . وقد دون الشاه خلال رحلاته تلك مشاهداته وانطباعاته وأفكاره ، وأسماء الأماكن التي مرّ بها ، ووصف المدن التي نزل فيها ، وذكر الأشخاص الذين التقى بهم ، فضلا عن معلومات طريفة أخرى ، أو أملى ذلك كله على من قام بكتابتها من مرافقيه ورجاله المقربين ، مثل (حكيم الممالك) ، فيما يتعلق برحلته

---

[3] الزوراء ، العدد ٩٣ ، ١٥ شعبان ١٢٨٧هـ ؛ شميم ، علي اصغر ، ايران در دورهٔ سلطنت قاجار ، چاپ سوم ، انتشارات زرياب ، تهران ١٣٨٤ ، ص١٩ ؛ ولايتي ، علي اكبر ، تاريخ روابط خارجي ايران دوران ناصر الدين شاه ومظفر الدين شاه ، چاپ دوم ، موسسه چاپ وانتشارات وزارة أمور خارجه ، تهران ١٣٧٥ ، ص٩٦ .

[4] سفرنامهٔ عتبات ، ص ١٨٨ ؛ ولايتي ، همانجا ، ص٩٧ ؛ اعتماد السلطنة ، تاريخ منتظم ناصرى ، جلد سوم ، به تصحيح دكتر محمد اسماعيل رضوانى ، چاپ أول ، دنياى كتاب ، تهران ١٣٦٧ ، ص١٩١٦ ؛ طلوعي ، محمود ، هفت پادشاه ، ناگفته ها از زندگي وروزگار سلاطين قاجار ، جلد اول ، چاپ اول ، نشر علم ، تهران ١٣٧٧ ، ص٤٨٠ .

[5] بناهي سمناني ، محمد احمد ، ناصر الدين شاه . فرار وفرود استبداد سنتي در ايران ، چاپ اول ، انتشارات نمونه ، تهران ١٣٧٧ ، ص٢٦٤ .

[6] شميم ، همان مأخذ ، ص١٨٢ ؛ ماركام ، كلمنت ، تاريخ ايران در دورهٔ قاجار ، ترجمه گونه از ميرزا رحيم فرزانه ، چاپ دوم ، نشر فرهنگ ايران ، ايران ١٣٦٧ ، ص١٦٧ .

الأولى الى خراسان ، و(محمد حسن خان اعتماد السلطنة) ، الذي قام بكتابة رحلته الى مازندران . إلا أن ناصر الدين شاه دون بنفسه ، كما تشير دلائل عديدة ، يوميات رحلته الى العتبات المقدسة في العراق[7] . وكانت رحلاته داخل إيران ، هي :

١- رحلة خراسان الأولى في سنة ١٢٨٣هـ ، نشرت في طهران في سنة ١٢٨٦هـ .
٢- رحلة خراسان الثانية في سنة ١٣٠٠هـ ، وقد نشرت في طهران أيضاً .
٣- رحلة مازندران في سنة ١٢٩٢هـ ، نشرت في سنة ١٢٩٤هـ .
٤- رحلة عراق العجم في سنة ١٣٠٩هـ ، نشرت في سنة ١٣١١هـ .

أما رحلات ناصر الدين شاه خارج إيران ، فكانت :

١- الرحلة الأولى الى أوربا في سنة ١٢٩٠ ، نشرت في سنة ١٢٩١هـ .
٢- الرحلة الثانية الى أوربا في سنة ١٢٩٥ ، نشرت في سنة ١٢٩٦هـ .
٣- الرحلة الثالثة الى أوربا في سنة ١٣٠٦هـ ، نشرت في سنة ١٣٠٨هـ .
وقد ترجمت الى اللغة الانكليزية ونشرت ملخصات لهذه السفرات الثلاث.
٤- رحلة العتبات في العراق في سنة ١٢٨٧هـ[9] .

---

[7] بياني ، دكتر خانبابا ، پنجاه سال تاريخ ايران در دورهٔ ناصرى ، جلد اول ، جاپ اول ، نشر علم ، تهران ١٣٧٥ ، ص٤٣٢ .

[8] شاهي سمناني ، ص٢٦٣

[9] بياني ، همان مأخذ ، ص٤٣٢ - ٤٣٣ .

ولعل مما تجدر الإشارة إليه ، قبل الخوض في الحديث عن مشاهدات ناصر الدين شاه في بغداد وانطباعاته عنها ، مما دونه في رحلته (سفرنامه' عتبات) ، هو أن زيارة الشاه للعتبات المقدسة في ولاية بغداد (العثمانية) جاءت في وقت كانت تمر فيه علاقات إيران مع الدولة العثمانية بمرحلة من الهدوء والإستقرار . كان يسعى خلالها كل من الجانبين الإيراني والعثماني الى تطبيع العلاقات بينهما وتحسينها ، منذ أن أرست بنود معاهدتي أرضروم الأولى والثانية اللتين أبرمتا بين الدولة العثمانية وإيران في سنتي ١٨٢٣ و١٨٤٧ ، مبادىء وأسس مثل هذه العلاقة الحسنة . فقد أنهت هاتان المعاهدتان ، لاسيما معاهدة أرضروم الثانية ، حروبا كبرى ومماحكات عسكرية بين الدولتين استمرت لأكثر من ثلاثة قرون ، وقلصت الى حدّ كبير من المشاكل والخلافات بينهما . ومن ثم فقد استقبل ناصر الدين شاه في ولاية بغداد خلال زيارته للعتبات المقدسة استقبالا رسميا عثمانيا حافلا ، أظهر فيه العثمانيون ترحيبا حارا بضيفهم الإيراني ، واهتماما كبيرا به[١٠] ، الأمر الذي انعكس ، كما سنلاحظ ، على طبيعة الوصف الذي كتبه ناصر الدين شاه لبغداد في رحلته .

ومما انعكس أيضا على طبيعة وصف ناصر الدين شاه لبغداد ، أو لسواها من المدن العراقية التي مر بها أو التي زارها خلال رحلته ، هو مشاعر الولاء والمحبة لآل بيت النبي(صلى الله عليه وسلم) التي تأججت

---

[١٠] للتفاصيل : النجار ، جميل موسى ، مظاهر الترحيب الرسمي بناصر الدين شاه خلال زيارته للعتبات المقدسة في العراق سنة ١٢٨٧هـ- ١٨٧٠م ، دراسات تاريخية (مجلة - بيت الحكمة) ، العدد ٣٠ ، السنة العاشرة ، بغداد ١٤٣٢هـ- ٢٠١١م

سنده خلال تلك الرحلة . كتب قبل رحلته الى العراق الى السفير الإيراني في العاصمة العثمانية استانبول (وزير مختار إيران مقيم استانبول) محمد حسين خان مشير الدولة ، يطلب منه أن يفاتح الخارجية العثمانية برغبته في زيارة العتبات المقدسة في العراق . كيما يستحصل موافقة الدولة العثمانية عليها ، قائلا له أن أمر السفر الى العراق لزيارة مراقد أئمة أهل البيت واجب لأنه قد نذر أن يزورهم وعليه أن يفي بالنذر[١١] . كما أن الشاه كان يحدث بأنه شاهد في عالم الرؤيا أنه موجود في الروضة الحسينية المطهرة في كربلاء يقوم بأداء زيارة الإمام الحسين بن علي(عليه السلام)[١٢] ، ومن ثم لابد لهذه الرؤيا أن تتحقق

دون ناصر الدين شاه يوميات رحلته الى العتبات المقدسة في العراق منذ انطلاقه من سلطنة آباد في طهران في يوم الجمعة العشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٨٧هـ . وكتب قبل أن يشرع بسرد يوميات سفره العبارة الآتية : (يوميات السفر من طهران الى كربلاء والنجف وسائر المواطن والمراقد المطهرة لأئمة الهدى والأولياء والشهداء عليهم السلام سنة ١٢٨٧هـ) . وقد طبعت هذه اليوميات تحت عنوان : (سفرنامهٔ عتبات . . سال ١٢٨٧ قمرى ، از ناصر الدين شاه قاجار) ، والطبعة التي بين ايدينا لها حققها وكتب مقدمتها ووضع فهرسة لها الباحث الإيراني إيرج افشار المتخصص في الدراسات الإيرانية . ونشرت نشرا مشتركا من قبل

---

[١١] طلوعي ، همان مأخذ ، ص٤٧٨-٤٧٩ .

[١٢] اعظام قدسي ، حسن ، كتاب خاطرات من . . يا روشن شدن تاريخ صد ساله ، چاپخانه حيدري ، طهران ١٣٤٢ ، ص٦٣

للناشرين (انتشارات فردوسي) ، (انتشارات عطار) ، وطبعت ، طبعة أولى للناشرين ، في مطبعة (رشدية) في طهران سنة ١٣٦٣هـ - ١٩٤٣م ، بتسع وثمانين ومائتي صفحة .

وعلى الرغم من أن جانب مما دونه ناصر الدين شاه في (سفرنامه' عتبات) ليست له أهمية تاريخيه ، سواء أكانت تتعلق بتاريخ إيران أم بتاريخ العراق ، كونه يتحدث ، مثلا ، عن انطباعات ومشاعر شخصية للشاه ، والطعام الذي يتناوله ، ولهوه مع قططه ، وخروجه لصيد الدراج مرارا خلال وجوده في العراق ، فإن كثيرا مما كتبه الشاه في سفرنامه' عتبات كانت له أهمية كبيرة لتاريخ إيران ولتاريخ العراق في العهد العثماني الأخير ويعد مصدرا أصيلا لهما . إلا أن إدراك هذه الأهمية ، متمثلا بترجمة رحلة ناصر الدين شاه من اللغة الفارسية الى اللغة العربية ووضعها في متناول باحثينا ، جاء متأخرا ومبتسرا ، فقد قام الأستاذ محمد الشيخ هادي الأسدي بترجمة يوميات الرحلة الخاصة بأيام وجود ناصر الدين شاه في العراق فحسب ، دون ترجمة الرحلة بكاملها . ونشرت مؤسسة آفاق للدراسات والأبحاث العراقية في بغداد هذه الترجمة سنة ٢٠١١ ، في كتاب عنوانه : (العراق في مشاهدات ناصر الدين شاه) . إلا أن هذا الكتاب ، الذي بلغ مجموع صفحاته تسعا وثلاثين ومائتي صفحة ، خصص ست صفحات ومائة من صفحاته فحسب (ص١١٥ - ص٢٢١) لترجمة جزء من رحلة ناصر الدين شاه (سفرنامه' عتبات) ، وهو الجزء الخاص ، كما ذكرنا من قبل ، بيوميات الشاه في العراق . أما بقية صفحات الكتاب فقد تضمنت ترجمة من الفارسية ، للمترجم نفسه ، لرحلة عبد العلي خان (أديب الملك)

الى العتبات المقدسة في العراق في سنة ١٢٧٣هـ- ١٨٥٦ م ، ورحلة سيف الدولة (حفيد فتح علي شاه القاجاري) التي قام بها سنة ١٢٨٠هـ- ١٨٦٣م لزيارة العتبات المقدسة في العراق . وفضلا عن اقتصار ترجمة الأستاذ محمد الأسدي على الجزء الخاص بالعراق من رحلة ناصر الدين شاه (سفرنامه' عتبات) ، فان ترجمته كانت تختصر أحيانا النص الأصلي ، وهي بحاجة ، في مجملها ، ايضا الى تأن وجهد إضافيين يكفلان تنقيتها من أخطاء اللغة والنحو الإملاء ، كما كانت تحتاج في الوقت نفسه الى مراجعة خبير في التاريخ متخصص في حقبة مادة الترجمة وموضوعها ، لتلافي الأخطاء التاريخية التي وردت في ترجمة النص الفارسي والتعليق عليه من قبل المترجم .

ثانيا : ناصر الدين شاه في بغداد

توقف ناصر الدين شاه في بغداد مرتين خلال رحلته لزيارة العتبات المقدسة في العراق . وأقام في هذه المدينة لمدة أسبوع واحد في زيارته الأولى ، وستة أيام خلال زيارته الثانية ، وزار خلال تلكما المرتين مرقد الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد ، ومرقد الإمام أبي حنيفة ، ومرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني ، ومراقد الصحابة في المدائن . . سلمان الفارسي وحذيفة بن اليمان وعبد الله الأنصاري .

بدأت زيارة ناصر الدين شاه الأولى لمدينة بغداد من يوم الثلاثاء ٢٨ شعبان ١٢٨٧هـ ، الموافق ٢٣ تشرين الثاني ١٨٧٠، وهو اليوم الذي وصل فيه الى المدينة ، واستمرت حتى يوم الإثنين ٤ رمضان ١٢٨٧هـ ، الموافق ٢٩ تشرين الثاني ١٨٧٠م ، حيث غادر ناصر الدين شاه بغداد في

ذلك اليوم متوجها الى مدينة كربلاء ، ومنها الى مدينة النجف ، ثم الى كربلاء ثانية ، ومنها عاد الى بغداد في زيارة ثانية لها ، ومكث فيها من يوم الثلاثاء ٢٦ رمضان ١٢٨٧هـ ، الموافق ٢٠ كانون الأول ١٨٧٠م ، الى يوم الأحد ٢ شوال ١٢٨٧هـ ، الموافق ٢٥ كانون الأول ١٨٧٠م[٢٣] . وغادر بغداد الى سامراء في ذلك اليوم ، ومنها أقفل عائدا الى بلاده .

ثالثا : انطباعات أولى . . الأهالي ومراسيم الإستقبال الرسمي

يصف ناصر الدين شاه استقبال أهالي بغداد له بأنه كان استقبالا حافلا . فقد وقفوا على جانبي الطريق الذي مرَ منه بأعداد كبيرة ، ملتزمين الهدوء التام . وكانت تبدو عليهم آثار البساطة وفقر الحال . وكان يحجب عنه أهالي بغداد الذين خرجوا لاستقباله صف من الجنود العثمانيين المشاة انتظموا على جانبي الطريق ، ومن ورائهم جنود من الخيالة ، فالأهالي . ويذكر ناصر الدين شاه أن الأرمن البغداديين وقساوستهم وأطفالهم ، وأطفال اليهود وحاخاماتهم كانوا في طليعة مستقبليه من أهالي بغداد . وقد وقف هؤلاء وأولئك بأدب جم وبشكل منتظم يرددون الأناشيد الجميلة والدعاء له باللغة الفارسية . واصطف معهم أطفال المسلمين الأيتام (طلبة مدرسة الصنائع التي أسسها مدحت باشا) ، وهم جميعا يرتدون الملابس البيضاء النظيفة . ويقول ناصر الدين شاه إن بعض النسوة البغداديات كن يرقبن مشهد الإستقبال من على الأسطح ، وأنه لم ير أية امرأة بين المستقبلين من

---

[٢٣] سفرنامه عتبات ، ص ٩٣ – ١٤٧ .

الأهالي . ويصف شوارع بغداد التي مر بها حتى وصوله الى مكان استقباله في ميدان باب الأعظمية(الميدان الحالي) ، بأنها كانت جميلة ومرصوفة بشكل جيد .

رابعا : قوس النصر والقصر الناصري كما يصفهما الشاه

وعقب استكمال مراسيم الإستقبال الرسمي الذي ذكر فيه ناصر الدين شاه في (سفرنامه' عتبات) أسماء كبار مستقبليه العثمانيين المدنيين والعسكريين ، وعلى رأسهم مدحت باشا والي بغداد وقائد الفيلق السادس العثماني المرابط فيها وكمال باشا مبعوث السلطان العثماني عبد العزيز (١٨٦١- ١٨٧٦) ، وصف الشاه قوس النصر الذي نصب في الطريق الموصل بين ساحة الإستقبال والقصر الذي يقيم فيه الشاه خلال وجوده في بغداد ، والذي بني خصيصا لهذا الغرض وسمي بالقصر الناصري . بأنه – أي القوس – كان جميلا جدا ، وأنه بني حديثا بغرض التكريم والإحتفاء .

أما القصر الناصري ، فذكر الشاه بأنه كان بناية جميلة تطل على نهر دجلة ، ومن سطحها يرى منظر جميل لنهر دجلة ، ولجانب كبير من المدينة ومزارعها ، وهو مزين بشكل أنيق ، ومفروش ، ومؤثث بأثاث فاخر . وكانت جدران غرفه مغلفة بالورق ، ومزينة بالمرايا الكبيرة ، وتتدلى الثريات من سقوف غرفه . والقصر ، كما يصفه الشاه ، مبهج جدا بشكل عام ، كونه يقع في بستان يكثر فيه النخيل وأشجار النارنج ، وفيه طرقات مرصوفة بالحجارة ، يعرف ببستان (النجيبية)[١٤] ، نسبة الى والي بغداد محمد

---

[١٤] همانجا ، ص٩٣-٩٥ .

نجيب باشا [١٨٤٢- ١٨٤٩] . وقد أعجب ناصر الدين شاه بتجهيزات القصر وأثاثه ، وبخدمه وموظفيه الذين كانوا يرتدون الملابس الرسمية ، وبدا عظيما للغاية في نظر الشاه ذلك الإستقبال والإحترام الذي لاقاه في بغداد[١٥] .

خامسا : بغداد من خلال إطلالة الشاه عليها من قصره

أطل الشاه في عصر اليوم الذي وصل فيه الى بغداد من سطح القصر الناصري على مدينة بغداد ، ووصف تلك الإطلالة بأنها كانت رائعة وجميلة ، ولا يمل المرء منها ، كونها تتيح مشاهدة جانب واسع من المدينة وجسرها وبساتينها ، ومبانيها القديمة التي يرجع بعضها الى زمن العباسيين ، ومخيمات المعسكر العثماني فيها . فضلا عن نهر دجلة ، والسفن الراسية على شواطئه . ويذكر ناصر الدين شاه أن جسرا متقنا جديدا أنشيء على النهر . وكانت ترسو في النهر ثلاث بواخر متوسطة الحجم ، وتمخر فيه ثلاث بواخر صغيرة ، وتوجد (القفف) بكثرة في النهر ، حيث أنها وسيلة التنقل لعامة الناس[١٦] .

" وفي مساء اليوم الذي وصل فيه ناصر الدين شاه الى بغداد . . . أجريت احتفالات ومظاهر ابتهاج رسمية تزينت فيها أبنية الدوائر الحكومية على جانبي نهر دجلة بأنواع متعددة من القناديل ، وهي القلعة ، والسراي (مقر الوالي) ، والقشلة (مقر الفيلق السادس) في جانب الرصافة ،

---

[١٥] طلوعي ، همان مآخذ ، ص١٠٠-١٠١ .

[١٦] سفرنامه عتبات ، ص٩٦ .

والتوبخانة(ثكنة المدفعية) ، ومستشفى الغرباء ، وقشلة العساكر البحرية ، والدميرخانة(معمل الحديد) في الكرخ . وأطلقت قذائف الألعاب النارية من البواخر النهرية الحكومية الثلاث الراسية قبالة القصر الناصري ، ومن القلعة وسدة خضر الياس المقابلة لها . . . وزين جسر بغداد بأنواع القناديل . . . [١٧] .

ويصف ذلك ناصر الدين شاه بقوله : إن مدينة بغداد أضيئت بالأنوار ، وأطلقت الألعاب النارية ليلا لمدة طويلة . إلا أن الشاه اشتكى من غفلة يحيى خان أحد رجاله ، ونسيانه الأمر الذي أصدره له بأن يخبر الجانب العثماني أن لا يبدأ بإطلاق الألعاب النارية إلا حينما يسمع صوت البوق الذي يطلقه حرس الشاه بأمر منه ، فقد بدأ العثمانيون يطلقون الألعاب النارية في أثناء تناول الشاه لطعام العشاء ، وقبل أن يصدر الشاه أمره الى الحرس بإطلاق البوق ، الأمر الذي أزعجه ، لأنه حرمه من الإستمتاع بالتفرج عليها طوال وقت إطلاقها الذي استغرق أمدا طويلا[١٨] .

سادسا : حرم الكاظمين(ع) والأعظمية كما يصفهما ناصر الدين شاه

توجه ناصر الدين شاه في اليوم الثاني لوجوده في بغداد لزيارة مرقد الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد(عليهما السلام) ، فعبر من قصره الواقع في جانب الرصافة من بغداد الى جانب الكرخ منها ، كما يذكر في يوميات رحلته ، بباخرة صغيرة صحبه فيها والي بغداد مدحت باشا . وعند

---

[١٧] النجار ، مرجع سابق ، ص٣٠

[١٨] سفرنامه' عتبات ، ص٩٦- ٩٧

يرونه على شاطئ النهر في جانب الكرخ شاهد بناية قديمة وصفها بأنها من الأبنية التي تعود للعصر العباسي ، وأن الإمام موسى الكاظم(عليه السلام) حبس فيها . ويذكر الشاه أن المسافة الى مرقد الكاظمين هي فرسخ واحد ، اجتازها ومرافقوه بالعربة التي كانت تسير على طريق جيد وصالح للسير ، وأنهم مروا بمسجد براثا ، الذي كان يقع على جهة اليسار ، ويصفه بأنه مسجد صغير محاط بسور وأمام بابه تقف نخلتان . ويقول ان قبر معروف الكرخي يقع في الطرف المقابل لباب المسجد [كذا] . ويذكر أن الطريق الى الكاظمية فيه بساتين وأشجار نخيل كثيرة .

ويذكر ناصر الدين شاه في يوميات رحلته أن أهالي الكاظمية استقبلوه بحفاوة عبرت عنها زغاريد نسائهم ، وخروجهم الى أطراف المدينة لاستقباله ، وأنه مر ، وهو في طريقه راجلا الى حرم الكاظمين المطهر ، بزقاق غير نظيف ومزدحم بالبيوت على جانبيه . وكان سادن الحرم والقائمين على خدمته في مقدمة مستقبليه . ويشبه الشاه الحرم المطهر بالجنة ، وأنه آية من آيات الرحمة ، ويشكر الله على نعمة زيارته وحصول السعادة له بذلك . ويذكر أنه لاحظ أن الإصلاحات والتعميرات التي أنفق هو عليها ، وكلف الشيخ عبد الحسين الطهراني بإجرائها ، للقبة والسقف والأعمدة والإيوان كانت متقنة وجميلة ، وأن العمل جار لإكساء إيوان المرقد بصفائح الذهب التي تبقت من عمل تذهيب قبة الإمامين علي الهادي والحسن العسكري عليهما السلام في سامراء ، الذي أمر الشاه بإجرائه والإنفاق عليه . ويذكر الشاه أنه لاحظ أن السجاد المفروش في الروضة المطهرة وفي الرواق لم يكن جيدا ، فأمر أن يؤتى من إيران ، بدلا عنه ،

سجاد فراهان الفاخر ليفرش في الروضة والرواق . ووجه بإجراء صيانة لجدار الصحن الكاظمي يشرف عليها الشيخ محمد أخو المرحوم الشيخ عبد الحسين الطهراني الذي كان مشرفا على الإصلاحات والتعميرات السابقة التي أجريت للروضة الكاظمية على نفقة الشاه . ويصف ناصر الدين شاه القبة المذهبة لكل من الإمامين موسى الكاظم ومحمد الجواد(عليه السلام) بأنهما كانتا متساويتين تقريبا في الحجم ، ويذكر بأن الشاه إسماعيل الصفوي [١٥٠١ – ١٥٢٤] قد بناهما ، وأن الشهيد [كذا] آقا محمد خان (١٧٩٥ – ١٧٩٧) . (مؤسس حكم الأسرة القاجارية في إيران) ، قام بتذهيبهما ، وقام بتزيين جدران الروضة الكاظمية بالمرايا الميرزا شفيع المازندراني وزير فتح علي شاه القاجاري . ويذكر الشاه أن ضريحا واحدا كبيرا مصنوع من الفولاذ المزين بالفضة ، يضم قبري الكاظم والجواد عليهما السلام . وتعلو الضريح القبة المزينة بالمرايا من الداخل ، وزينت جدران الروضة المطهرة بـ(إزارة) من الكاشي المعرق من النوع الممتاز المتقن الصنع[١٩] .

ويذكر ناصر الدين شاه انه بعد أن أتم مراسيم زيارة الإمامين الكاظمين(عليه السلام) ، توجه لزيارة قبر الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان(رضي الله عنه) ، وقرأ سورة الفاتحة عند القبر . ويصف الأعظمية بأنها قرية مأهولة بالسكان ، وكانت أزقتها نظيفة ، وتنتشر حول مقبرة أبي حنيفة البيوت والبساتين . ويقول إن القلعة التي تحيط بمقبرة الإمام الأعظم لها أربعة أبراج مبنية بالطابوق بناء محكما على أكمل وجه . ويصف الشاه

---

[١٩] همانجا ، ص٩٧– ٩٨ .

خدم الإمام الأعظم بأنهم كانوا واقفين بانتظام ، وأن مسجد الإمام الأعظم مفروش بالسجاد الكردستاني الصغير غالي الثمن ، وأن السلطان مراد الرابع [١٦٢٣- ١٦٤٠] هو من قام بهذا البناء الفخم ، كذلك فإن الضريح الفضي لقبر أبي حنيفة هو من آثار هذا السلطان . وتوجد في المسجد قناديل فضية أهداها السلطان عبد العزيز ، وشمعدانات فضية أرسلها السلطان عبد المجيد [١٨٣٩- ١٨٦١][٢٠] .

سابعا : المدائن ومعالم بغداد إليها من طريق دجلة

يذكر ناصر الدين شاه في (سفرنامه' عتبات)[٢١] أنه أراد زيارة الصحابي سلمان المحمدي(رضي الله عنه) في المدائن في يوم الخميس ، وهو اليوم الثالث من أيام زيارته الأولى لبغداد ، وتوجه إليها برفقة عدد كبير من أتباعه ، وعدد آخر من المسؤولين العثمانيين كان على رأسهم والي بغداد مدحت باشا وكمال باشا مبعوث السلطان العثماني ، تقلهم باخرة عثمانية كبيرة ، وصفها الشاه بأنها لم تكن نظيفة . ويصف الشاه أبنية بغداد التي شاهدها على جانبي نهر دجلة من على متن الباخرة ، وهي تسير باتجاه الجنوب من نقطة انطلاقها من الشاطئ الذي يطل عليه القصر الناصري مرورا بجسر بغداد [في موقع جسر الشهداء الحالي] ، بأنها كانت تبدو جميلة . وحينما وصلت الباخرة الى جسر بغداد فتح الجسر لتمر منه الباخرة . وذكر الشاه ما شاهده ، من على ظهر الباخرة من منشآت ومعالم طبيعية وأبنية لبغداد وضواحيها . وكان أولها تكنة جديدة للجند ذات بناء

---

(٢٠) همانجا ، ص٩٨ .

(٢١) همانجا ، ص٩٩ .

جديد أنشأها الوالي مدحت باشا ، وكانت تقع على الجانب الأيسر [الرصافة][22] . وهذه الثكنة قريبة من سرزي الوالي ، الذي كان بناؤه ، كما كتب الشاه ، قديما ومتداعيا ، ويفكر مدحت باشا بتجديده . ويذكر الشاه أنه شاهد مكتب الصنائع (مدرسة الصنائع) الذي أنشئ حديثا ، ومبنى إدارة البواخر الحكومية [عمان عثماني اداره سي] ، ومعمل بناء البواخر[23] الذي بناه الإنكليز[24][كذا] ، والمدرسة المستنصرية التي يقول إن بناءها ينسب

---

[22] الذي يقصده ناصر الدين شاه بالثكنة الجديدة ، هي ، فيما يبدو ، (قشلة الضبطية) التي تقع الى جوار السراى وجامع النعمانية(جامع التيلخانه) . قارن : الشيخلي ، السيد محمد رؤوف السيد طه ، المعجم الجغرافي لمدينه بغداد القديمة بين سنة ١٢٧٠ - ١٣٦٠ هجرية ، ط١ ، مطبعة البصرة ١٩٧٧ ، ص١٩٢ ؛ جواد ، مصطفى وأحمد سوسة ، دليل خارطة بغداد المفصل في خطط بغداد قديما وحديثا ، مطبعة المجمع العلمي العراقي ، بغداد ١٩٥٨ ، ص٢٣١ ؛ النجار ، جميل موسى ، الإدارة العثمانية في ولاية بغداد ١٨٦٩- ١٩١٧ ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ٢٠٠١ ، ص١٤١

[23] ويقصد به (الفابريقة) أو (الدميرخانه) ، وهي ورشة حكومية لإصلاح البواخر ، وليس لبنائها ، تابعة لإدارة عمان العثماني . ينظر : النجار ، الإدارة العثمانية . . . ، ص٣٩١ .

[24] لم تشر المصادر الى أن الإنكليز بنوا الورشة التابعة للإدارة العثمانية الحكومية للبواخر في ولاية بغداد . إلا أن أحد البريطانيين كان يشرف في سنة ١٨٧٥ على العاملين الفنيين في الورشة ، كما كان كثير من موظفي وربابنة البواخر التابعة لولاية بغداد من البريطانيين . ينظر : سالنامه ، ١٢٩٢ ، دفعه ١ ، مطبعه ولايت بغداد ، ص٦٤ ؛ لوريمر ، ج . ج ، دليل الخليج ، القسم التاريخي ، ج٤ ، مطابع علي بن علي ، الدوحة (د . ت) ، ص ٢٢٥٤ .

للخليفة العباسي المستنصر ، وإن جدارها المشرف على نهر دجلة تعلوه كتيبة من الآجر كتب عليها بخط الثلث لا تزال موجودة بشكل جيد ، وتبدو كأنها جديدة . وكتب الشاه أنه شاهد أيضا القنصلية البريطانية في بغداد ، التي كان بناؤها جيدا ، وتشرف حديقتها على نهر دجلة ، وكان يقف في شرفاتها عند مروره عدد من الرجال والنساء من الأوربيين . وشاهد كذلك ، كما كتب ، بيت إقبال الدولة ، وبيت مترجم اللغة الانكليزية ميكائيل ، وكانا من البيوت الفاخرة ، وبعض بيوت اليهود ، التي كانت من البيوت الجيدة أيضا . ثم يذكر أن بيوت بغداد أخذت تختفي شيئا فشيئا ، وأخذت تظهر بيوت متواضعة يسكنها الأعراب . وبساتين شاسعة ينتشر فيها النخيل .

إلا أنه يقول إن الجهة اليمنى من المدينة ، التي تدعى بغداد القديمة ، كان لا يزال يشاهد منها المستشفى[٢٥] الذي شرع الوالي مدحت باشا ببنائه مؤخرا ، ومنزل عباس ميرزا الذي كان يبدو جميلا على الرغم من تواضعه ، فضلا عن منازل وأبنية أخرى . ثم يذكر الشاه أن الحدائق وبساتين النخيل اصبحت ترى على جانبي النهر ، وأن النواعير التي تدورها الأحصنة ، والتي كانت تنتشر على كلي شاطيء النهر ، كانت تقوم بسقيها . وكانت أصوات دواليب النواعير تصدر أصواتا حزينة وهي تصب الماء . ويقول إن بعض الزراع يقومون بزراعة الخضر في بعض الجزر

---

[٢٥] وهو المستشفى المعروف بمستشفى الغرباء الذي شيد بمبادرة الوالي مدحت باشا وتبرعات الأهالي . ينظر : الزوراء ، العدد ١٢ ، ٢٣ جمادى الأولى ١٢٨٦ ؛ العدد ١٣ ، ١ جمادى الآخر ١٢٨٦ ؛ العدد ١٤ ، ٨ جمادى الآخر ١٢٨٦ . وقد فتح المستشفى سنة ١٨٧٢ . ينظر : النجار ، الإدارة العثمانية . . . ، ص٤٠٣ .

الموجودة في النهر ويسوقونها في هذا الفصل . ووصف ما شاهده في وسط دجلة وعلى ضفتيها من حيوانات كابن آوى ، وطيور مثل دجاج الماء والأوز وطائر البجع وسواها من الطيور التي كانت تسبح في النهر ، بأنها موجودة بكثرة . ويذكر الشاه أن منسوب مياه نهر دجلة كان منخفضا ، لذلك كانت الباخرة تتوخى الحذر وتسير ببطء ، الأمر الذي أدى الى تأخرهم في الوصول الى المدائن[٢٦] .

ويصف ناصر الدين شاه طاق كسرى بأن بناءه يدعو للعجب . ويدون عنه ما نصه : يمكن القول إنه أول أثر في العالم [! كذا] . ويقدر الشاه ارتفاع الطاق بثلاثين ذراعا ، ويقول كانت هناك فوق الطاق أبنية تداعت وتهدمت في الوقت الحاضر يبلغ ارتفاعها ، على وفق تقديره ، خمسة وعشرين ذراعا . ويضيف قائلا : إن طاق كسرى يبعد بمسافة ميدانين خيل عن نهر دجلة ، وميدان واحد عن مقبرة سلمان الفارسي ، التي يصفها بأنها كانت مرقدا صغيرا تحيط به نخلتان أو ثلاث نخلات ، وفيه عدد من الخدم العرب من فقراء الحال . ولما عاد الشاه الى بغداد على ظهر الباخرة نفسها التي جاءت به الى المدائن ، كان الظلام قد حلّ ، فوصف مشهد مسير الباخرة في دجلة ليلا بقوله : كان ضوء النجوم ينعكس على سطح الماء ، وقد رأيت هلال شهر رمضان المبارك مرسوما على مياه النهر[٢٧] .

---

[٢٦] سفرنامه' عتبات ، ص٩٩-١٠٠ .

[٢٧] همانجا ، ص١٠٢ .

ثامنا : زيارة ثانية للكاظمين(عليهم السلام) .

ويكتب ناصر الدين شاه في (سفرنامه عتبات) عن يوم الجمعة غرة رمضان المبارك (١٢٨٧هـ) ، وهو اليوم الرابع من أيام زيارته لبغداد ، أنه زار الإمامين الكاظم والجواد (عليه السلام) في هذا اليوم ، ولاحظ وجود الباب الفضي في رواق الحرم المطهر ، وهو الباب الذي أمر بصنعه ، كما ذكر ، المحسن الميرزا أمير اخور في إيران وأرسله الى بغداد . وبعد إتمامه زيارة الكاظمين(عليهم السلام) في ذلك اليوم ، انتقل عصرا بالعربة الى رصيف النهر المخصص لرسو المراكب ، على الجهة المقابلة للقصر الناصري ، وركب الباخرة التي أقلته الى رصيف قصره . ويذكر الشاه أنه بعد ذلك شاهد إنزال باخرة صغيرة ، تم صنعها في بغداد للتو ، الى مياه نهر دجلة[28] .

ومن الجدير بالذكر أن الباخرة الصغيرة التي يتحدث عنها الشاه ، هي من وسائط النقل المائية المتطورة التي تخلو من المحركات البخارية ، والتي تقوم البواخر بقطرها بغرض زيادة حمولتها ، وكانت تعرف آنذاك بإسم (أشلب) . وكانت إدارة البواخر العثمانية في ولاية بغداد تقوم أحيانا بتحوير الأشلب ليصبح سفينة بخارية صغيرة بعد أن تقوم بتركيب محرك بخاري صغير عليه . وخلال زيارة ناصر الدين شاه كانت هذه الإدارة قد انتهت من تركيب أجزاء أشلب قامت باستيراده وزودته بمحرك بخاري[29] . وقد حضر حفل انزاله الى نهر دجلة يحيى خان الملقب بـ(معتمد الملك) ، وهو أحد

---

[28] همانجا ، ص١٠٣ .

[29] للتفاصيل ينظر : النجار ، جميل موسى ، النقل المائي الحكومي في ولاية بغداد في عهد الوالي مدحت باشا . . وسائطه وخطوطه ١٨٦٩- ١٨٧٢ ، دراسات في التاريخ والآثار(مجلة) ، تصدر عن كلية الآداب- جامعة بغداد ، العدد ٢٨/٩ : ١٤هـ- ٢٠٠٧م ، ص٣٠ .

كبار رجال ناصر الدين شاه ومرافقيه في زيارته للعتبات المقدسة في العراق ، مبعوثا من قبل الشاه ، فأطلق على الأشلب (الباخرة الصغيرة) إسم (يحيى خان)[30] ، ثم استبدل الإسم فيما بعد وأصبح (معتمد)[31] . وهذه الباخرة الصغيرة هي التي أشار الشاه ، كما ذكرنا ، الى أنه شاهد إنزالها الى نهر دجلة .

تاسعا : زيارة الشيخ عبد القادر الكيلاني(رضي الله عنه)

في يوم السبت الثاني من رمضان سنة ١٢٨٧هـ ، وهو اليوم الخامس من أيام زيارة ناصر الدين شاه لبغداد ، توجه الشاه الى قبر الشيخ عبد القادر الكيلاني(رضي الله عنه) لزيارته . فخرج من القصر الناصري ، ودخل بغداد ، كما يشير سياق كلامه ، من باب الأعظمية ، المسمى تاريخيا بـ(باب السلطان) ، ذلك أن القصر الناصري كان يقع خارج سور مدينة بغداد . ويصف الشاه قلعة بغداد القديمة التي تقع على الجهة اليمنى للداخل من هذا الباب (أي في موقع مبنى وزارة الدفاع) ، بقوله : إنها كانت بشكل عام تبدو خربة ومهجورة ، وأن بعض جدرانها ومنشآتها القديمة لا تزال باقية ومعمورة ، وبعضها الاخر منهدم ، وأن بناء أبراجها وجدرانها كله بالطابوق غير الجيد الذي يفتقد الى المتانة ، إلا أنه كان مبنيا بشكل محكم .

ويقول : إن وجود سكان بغداد ينحصر بالقرب من نهر دجلة . ويمتد هذا الوجود السكاني طولا على شاطئي النهر على شكل أبنية وحدائق وتجمعات سكانية . ولا يمتد كثيرا عرض المدينة لتصبح بعده صحراء

---

(٣٠) الزوراء ، العدد ٩٩ ، ٥ رمضان ١٢٨٧هـ .

(٣١) الزوراء ، العدد ١٠٠ ، ٩ رمضان ١٢٨٧هـ .

لا يسكنها أحد بالمرة . ويذكر الشاه ، بعد اجتيازه باب الأعظمية ودخوله الى داخل مدينة بغداد ، أنه شاهد على الجهة اليمنى أي الجهة الجنوبية [كذا] ، كما يقرر هو ، قبة مخروطية مرتفعة تلفت النظر لم يشاهد مثل بنائها وطرازها في إيران[٣٢] ، وذكروا له ، حينما سأل عنها ، أنها قبة مرقد الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي عليه الرحمة ، وأن الناس في بغداد يأتون رجالا ونساء بكثرة لزيارته ، ويقدمون له النذورات . ثم يصف الشاه أزقة بغداد ومحلاتها بأنها قديمة ، ويذكر أنه في طريقه الى مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني أخذ الزقاق الذي تسير فيه العربة العثمانية التي تقله بالضيق . مما جعل العربة التي تجرها الخيل لا تتمكن من الحركة والإنحناء الى الزقاق الآخر بذاتها ، الأمر الذي اضطرهم الى دفعها وتحريكها بالأيدي مما تسبب في تضرر أجزاء منها ، واضطر هو للنزول منها كيما تتم استدارتها الى الزقاق الآخر وعاود ركوبها . ثم ترجل منها ومضى الى مرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني راجلا بعد أن أصبح قريبا منه .

ويصف ناصر الدين شاه جوانب الصحن الكيلاني بأنها كانت عبارة عن أقواس . وكان يوجد في نواحي الصحن وشرفاته ، في أثناء زيارته ، جمع كبير من الزوار من الرجال والنساء . ويذكر الشاه أن السلطان العثماني الحالي عبد العزيز قام بتجديد بناء الإيوان والممرات التي تحيط بالضريح ،

---

[٣٢] وهي واحدة من ست قبب مخروطية مماثلة لها في العراق . والقبب الخمس الأخرى هي : قبة زبيدة في جانب الكرخ من بغداد ، وقبة الحسن البصري وابن سيرين في البصرة ، وقبة مشهد الشمس في الحلة ، وقبة إمام دور في قضاء سامراء ، وقبة جامع الكفل في مدينة الكفل . الشيخلي . المعجم الجغرافي . . . ، ص٨٤ .

الذي كان مصنوعا من الفضة . وتوجد فيه القناديل والشمعدانات ، وتعلوه قبة مرتفعة بناؤها جيد ، وتوجد الى جنبها منارة(مئذنة) جديدة وعالية . ويقول : وهنا ، وكما هو الحال في صحن الإمام الأعظم أبي حنيفة ، يوجد مسجد جيد البناء متصل بمرقد الشيخ عبد القادر الكيلاني ، يزدحم بالمصلين والزوار في أيام رمضان وسائر المناسبات . وهذا المسجد ورواق الضريح هو من منشآت السلطان سليمان[٣٣] والسلطان أحمد[٣٤] ، وسواهم من السلاطين العثمانيين السابقين[٣٥] .

عاشرا : جولة في نهر دجلة

تحدث ناصر الدين شاه عن يوم الأحد الثالث من رمضان سنة ١٢٨٧هـ ، وهو اليوم السادس من أيام زيارته لبغداد. والذي كان مقررا فيه أن يستقل الباخرة الحكومية العائدة لولاية بغداد ليقوم بجولة في نهر دجلة ، قائلا : تأخر ركوبنا الباخرة لمدة ست ساعات عن موعده المقرر بسبب مجيء عدد من قساوسة الأرمن وحاخامات اليهود الى المكان الذي يرسو فيه المركب على شاطئ النهر للسلام علينا . وألقى أحد قساوسة الأرمن خطابا طويلا جدا باللغة العربية من ورقة كان يحملها بيده . وبعد ذلك ركبنا الزورق الذي أقلنا الى الباخرة .

---

(٣٣) ويقصد به السلطان العثماني سليمان القانوني(١٥٢٠-١٥٦٦) على ما نرجح .

(٣٤) نرجح أن المقصود به هو السلطان أحمد الثالث(١٧٠٣- ١٧٣٠) ، ذلك أن هناك تجديد شاملا للحضرة الكيلانية جرى في سنة ١٧٢٦ .

(٣٥) سفرنامه عتبات ، ص١٠٤ .

وبعد أن سرد الشاه أسماء الذين كانوا معه على ظهر الباخرة من الإيرانيين والعثمانيين ، ذكر أنهم تناولوا الغداء على ظهر الباخرة التي كانت تسير ببطء وتؤدة . وقال : انه كان يتفرج على معالم المدينة من الباخرة بواسطة المنظار (التلسكوب) . وبعد أن قطعت الباخرة مسافة سارت بمحاذاة الكاظمين(عليهم السلام) ، مارة بالجهة العليا نحو بستان الفريجات ، وأنه ألح على مدحت باشا للنزول في هذا البستان . ويصف الشاه بستان الفريجات بأنه كان يكثر فيه النخيل وأشجار الحمضيات ، وفيه مبان متواضعة غير منتظمة . وذكر أيضا أن مدحت باشا أتى بخبير في شؤون الزراعة وبالآلات زراعية من أوربا[٣٦] ، وجعل من بستان الفريجات محطة تجارب زراعية[٣٧] بغرض استحداث أساليب جديدة في الزراعة تكفل زيادة المحاصيل الزراعية وتحسين نوعيتها .

ثم يذكر الشاه أنهم غادروا بستان الفريجات بعد التجول فيه ، وأن المسافة بينه وبين الكاظمية هي أقل من فرسخ واحد[٣٨] ، وأن طرفي النهر كانا عامرين بالسكان وتنتشر البساتين ومزارع النخيل على امتدادهما . ولاحظ في طريق العودة أن هناك سداً شيد قديما على الجهة اليمنى ، الجهة الجنوبية الغربية كما يقرر ، لتصريف مياه الفيضان . إلا أن السد ، وكما

---

[٣٦] نقلت هذه الآلات الزراعية من أوربا الباخرة(بابل) العائدة لولاية بغداد ... العدد ٣٦ ، ... في ... ١٢٨٦ . وللتفاصيل ينظر : النجار ، النفر الماني . ، ص١٥ .

[٣٧] كانت تدعى : (نمونه جفتلكي) . النجار ، المرجع والصفحة أنفسهما .

[٣٨] الفرسخ : مقياس قديم من مقاييس الطول يقدر بثلاثة أميال . ويساوي الميل ١,٦٠٩ كم ، أي أن الفرسخ الواحد يساوي حوالي ٤,٨٢٧ كم .

يصفه الشاه ، أصبح الآن خربا على الرغم من أن بعض جدرانه لا تزال قائمة . ثم يذكر الشاه ، في آخر ما دونه في رحلته في هذا اليوم ، انه عاد من هذه الرحلة قبل غروب الشمس بنصف ساعة ، وأنه لم يوفق في هذا اليوم لزيارة الكاظمين (عليهم السلام)[٣٩] .

حادي عشر : مغادرة بغداد . . آثار عقرقوف وضواحي المدينة كما بدت للشاه

كان يوم الإثنين الرابع من شهر رمضان سنة ١٢٨٧هـ ، هو اليوم السابع والأخير من أيام زيارة ناصر الدين شاه لبغداد ، إذ غادر فيه الشاه مدينة بغداد متوجها الى كربلاء . ويذكر الشاه أنه توجه في هذا اليوم لزيارة الكاظمين(عليه السلام) ممتطيا جواده ، ومرّ في طريقه الى الحرم المطهر بزقاق ضيق جدا ومعبر بشكل غريب على امتداده . ثم خرج من الحرم بعد أداء الزيارة ومرّ بالزقاق نفسه ، وركب العربة التي اتجهت الى عقرقوف ، وهي خلاف الجهة التي كان عليها أن تتجه نحوها – وهي كربلاء عن طريق منطقة الخر كأول منزل من منازل الطريق من بغداد إليها – وذلك لكي يشاهد الشاه آثار عقرقوف . ويذكر الشاه أن عقرقوف تبعد عن بغداد بمقدار أربعة فراسخ[٤٠] (نقل الشاه ذلك عن ياقوت الحموي) . وفي الطريق إليها توقف الشاه ومن معه لتناول طعام الغداء ، ويصف المكان الذي نزلوا به بأنه كان صحراء يكثر في أرجائها العرب من بني تميم ، وأنه رأى من هذا المكان بواسطة المنظار خيمتين او ثلاث خيم سود لعرب المنطقة .

---

[٣٩] سفرنامه' عتبات ، ص١٠٥- ١٠٦ .

[٤٠] حوالي عشرين كيلومترا .

وعندما واصل السير نحو آثار عقرقوف كان الطريق ، كما يصفه ، سيئا ولا يصلح في معظمه للمسير فيه . وسبب ذلك هو مياه فيضان الفرات التي تغمره وتجعله كالبحر ، وتتخلف عن الفيضان الأصداف والقواقع الصغيرة والكبيرة في هذه الأرض بعد أن تجف مياه الفيضان . وفيها حفر وفجوات كثيرة صنعتها الجرذان . وتتجول في هذا المكان بنات آوى على شكل مجاميع مجاميع ، وليس فيه سوى نوع واحد من الطيور . ويذكر أنهم شاهدوا في هذا المكان قافلة قادمة من حلب كانت تحمل الأقمشة وبضائع أخرى ، أمضت خمسة وثلاثين يوما كي تصل إليه .

وبعد أن توقف الشاه ومن معه لتناول طعام الغداء في الطريق الى عقرقوف ، دون الشاه في (سفرنامه" عتبات) أنهم مضوا قدما بعد ذلك نحو آثار عقرقوف ووصلوا إليها . ويصفها بأنها بناء غريب . إلا أن الخراب حلّ به ، والمتبقي منه عبارة عن جبل قطره مائتان وعشرة أقدام . وأن البناء بمجمله مبني من اللبن ، قطر (عرض) كل لبنة منها نحو الشبر ، وطولها مساو تقريبا لطول الطابوقة العادية . ومن أجل أن يكون البناء محكما وضع حصير بين كل عشرة صفوف من اللبن ، الأمر الذي أبقاه محكما وليس به عيب الى الآن . ويبلغ ارتفاعه الحالي خمسة وعشرين ذراعا . وتوجد في أطراف آثار عقرقوف آثار أخرى خربة أكثر .

ويذكر الشاه أنه ومن معه جلسوا في ظل المبنى الأثري ، وأدوا الصلاة ، وشربوا الشاي . وأنه شاهد من ذلك المكان بواسطة المنظار قبتين لاثنين من أبناء الأئمة ، أحدهما إسمه صالحين [كذا] والآخر إبراهيم بن علي ، كما أخبرته بذلك بعض النسوة العربيات اللاتي كن موجودات في المكان .

تحرك الشاه وركبه من آثار عقرقوف قبل غروب الشمس بثلاث ساعات متجها نحو أول منزل من منازل طريقه الى كربلاء ، وهو منطقة الخر في ضواحي بغداد . وكتب يقول : إنه لم يكن يعلم أن آثار عقرقوف تبعد عن هذا المنزل بمقدار ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ . وكنا في الطريق إليه نركب العربة احيانا ، ونمتطي الحصان في أحيان أخرى لسوء الطريق وكثرة الحفر فيه ويذكر الشاه أن الطريق كان فيه عدد من طيور الدراج والغزلان ، وأن قيامهم بصيد بعض تلك الطيور ، ووعورة الطريق ، وعدم اهتدائهم الى مكان المعسكر المرابط في الخر ، أخرهم في الوصول الى هذا المعسكر ، فوصلوه بعد غروب الشمس بساعة واحدة . ويذكر الشاه أيضا أن الطريق المعروف للوصول الى الخر [يقصد من الكاظمية فيما يبدو] هو طريق فيه سكان ويضم معالم عديدة ، وأنه يوجد على جهة اليمين من الخر مكان يتصل بنهر الفرات [ولعله كان يقصد به قناة الكنعانية التي كانت تربط الفرات بدجلة] . ثم يتطرق الى ذكر بعض القرى الواقعة في مناطق الطريق كالرضوانية والأنبار ، التي بناها جعفر البرمكي كما يقول . ويقول إن القرى في الوقت الحاضر في هذه المنطقة قلت عما كانت عليه في الماضي . كما يذكر أنه من المكان الذي هو فيه ، وهو منزل سفره الأول هذا الى كربلاء ، يمكن للناظر نحو الجهة اليسرى أن يشاهد مسجد براثا ، ومزار الشيخ جنيد ، ومقبرة زبيدة زوجة هارون الرشيد ، ومرقد معروف الكرخي [٤٠] .

---

(٤٠) سفرنامه عتبات ، ص١٠٦ – ١٠٨

توحيد الدلالة الصرفيّة للصيغة الفعليّة المزيدة (فعّل)

الدكتور خلف عايد إبراهيم الجرادات

رئيس قسم اللغة العربية

جامعة جرش – الأردن

الملخص :

استقرّ عند القدماء والمحدثين تعدد معاني فعَّل الصرفيّة كأخواتها من الصيغ الفعليّة المزيدة ، ولم يختلفوا البتّة في أن للصيغة (فعّل) معانيَ صرفيةً عديدةً ، تكثر عند بعضهم وتقلّ عند بعض .

وقد وقف سيبويه على ستة معانٍ (فعّل) ثم تبعه النحاة والصرفيون القدماء فوسّعوا بعض هذه المعاني وزادوا أُخر ، فذكر لها ابن عصفور ثمانية معانٍ ، وذكر لها ابن مالك عشرة معانٍ ، وبلغت تسعة عند الرضي الاستراباذي ، على خلاف عندهم في بعضها من حيث التسمية والاصطلاحات .

أما المحدثون فسلكوا سبيل القدماء ونقلوا هذه المعاني وشعّبوا بعضها ، وزادوا فيها إلى أن بلغت عند هاشم طه شلاش واحدا وعشرين معنى تقريبا .

ويقوم هذا البحث على نفي هذا التعدد لمعاني الصيغة ويفترض أن لهذه الصيغة معنى صرفيا واحدا لا تعدوه ، تُردّ إليه جميع المعاني المذكورة ، لأنّ التعدد المشار إليه خلط المعنى الصرفيّ بغيره من المعاني المعجميّة والنحويّة ، زيادة على التداخل والخلط بين المعاني التي بسطوها تكثيرا وتعديدا .

وقد تبين لي أن لهذه الصيغة الفعليّة (فعّل) معنىً صرفيًا واحدا لا تعدود . كما هو الحال في (أفعل) التي سبق معالجتها بالنظر ذاته . وقد ثبت لي هناك أن معنى (أفعل) الصرفي الرئيس والوحيد هو الجعل والصيرورة ، ورددتُ كلّ المعاني الأخرى إليه[1].

وتبيّن هنا أنّ المعنى الصرفيّ الرئيس والوحيد لفعّل هو أيضا الجعل والصيرورة على مهلةٍ ومُكث ، والشطر الثاني من المعنى(المهلة والمُكث) هو وجه الخلاف بين معنيي الصيغتين صرفيًا ، فالجعل والصيرورة في(فعّل) يصاحبه تمهّل واحتفاء ومطاولة ، وهو ما سمّاه القدماء ، غير أنّ المبالغة ليست معنى لازما للصيغة ولكنها نتيجة للمعنى الصرفيّ في قسط وإقر   من الأمثلة .

وهذا المعنى المستخلص ليس بدعا من المعاني التي ذكرها القدماء والمحدثون ، ولكنه جاء في عبارات القدماء موزّعا على معان متعدّدة ، ولم يجعلوه معنىً رئيسا مستقلا . وهو ما جعل المعاني تتداخل وتتضارب حتى استحال الأمر إلى تعديد وتكثير دون ضبط.

وسأستعرض ابتداءً المعاني التي ذكرها القدماء معنى معنىً وأبيّن المعنى الجديد المفترض فيما ذكروه رادًا ما عدّدوه من معانٍ إلى هذا المعنى ضابطا له ومزيلا عن المعاني التي ذكروها التداخل والتكثير بلا طائل . ثم أعرّجُ على المحدثين وما زادوه لتوجيهه إلى هذا المعنى .

---

(1) انظر : توحيد الدلالة الصرفيّة للصيغة (أفعل) ، وهو بحث قدمته إلى مجمع اللغة العربية الأردني ، وما زال بين يدي المحكّمين.

وتوحيد المعنى الصرفيّ للصيغ الفعليّة المزيدة وضبطه يترسّخ عندي كلما أمعنت النظر في معاني الصيغ المتكاثرة ، إذ ما تلبث أن تؤول إلى معنى صرفيّ رئيسي أساسيّ واحد . وتمثّله في أكثر من وجه من أوجه الاستعمال هو الّذي قاد إلى جعلهم الصيغة ذات معانٍ صرفيّة عديدة ، وقد ثبت هذا الأمر عند البحث الّذي أجريته على صيغة (أفعل) وها هو يترسّم أمامي في صيغة (فعّل) في هذا البحث.

١. القدماء ومعاني فعّل :

إن ما يجعلني مطمئنًا إلى صحّة ما استنتجته وذكرتُه آنفا من أنّ المعنى الصرفيّ الرئيس والوحيد لصيغة (فعّل) هو الجعل والصيرورة على مهلة ومُكث أنّ مجمل المعاني الّتي ذكرها سيبويه لهذه الصيغة تنبئ جميعا عن المعنى المذكور بل إنها لا تخرج عنه وإن عُدّدت بأسماء مختلفة .

فأول معنى ذكره سيبويه (١٨٠ هـ ، ٧٩٦ م) لصيغة(فعّل) هو معنى التصيير والجعْل ، وقد ولج هذا المعنى من باب افتراق فعلت وأفعلت[٢] ، إذ كان يفرّق بين المعنى الصرفيّ لكلّ من فعلَ وأفعلَ ، فذكر أنّ مما يفترقان فيه أن أفعل تعني التصيير والجعل ، قال : " تقول : دخل وخرج وجلس ، فإذا أردت أنّ غيره صيّره إلى شيء من هذا قلت: أخرجه وأدخله وأجلسه..."[٣] ، وهو المعنى الذي سماه تابعو سيبويه من النحويين

---

[٢] انظر : سيبويه أبو بشر عمرو بن عثمان (ت ١٨٠ هـ ، ٧٩٦ م) ، الكتاب ، ٥ج ، تحقيق عبدالسلام هارون ، مكتبة الخانجي ، ط٣ ، القاهرة ، ١٩٨٨م ج٤/ ص٥٥
[٣] سيبويه ، الكتاب ٤/٥٥

بالصرفيين النقل والتعدية ، وإن كانت عبارة سيبويه أدق من حيث الدلالة على المعنى الصرفي .

ومعنى التصيير هذا جعل سيبويه يستطرد فيذكر صيغة (فعّل) ودلالتها على هذا المعنى ، إذ قال في ذات الموضع السابق : "وقد يجيء الشيء على فعّلت فيشرك أفعلت... وذلك قولك فرح وفرّحته ، وإن شئت قلت أفرحته ، وغرم وغرّمته وأغرمته إن شئت ، كما تقول : فزّعته وأفزعته"[4].

ومن البيّن أن سيبويه يحمل (فعّل) هنا على أفعل في هذا المعنى ، أي أنه كما أنّ أفعل يفيد التصيير والجعل فإنّ فعّل يفيد هذا المعنى الصرفيّ أيضا ، مؤيّدا ذلك بما ذكر من أمثلته .

ولم يذكر سيبويه فرقا بين هاتين الصيغتين في هذا المعنى ، ولكنّه حين يتقدّم في عرض أمثلتهما يُلمع إلى فرق بينهما كما سيأتي.

وحين ذكر (أنزلت ، ونزّلت) من أمثلة اتحاد فعّل وأفعل في معنى الصيرورة والجعل[5] ، استدرك في موضع آخر[6] قائلا : إن أبا عمرو كان يفرّق بينهما . والتفريق ذاته مذهب الكسائي[7].

ومسألة التفريق بين فعّل وأفعل في معنى الصيرورة تحتاج بحثا مستقلا لأنّها تقوم على نفي الترادف بين المعاني الصرفية للصيغ ، وهي مسألة

---

(4) سيبويه ، الكتاب ٤/٥٥

(5) انظر : سيبويه الكتاب ٤/٥٥ ، ٥٦

(6) السابق ٤/٦٣

(7) أبو محمد عبدالله بن مسلم ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ ٨٨٩م) أدب الكاتب ، ج١ ، تحقيق محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، بلا تاريخ نشر ، ص ٤٦٠

تحتاج مزيدا من النظر في غير هذا المقام . وتأتي أهمية التفريق بينهما من أنّ المعنى الصرفي لفعّل يكمن في هذا التفريق ، فالمعنى الصرفيّ الأساسي لصيغة أفعل هو الجعل والصيرورة ، والمعنى الأساسي لصيغة فعّل هو الجعل والصيرورة أيضا زائدا عليهما المهلة والتريث ، وبهذه الزيادة تفترق فعّل عن أفعل في المعنى الصرفيّ الأساسيّ ، وهذا المعنى الصرفيّ لفعّل هو ما يدور عليه هذا البحث.

ثم يمضي سيبويه مستعرضا استعمالات صيغة فعّل ومعانيها ، وقد ذكر طائفة من الاستعمالات تبدو في ظاهرها متنوعة ولكنها في حقيقتها تعود إلى معنى الصيرورة والجعل . قال : "وقد جاء فعّلته إذا أردت أن تجعله مفعلا ، وذلك فطّرته فأفطر ، وبشّرته فأبشر"[٨] ومعنى الجعل في هذا واضح بنص سيبويه .

وذكر بعد ذلك : " فأمّا خطّأته فإنما أردت سمّيته مخطئا كما أنك حيث قلت فسّقته وزنّيته ، أي سمّيته بالزنا والفسق"[٩]. وهذا المعنى أيضا من معاني الجعل والتصيير ، فخطّأته : جعلته مخطئا ، وعددته كذلك ، ولا فرق على هذا بين جعلته وسمّيته. ثم قال : "حيّيته أي استقبلته بحيّاك الله ، كقولك : سقّيته ورعّيته ، أي قلت له : سقاك الله ورعاك الله"[١٠]. ولا يخفى أن معنى هذا كله الجعل والتصيير : أي جعلته مسقيًا ومُحيًا ومرعيًا دعاء وتضرعا .

---

[٨] سيبويه ، الكتاب ٤/٥٨

[٩] السابق

[١٠] السابق

ولا يخفى أن معنى الجعل والتصيير في الأمثلة السابقة بين وصريح ، وإن لم ينص سيبويه على ذلك ، غير أن مضمون أمثلته وعرضه يؤيد ذلك ولا ينفيه . على الرغم من أن بعض التابعين من النحويين والصرفيين جعل لذلك معاني صرفيّة مستقلة كما سيأتي .

إنّ معنى الجعل والتصيير الّذي في (فعّل) ، وهو معناها الأساسي يخالف الجعل والتصيير الّذي في (أفعل) في أنّ الأوّل جعل وتصيير على مهلة ومكث ، وهو أمر لم يذكره سيبويه صريحا ، ولكن نحاة آخرين كأبي عمرو والكسائي لمحوه[١١].

ومما يؤيد أن تلك الزيادة هي (المهلة والمكث) زيادة على إشارة بعض النحويين إليها كما سبق ، أنّ سيبويه فرّق في بعض المواضع بين فعّلت وأفعلت ، نحو : علّمته وأعلمته ، فعلّمت : أدّبت ، وأعلمت : آذنت ، وآذنت : أعلمت ، وأذّنت : النداء والتصويت بإعلان .[١٢]

فالفرق المذكور دلاليا بين الصيغتين إنما هو الفرق ذاته في المعنى الصرفيّ بينهما ، فأعلمت : جعلته عالما بالأمر ، وصيّرته ذا علم ، أمّا علّمته : فصيّرته ذا علمٍ على وجه التمهّل والمطاولة والمبالغة ، حتى انتهى الأمر دلاليّا إلى معنى التأديب الّذي هو التعليم بمطاولة واهتمام ومتابعة ، وكذا الأمر فيما ذكر سيبويه من فرق بين آذنت وأذّنت ، فالجعل والصيرورة في الأولى دون مهلةٍ ومبالغة وهي في الثانية على مهلةٍ وتأنٍّ ومبالغة .

---

(١١) انظر : سيبويه ، الكتاب ٤/٦٣ . ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٣٠

(١٢) انظر : سيبويه ، الكتاب ٤/٦٢

ووقف سيبويه على معنى ثانٍ لـ(فعّل) ولم يُسمّه عبارة ، وترجمه اللاحقون على أنّه معنى الإزالة ، وذلك نحو : مرّضته ، وقذّيت عينه[١٣].
ويبدو لي أن معنى الإزالة الّذي استقر عند التابعين ليس هي المعنى الصرفيّ ، ولكنها دلالةٌ مرتبطة بالمعنى المعجميّ للفعل واستعماله ، فالمعنى الصرفيّ هو الجعل ، لكنّه جعلٌ فيه سلبٌ لأصل معنى الفعل ، فمرّضته : جعلته غيرَ ذي مرض ، وقذّيتُ عينه : جعلتها غير ذات قذى ، وجلّدته : جعلته غير ذي جلدٍ ، فالإزالة هي دلالة انتهى إليها الاستعمال مستفيدا من المعنى الصرفيّ في فعّل الّذي هو الجعل والتصيير على مهلة .

وقد فرّق سيبويه بين أفعل في مثل هذه الأفعال ، وفعّل ، فقال : أمرضته : جعلته مريضا ، ومرّضته: سلبت منه المرض ، وأقذيت عينه : جعلتها قذية ، وقذّيتها : نظّفتها[١٤] ، وهو تفريق لا ينصّ فيه على معنى الإزالة من جهة ، ومن جهة أخرى فإنّه لا يجافي ما نحن فيه؛ لأن معنى الجعل والتصيير حاضر في كلتا الصيغتين ، لكنّ معه في فعّل اهتماما ومبالغةً وتمهّلا تخلو منه أفعل . فلذلك ذهب الاستعمال في أفعل إلى التسبب لأنّه لا يحتاج في الغالب إلى مهلة أو حفاوة ، وذهب في فعّل إلى الإزالة لأنّها تتحمّل المداراة والمطاولة والاهتمام . وعليه يكون معنى الإزالة والسلب الّذي ذكره اللاحقون ليس معنى صرفيّا أصيلا ولكنّه دلالة استعماليّة

---

(١٣) سيبويه ، الكتاب ٤/ ٦٠

(١٤) سيبويه ، الكتاب ٤/ ٦٢

مكتسبة . ولم يقل سيبويه بمعنى الإزالة ولكنّه قال في (مرّض) قام على المريض ووليه[15].

ثم وقف سيبويه على معنى آخر أشار إلى أمثلته ولم يسمّه حين كان يفرّق بين : أصبح وصبّح ، وأمسى ومسّى ، وأسحر وسحّر ، فأصبح وأمسى وأسحر : صار في حين صبح ومساء وسحر ، وهذا معنى صيرورة كما بيّنته في بحث(أفعل) ، ثم قال سيبويه : " وأمّا صبّحنا ومسّينا وسحّرنا ، فتقول: أتيناه صباحا ومساء وسحرا ، ومثله بيّتناه : أتيناه بياتا "[16] ، ووجه التصيير والجعل في هذا المعنى وهذا الاستعمال أنّ فعّل -كما يبدو لي- تأتي لازمة ومتعدّية ، ومجيئها لازمة نحو : صلّب الرطب : إذا بلغ اليُبس ، وغرّب:أخذ ناحية المغرب ، وصرّح الشراب : إذا صار صريحا ، وبصّر : أتى البصرة ، وهجّر : إذا سار في الهاجرة ، وعرّفوا : صاروا إلى عرفات ، ونحو هذا[17] . وفعّل في كل هذا لازمة وتفيد معنى المصير إلى كذا ، ويُقاس عليها صبّح ومسّى وسحّر أي دخل وصار إلى هذا الوقت ، ولكنها صيرورة فيها تمهّل وتدرّج ، وبهذا تخالف أصبح وأمسى وأسحر . فصبّح : دخل وقت الصباح وصار إليه على مهلة ومكث ، وكذا أخواتها ، ثم استُعمل متعديا ، كقولهم : صبّحناهم ومسّيناهم وبيّتناهم ، أي جعلناهم يصيرون إلى الصباح

---

[15] سيبويه ، الكتاب ، ٤/٦٦

[16] سيبويه ، الكتاب ٤/٦٢ ـ ٦٣

[17] انظر : أبو إبراهيم إسحاق بن إبراهيم الفارابي (ت٣٥٠هـ ، ٩٦١ م) : معجم ديوان الأدب ، تحقيق أحمد مختار عمر ، مراجعة إبراهيم أنيس ، مؤسسة دار الشعب للصحافة والطباعة والنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٣م ج٢/ ص٣٤٠ ، وما بعدها .

بحالة كذا ، أو صيّرناهم إلى صباحهم على كذا ، وجعلنا صيرورتهم إلى الصباح بكذا ، وهذا التفسير لا يبتعد عن عبارة سيبويه السابقة إلاّ أنّه يوضّح وجه الجعل والصيرورة فيها .

ففي قوله تعالى ﴿ ولَقَدْ صبَّحهُمْ بُكْرَةً عذابٌ مُسْتَقِرٌّ ﴾ [القمر ٣٨] فسره كثير من المفسّرين على أنّه أتاهم وقت الصباح[١٨] ، وهو صحيح لكنّه تفسير عام للمعنى ، أما المعنى الصرفيّ للصيغة (صبّحهم) ، فهو : جعلنا صباحهم عذابا ، أو جعلنا العذاب صباحهم الّذي صاروا إليه.

ومن كلام العرب الشائع : صبّحهم العدوّ ، وصبّحهم الجيش ، وصبّحهم بالكتائب ؛ ومعنى صبّح الصرفيّ فيه أنّ العدوّ والجيش والكتائب دخلت عليهم دخولهم الصبح حتى كان صبحهم صار كذا ، أي صباحهم الّذي صاروا إليه كان جيشا باشرهم و غزوا أو عدوّا . قال امرؤ القيس:

إذا ما قام حالبُها أرنّت   كأنّ الحيَّ صبّحهم نعيٌّ[١٩]

أي أن صباح الحي الّذي صاروا إليه كان نعيّا .

---

[١٨] انظر : إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى : ٨٨٥هـ) ، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، ج ١٩/ ص ١٢٧ ، محمد بن علي الشوكاني (ت ١٢٥٠هـ ، ١٨٣٤ م) فتح القدير ،٦ج ، دار ابن كثير ، دار الكلم الطيب ، ط١ ، دمشق ، بيروت ، ١٤١٤هـ ج٥/ ص١٥٤

[١٩] شرح ديوان امرئ القيس وملحقاته ، ٣ج ، دراسة وتحقيق أنور أبو سويلم ، محمد الشوابكة ، إصدار مركز زايد للتراث والتاريخ ، ط١ ، دولة الإمارات ، ٢٠٠٠م ، ج٢/ ص ٥٧٩ ، ورواية الديوان : كأن الحيّ بيّنهم نعيٌ ، ورواية الطوسي: بيّتهم ، ويبدو لي أنها أقرب من بيّنهم.

ومثل صبّح بيّت ، كقوله تعالى حكاية عن صالح عليه السلام ﴿ قالوا تقاسموا بالله لنبيّتنّه وأهله ﴾ [النمل ٤٩] وجلّ المفسرين على أن التبييت: القتل ليلا ، أو لنأتينهم ليلا فنقتلهم[٢٠] . وهو تفسير عام للمعنى ، أما المعنى الصرفيّ فيقال فيه ما قيل ب (صبّح) : أي جعل بياته الّذي صار إليه قتلا ، أو حتى صار القتل كأنّه بياته ، قال صاحب التحرير والتنوير: " والتبييت جعل الشيء في البيات ، أي الليل ، مثل التصبيح+[٢١].

ثم ذكر سيبويه بعض الأمثلة الأخرى الّتي جاءت على فعّل ، مثل: شجّع ، جبّن ، شنّع ، وفسّرها على الرمي بذلك[٢٢] ، وهو معنى يؤول إلى الجعل والصيرورة ، فشجّعه : أي جعله شجاعا اعتبارا ، وجبّنه: جعلته جبانا وعددته كذلك. قال أبو حيّان الأندلسيّ موضحا توجيه قراءة (سُرِّق) في قوله تعالى ﴿إنّ ابنَكَ سَرَقَ﴾ [يوسف٨١] : " بمعنى نُسبَ إلى السرقة ، بمعنى جُعل سارقا ولم يكن كذلك حقيقة +[٢٣]

---

[٢٠] انظر: محمد الطاهر بن محمد بن عاشور التونسي (١٣٩٣هـ ، ١٩٧٣ م) ، التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) ، ٣٠ج ، الدار التونسية للنشر– تونس ، ١٩٨٤م ج٥/ ص١٩٤.

[٢١] التحرير والتنوير ج٥/ ١٩٤

[٢٢] انظر : سيبويه ، الكتاب ٤/٦٣

[٢٣] أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي (ت ٧٤٥هـ ، ١٣٤٤ م) ، البحر المحيط في التفسير ، ٨ج ، تحقيق صدقي محمد جميل ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤٢٠هـ ، ج٦/ ص ٣٠٨

ثم وقف سيبويه متأنيًا عند معنى الكثرة في فعّلت في أمثلة برز فيها معنى الكثرة ، نحو : كسّرته ، وقطّعته ومزّقته ، وجرّحته : أكثرت الجراحات في جسده .

وقد عدّ(فعّل) بناءً خاصًا للتكثير ، ولا يعني هذا أنّ معنى الصيغة الصرفيّ الأساسيّ هو الدلالة على التكثير ، ولكنّ معناه أنّنا إن أردنا التعبير عن الكثرة في الفعل فإن بناءها فعّل؛ إذ لو كان المقصود أن المعنى الأساسيّ هو التكثير لانتظم التكثير جميع أمثلة الصيغة واستعمالاتها ، ولم تخرج عنه ، ومن المعلوم أنّها تستعمل لغير التكثير كالجعل والتصيير الذي هو معناها الأساسيّ ، وإنّما التكثير معنى فرعيٌّ ، ونتيجة لمعنى الصيغة الصرفي الّذي هو الجعل والتصيير على مهلة ومكث؛ لأنّ المهلة والمكث في فعل ينتج عنها إمّا مبالغة عدديّة وهي التكثير الّذي ذكره سيبويه ، أو مبالغة نوعيّة (حفاوة واهتمام ومطاولة) .

فالتكثير معنى فرعيّ في هذه الصيغة وهو نتيجة لمعناها المقرر في هذا البحث .

فلا يمكن أن نعدّ التكثير الّذي ذكره سيبويه المعنى الأساسيّ للصيغة ، ولكنّ ما ذكره من معنى التكثير يؤيّد في الوقت نفسه ما ذهبت إليه من معنى هذه الصيغة ؛ لأنه كما ذكرت نتيجة للمهلة والمكث الّذي في الصيغة والّذي هو شطر معناها .

فإذا كان الفعل المبني على فعّل مناسبا للمبالغة العدديّة انصرفت المهلة والمكث في الصيغة إلى التكثير العددي نحو : موّتت الإبل ، وقوّمت الإبل ، وفتّحت الأبواب ، وغلّقتها .

وبناء على ذلك فحين وقف سيبويه على قول الفرزدق :

ما زلت أفتحُ أبوابا وأغلقها   حتى أتيت أبا عمرو بن عمّار[٢٤]

استحسن سيبويه فتّح مكان أفتح لموقعها من الأبواب وهي جمع ، مستظيرا بقوله تعالى﴿ جَنَّاتِ عدْنٍ مُفَتَّحَةً لَهُمُ الأَبْوَابُ ﴾ [ص ٥٠].

وهنالك أفعال تحتمل كلا المبالغتين : العدديّة والنوعيّة ، ففي الفعلين مثلا : كسّرت وقطّعت التكثير أظهر ، وقد يحتملان المبالغة النوعيّة ، فكسّرته قد يتوجّه معنى المبالغة والمهلة فيها – زيادة على الجعل – إلى التكثير ، بمعنى جعلته كِسَرا كثيرة ، وقطعا كثيرة ، وقد يتوجّه – وهو معنى غير بعيد بل قد يكون أقرب من السابق – إلى التمهّل تدبيرا ومبالغة .

وقد ذهب الراغب الأصفهاني في(غلّقت) إلى أنه يفيد الكثرة بتكثير الأبواب ، إن أغلقت أبوابا كثيرة ، أو بتكرار فعل الغلق إن كان بابا واحدا ، أو إحكام الغلق(مبالغة نوعيّة).[٢٥]

ويؤيّد ما سبق اختلاف النحاة في الفعل(نزّل) في بعض آيات الكتاب الكريم إن كان يفيد كثرة فعل الإنزال أم المبالغة فيه ، وستأتي هذه المسألة مفصّلة في موضعها .

وجاء ابن قتيبة (ت٢٧٦هـ ،٨٨٩م) في أدب الكاتب بما جاء به سيبويه من معانٍ لفعّل ، وزاد في بعضها . فمن ذلك أنه ذكر أنّ من معاني فعّل أن

---

[٢٤] انظر: الكتاب ٤/٦٥ ، لم أعثر على الشاهد في ديوان الفرزدق.

[٢٥] انظر: أبو القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهانيّ (٥٠٢هـ ، ١١٠٨ م) ، المفردات في غريب القرآن . تحقيق صفوان عدنان الداودي ، دار القلم ، ط١ ، الدار الشامية ، دمشق بيروت ، ١٤١٢هـ ، ص ٦١٢(غلق)

تكون متضادة لأفعل ، نحو : أفرطت : جزت المقدار ، وفرّطت قصّرت ، وأعذرت في الطلب : بالغت ، وعذرت : قصّرت ، وأقذيت العين: ألقيت فيها القذى ، وقذيتها : نظفتها من القذى ...»[26] وقول ابن قتيبة بالمضادة المذكورة إنّما هو بالنظر إلى ما آلت إليه دلالة كل من الفعلين في الأمثلة التي ذكرها ، وإلاّ فإنهما لا يتضادّان من جهة المعنى الصرفيّ الذي سبق تقريره ، وهو أنّ أفعل تدلّ صرفيًا على الجعل والصيرورة ، وفعّل تدلّ عليهما كذلك مع زيادة التمهّل والمبالغة . يؤيد ذلك عندي ما أورده ابن منظور في مادة (فرط) وتفرعاتها[27] ، فهذه المادة تدور حول معنى السبق وترك الجماعة والتقدّم ، والفُرطة : الخروج والتقدّم ، وتكلّم فلانٌ فراطا أي سبقت منه كلمة ، وفرّطته : تركته وتقدّمته ، وقول ساعدة بن جؤية:

مع سقاءٌ لا يفرّطُ حملَهُ ... أي لا يترك حمْله ولا يفارقُه ، وفرط عليه في القول : أسرف وتقدّم ، وفي التنزيل ﴿ قالا ربّنا إنّنا نخافُ أن يَفْرُطَ علينا أوْ أن يطْغى ﴾ [طه ٤٥] وفي حديث عليّ رضي الله عنه: (لا يُرى الجاهلُ إلاّ مُفرِطا او مفرِّطا) ، هو في التخفيف: المسرف في العمل ، وبالتشديد: المقصِّر فيه[28] .

إذ يتبيّن من العرض السابق أن المادة واحدة ، ولكنها انتهت إلى التضاد في المثال الأخير من جهة استثمار الدلالة للمعنى الصرفيّ ، فأفرط صار

---

[26] ابن قتيبة ، أدب الكاتب ، ٤٦٠

[27] انظر: محمد بن مكرم بن علي ، أبو الفضل ، جمال الدين ابن منظور (٧١١هـ) ، لسان العرب ، ١٥ ج ، دار صادر ، ط ٣ ، بيروت ، ١٤١٤ هـ ٣٦٨/٧ ، (فرط)

[28] انظر : ابن منظور ، لسان العرب ٣٦٨/٧ ، (فرط) بتصرف

إلى التقدم والسبق . وافرط في القول: ترك الحدّ المعقول للقول واجتازه ، ولعلّه من هذا المجاز دخل معنى الإسراف ، أمّا من جهة المعنى الصرفيّ فلم تفارق أفعل معناها الصرفي المقرر الّذي أشرت إليه مرارا.

وفرّط: ترك وتقدّم ، وفيها معنى الجعل والصيرورة ، أي صار إلى التقدم ، وفيها جعل ما وراءه مسبوقا ومُتقدّما عليه ومتروكا ، وفيها أيضا زيادة فعّل على أفعل ، وهي التمهّل والمبالغة ، فصارت بمجموع ذلك: صار إلى التقدم وجعل ما وراءه متروكا على مهلة ومكث ، ولعله من هنا دخل معنى التقصير المرتبط بالترك والإهمال. فآلت دلالة كل صيغة إلى ما أشار إليه اللغويّون من تناقض دلاليّ هو في حقيقته منطلق من معنى صرفيّ لكلّ صيغة من غير تناقض بينهما ، وخلاصة ذلك كله أن قول ابن قتيبة في التضاد بين أفعل وفعّل لا يخرجهما عن معنييهما الصرفيين الّذين وقفت عليهما ، لأنّ التضاد ليس في المعنى الصرفيّ ولكنّه في الدلالي . وما قيل في هذا المثال يقال في سائر الأمثلة التي جاءت في الاستعمال متضادة الدلالة وإن كانت في المعنى الصرفي غير متضادة ولا تتجاوز المعنى المقرّر .

فأعذر مثلا صار ذا عُذرٍ ، وأبلى عذرا فلا يُلام ، كما قال الخليل[٢٩] ، وهذا يُستعمل إذا أنجز المرءُ عملا وأدّى ما عليه فيه ، ومن هنا صار: أعذر في الطلب ، أي بالغ ولم يدَع شيئا فيه ؛ أمّا عذّر فهي لم تفارق معناها الصرفيّ وإن اتجهت الدلالة إلى معنى التقصير ، لأنّ عذّر: صار إلى

---

[٢٩] انظر : الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥هـ) ، كتاب العين ٨ج ، تحقيق : مهدي المخزومي ، وإبراهيم السامرائي ، مكتبة الهلال ، ٢/٩٤.

العذر بتكلّف ومبالغة ، كمن يبحث عن العذر ولا يجده حاضرا ، فيتكلّفه ، وفي هذا فإنها لا تعدو معناها الصرفيّ الّذي هو الجعل والصيرورة بمبالغة وتمهّل (والتكلّف من ذلك) ، قال ابن عباس : " المعذّرون الّذين يعتذرون بلا عذر ، وقال الخليل عذّر الرجل: الّذي لم يبالغ في الأمر وهو يريك أنه يبالغ فيه .

ووضّح ذلك صاحب المقاييس : "وقولهم للمقصّر في الأمر معذّر ، وهو عندنا من العذر أيضا ، لأنه يقصّر في الأمر معوّلا على العذر "[30]

وخلاصة ذلك أن الأمر انتهى إلى ارتباط أعذر بالمبالغة وعذّر بالتقصير ، وبناءً على ذلك عدّ ابن قتيبة فعّل مضادةً لأفعل ، والحقيقة أنّه تضادّ دلاليّ لا من جهة المعنى الصرفيّ الّذي بفي كما شرحته.

وعلى نحو ما سبق تقاسم الفعلان: أقذى وقذّى الدلالة حتى انتهى الأمر بهما إلى التضاد ، فأقذى: جعل العين ذات قذىً ، وذهبت أقذى إلى هذه الدلالة ، لأنّ الجعل فيها ليس فيه مهلة ولا مبالغة ولا تدبير ، فهو يناسب إصابة العين بما يقذيها ، فسرعة الإصابة يناسبها أفعل (أقذى) ، أمّا قذّى (فعّل) المشتقة من الجذر نفسه فإنّ فيها مهلة وتدبير وتمهّل (وهي المبالغة التي ذكرها القدماء) ، وهو أيضا ما عبّر عنه سيبويه في الفعل مرّض:بأنه إذا قام على المريض ووليه[31] ، فناسب قذّى (فعّل) معالجة العين من القذى وإزالته منها. وعليه فإن ما ذكره ابن قتيبة من تضاد إنما هو تضاد دلاليّ

---

[30] انظر: أحمد بن فارس(٣٩٥هـ) ، معجم مقاييس اللغة ، ٦ج ، تحقيق: عبدالسلام هارون ، دار الفكر ، ١٩٧٩م ،

[31] انظر : سيبويه الكتاب ٤/٦٢

انتهت إليه الصيغتان ، لا ينقض ما استخلصته من معنى صرفيّ لكلّ منهما.

ثم ذكر ابن قتيبة من معاني فعّل أنّها تأتي ولا يراد بها التكثير ، نحو : كلّمته ، وعلّمته ، وسوّيته ، وغدّيته ، وعشّيته[٣٢]

وقوله لا يُراد بها التكثير يشير إلى أنّه يعتبر أن المعنى الرئيس لها هو التكثير وقد خرجت عنه في تلك الأمثلة ، غير أن الأمثلة المذكورة لم تخرج عن المعنى الصرفيّ الّذي بيّنته ، ممّا يؤيّد أنّه هو المعنى الصرفيّ الأساسيّ وليس التكثير ، وإن كان التكثير أحد وجوه ذلك المعنى كما وضحت ذلك.

فصيغة فعّل الّتي جاءت عليها الأمثلة السابقة أفادت -كما هو معناها- الجعل و التصيير على مهلةٍ تفيد المبالغة والاهتمام ، فالفعل كلّم لم يُستعمل منه الثلاثيّ على هذا المعنى حتى نقارن به ويظهر معنى فعّل ، وقد يؤيّد هذا نقل الكلمة دلاليًا من المعنى الحسيّ (الجرح) إلى المعنويّ (تشبيه أثر الكلمة بأثر الجرح) كما أشار لذلك بعضهم[٣٣] ، والثلاثي في المعنى الحسي مستعمل : كلم : جَرح ، وكلّم : جرّح.

---

[٣٢] انظر : ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٦١

[٣٣] انظر : مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى : ٨١٧هـ) ، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ، تحقيق:محمد علي النجار ، المكتبة العلميّة ، بيروت ، لبنان ، ج١/ ص٨٢ . محمّد بن محمّد الملقّب بمرتضى الزَّبيدي (١٢٠٥هـ ، ١٧٩٠م) ، تاج العروس من جواهر القاموس ، ٤٠ ج ، تحقيق عبدالستار أحمد فرّاج ،مجموعة من المحققين ، مطبعة حكومة الكويت ، ١٩٦٥م ، ج٣٣/ ص ٣٧٢

ولعلّ مناسبة تأثير الكلام في السامع ناسبها صيغة الجعل لمبالغة واهتمام ، ومن هنا أهمل استعمال الثلاثي على هذا المعنى .

أمّا سائر الأمثلة فالأمر فيها أيسر لوضوح معنى فعّل الصرفيّ فيها ، فعلّمته: فيها جعل وصيرورة : أي جعلته متعلّما ، وفيها تمهّل واهتمام وهي مطاولة التعليم والتدرّج فيه ، وكذلك سوّيته ، وغذّيته ، وعشّيته. والأمثلة الأخيرة تشبه فطّر وشقيقاتها التي ذكرها سيبويه ونص على معنى الجعل فيها ، ففطّرته : جعلته مفطرا[٣٤].

ثم ذكر ابن قتيبة أنّ من معاني فعّل مخالفة فعلتُ ، نحو: نمَيْتُ الحديث : نقلته على جهة الإصلاح ، ونمّيته : نقلته على جهة الإفساد ، وهو معنى توارد عليه كثير من اللغويّين ، وكذا جاب القميص: قوّر جيْبَه ، وجيّبه : جعل له جيبا[٣٥].

---

(٣٤) انظر: سيبويه ، الكتاب ، ج٤/ص٥٨

(٣٥) انظر: محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي ، أبو منصور (المتوفى: ٣٧٠هـ) ، تهذيب اللغة ،١٥ج ، تحقيق : محمد عوض مرعب ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ٢٠٠١م ، ١٥/ص٣٧١ ، أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري(٣٩٣هـ) الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية ،٧ ج ، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار ، دار العلم للملايين ط٤ ، بيروت ، ١٩٨٧م ٦/٢٥١٦ ، أبو الحسن علي بن إسماعيل ابن سيده(٤٥٨هـ ،١٠٦٥م) ، المخصص ، ١٧ج ، تحقيق: خليل إبراهم جفال ، ط١ ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ١٩٩٦م ج١/ص٢٩٥ ، علي بن جعفر بن علي السعدي ، أبو القاسم ، المعروف بابن القَطَّاع الصقلي (المتوفى : ٥١٥هـ) كتاب الأفعال ،٣ج ، الطبعة ١ ١٩٨٣ ، عالم الكتب ، ج٣/ص٢٧٨

وقد نفهم أنّ المخالفة أو المضادّة في مثل هذا إنّما هي دلالةٌ انتهت إليها الكلمات المذكورة مستفيدة من المعنى الصرفي للصيغة الّتي جاءت عليها الكلمة ، وما يعنيني هنا أن فعّل في الأمثلة لم تخرج عن معناها الصرفيّ الّذي أدور عليه ، وهو الجعل والصيرورة على مهلة باهتمام ومبالغة ، فنميت الحديث : أي رفعته بتدبّر وتمهّل في حين أنّ نميته رفعته وحسب . فناسب رفعه على جهة الإفساد والنميمة صيغة فعّل لأنّ في ذلك تكلف ومداراة فاختارها المعنى . وناسب الأولى فعَل(نمى) لعدم التكلف فيها .

أمّا المثال الثاني فقد نصّ ابن قتيبة على معناه ، وهو : جيّب القميص : جعل له جيبا ، ومعلوم أن جعل الجيب يحتاج مهلة ، أكثر من جاب التي هي للقطع .

وتلا سيبويه وابن قتيبة ابنُ عصفور من الصرفيين الّذي سردوا معاني فعّل وزادوا فيها وفصّلوا ، وقد أورد ثمانية معانٍ معتمدا على ما تقدّم ، غير أنّه سمّى المعاني بأسماء مستفادة من عبارات المتقدّمين ، فذكر معنى النقل ، ويريد به التعدية[36] ،وهو معنى الجعل والتصيير الّذي سبقت الإشارة إليه عند سيبويه .

والتكثير وقد ذكره بمعناه ولفظه ، ثم ذكر معنى الجعل على صفة ، نحو : فطّرته ، وقد أصاب المعنى الصرفيّ الحقيقيّ هنا كما يبدو لي غير أنّه لم يجعل مع الجعل مهلة وتدبر ومبالغة ، وذكر معنى التسمية ، نحو :

---

[36] علي بن مؤمن ابن عصفور (ت ٦٦٩هـ ، ١٢٧٠ م) الممتع الكبير في التصريف ، مكتبة لبنان ، ط١ ، ١٩٩٦م ، ١٢٦

حضّنته ، وسقيته ، وهو ما جاء عند سيبويه وابن قتيبة بعبارة رمي الرجل بالشيء ، وحقيقة معناه الصرفيّ لا تختلف عن سابقه الّذي ذكره ابن عصفور ، وهو معنى الجعل على صفة ، وذكر معنى الدعاء ، نحو : سقّيته ، ورعّيته ، وهو ما حمله ابن قتيبة على معنى رميته بكذا ، وقد ذكرتُ في بحث أفعل أنّ الدعاء في مثل: أسقيه وكذا في سقّيته ليس معنىً صرفيّا؛ لأنّه مستفاد من السياق ، أما المعنى الصرفيّ فهو الجعل والصيرورة ، أي جعلته مسقيًا ومرعيًّا دعاء وتضرعا ، والفرقُ بينهما هو الفرق في المعنى الصرفيّ ؛ فأسقيه : أجعله مسقيًا ، وسقّيته : جعلته مسقيًا دعاءً على نحو فيه تمهل ومبالغة .

ثم ذكر القيام على الشيء نحو : مرّضته ، وهي ذات العبارة التي جاءت عند سيبويه ، وترجم عبارة سيبويه وهي : قذّيتها : نظّفتها ، بمعنى جديد لفعّل وهو الإزالة ، وقد ذكرها ابن قتيبة من قبل في معنى مضادة أفعل ، وقد حرّرت هناك معنى فعّل فيها ، وكذلك معنى الإزالة هنا فهو ليس معنىً صرفيًا ولكنّها دلالة توجّهت إلى المعنى الصرفي وناسبها .

ويظهر مما تقدّم مدى التداخل في المعاني الصرفيّة عند القدماء وعدم ضبطها ، وما أسهل عودها عودا حميدا ميسّرا إلى المعنى الصرفيّ الّذي ذكرته ، بل إن معناها الصرفي ليس إلا هو وإن تنوّعت دلالاتها بعض التنوع .

ثم جاء ابن مالك بعد ذلك وذكر لها عشرة معانٍ[٣٧] ، بعضها مما تقدم عند سابقيه كالتعدية والتكثير والسلب والجعل الشيء بمعنى ما صيغ منه . والعبارة الأخيرة هي تعديل من ابن مالك لمعنى ما اطلق عليه المتقدمون رمي الرجل بشيء[٣٨] ، مثل شجع وجبّن . وتدلّ عبارته على أنّه لمح معنى الجعل بوضوح حين وقف على المعنى المتقدّم ، وقد شرح ذلك بأمثلة نحو : عدّلته ، وأمّرته ، أي جعلته عدلاً وأميرا ثم حمل عليه ما ذكره سابقوه على معنى الرمي بالشيء ، نحو : فسّقته ، وجهّلته ، فظاهره النسبة وحقيقة معناه الصرفيّ الجعل ، وذكر أنّ معنى الجعل نحو : بطّنت الثوب وجبّبته إذا جعلت له بطانا وجبيا .

وزاد على معاني فعّل التوجّه كشرّق وغرّب وغوّر وكوّف ، وأرى أن ردّها إلى معنى الصيرورة أوجه ، أي : صار إلى الشرق وإلى الغرب وإلى الغور وإلى الكوفة ، وهي صيرورة على تمهّل وتدرّج ، وسيأتي ذكر هذا المعنى عند الرضيّ بمعنى الدخول في الزمان : نحو هجّر ، وغلّس ، والدخول صيرورة .

ومن المعاني الّتي أضافها اختصار حكاية الشيء ، نحو : أمّنَ ، وسبّح ، وحمّد ، قال : " ومعنى اختصار الحكاية أنّ الأصل : قال آمين ... فأغنى عن ذلك صوغ فعّل "[٣٩] . وهذا المعنى الّذي ذكره لا يفارق معنى

---

[٣٧] انظر : ابن مالك ، جمال الدين محمد بن عبدالله (٦٧٢هـ/١٢٧٣م) شرح التسهيل . تحقيق : عبدالرحمن السيد ، محمد بدوي المختون ، ط١ ، دار هجر ، القاهرة ١٩٩٠م ٣/٤٥١ وما بعدها .

[٣٨] انظر : سيبويه ٤/٦٣ ، ابن قتيبة ، أدب الكاتب ٤٦١ .

[٣٩] ابن مالك ، شرح التسهيل ٣/٤٥١ .

فعّل الصرفيّ ، وهو الجعل والصيرورة على مهلة ، فسبّح صار إلى تسبيح الله جلّ جلالُه ، وحمّد صار إلى حمْد الله عز وجل ، وقد يختصران العبارة التي يقولها المرء وتؤول إلى المعنى ذاته ، إذ لا فرق من حيث الدلالة بين : سبّح ، أي نزّه أو سبّح ، قال : سبحان الله ، وحمّد: ذكر ذكرا حسنا وأثنى ، وحمّد: قال الحمدُ لله .

ومن المعاني التي استحدثها ابن مالك كون فعّل موافقة لتفعّل ، أي أنها ترادفها ، وذلك نحو : ولّى وتولّى ، وبيّن الشيءُ بمعنى تبيّن ، وفكّر وتفكّر ويمّم وتيمّم[٤٠].

ويبدو لي أنّ فعّل هنا غير تفعّل ، وبينهما فرقٌ دقيق متأتٍّ من اختلاف البنية الصرفيّة ، ومن أنّ لكلّ بناء معنىً خاصّاً به ، ففعّل كما أشرتُ مرارا معناها الجعل والصيرورة على تمهّل ومبالغة ، أمّا تفعّل فسيأتي لمعناها بحث مستقلٌّ ، وخلاصة معناها التدرج ، فعليه تكون ولّى : صار إلى التولية ، وتولّى : ذهب متدرّجا ، وبيّن صار إلى التبيين ، وتبيّن: بان بالتدريج ، وهكذا.

ومن تلك المعاني المستحدثة عند ابن مالك اعتباره مثل: أوّنت الحبلى: إذا صار بطنها كالأونين (جانب الخرج) ، وعجّزت : صارت عجوزا ، عادًّا هذا المعنى مغنياً عن تفعّل. وهو خلط للمعنيين كما يبدو لي بلا طائل ، فقد ظفر بالمعنى الصرفيّ الحقيقيّ حين فسّر أوّنت: صارت كالأونين ، وعجّزت: صارت عجوزا ، وهو تفسير يؤيّد معنى فعّل الّذي ذكرته مرارا في هذا البحث ، ولا فائدة من حمله على معنى تفعّل ، أي تأوّن أو تعجّز ،

---

[٤٠] انظر : ابن مالك ، شرح التسهيل ٣ / ٤٥١ .

فـمعنى الظاهر هو الصيرورة ولا تحتملها صيغة تفعّل التي تكشف عن التدرّج في الفعل . ويبدو لي أنّ التلاقي الدقيق بين المبالغة في فعّل ، والتدرّج في تفعّل هو سبب هذا التداخل .

ومما قيل في المعنيين السابقين يُقال في عدّه فعّل مرادفا فعل[41] ، في مثل: بشّر وبشر ، وعاض وعوّض ، وماز وميّز . فالفرق واضح بين الثلاثي والمضعّف ، وهو نابع من معنى فعّل الصرفيّ . وابن مالك يتابع هنا سيبويه في عدّه مثل أجاد وجوّد بمعنىً.

كما أن حمله نحو : خرّب ، وعرّد ، وعيّر على أنها بمعنى فعل ، لأنه لم يأت من هذه الأفعال ثلاثي ، إنما هو خلط للمعاني الصرفيّة كما سبقت الإشارة عند إشارة سيبويه لهذا

وإذا ما صرنا إلى الرضيّ الاستراباذي في شرحه المحقق للشافية نجده يذكر المعاني التي مرّت ويحقق بعضها ، فقد عدّ أنّ معنى التكثير هو الغالب على فعّل ، وقد سبق الرضيّ طائفة من النحاة ممّن قرروا هذا ، منهم سيبويه والسيرافي وابن جني[42] ، وقد أوضحت سابقا علاقة التكثير بالمعنى الّذي أسعى إلى استخلاصه هنا ، وأنّه ليس من تعارض بينهما سوى أن

---

[41] التسهيل ٣/٤٥٢

[42] انظر: سيبويه ، الكتاب ، ٤/٦٥ . أبو سعيد الحسن بن عبدالله السيرافي (٣٦٨هـ) ، شرح كتاب سيبويه (٥ ج) ، تحقيق : أحمد حسن مهدلي ، وعلي سيد علي ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة١ ، ٢٠٠٨م ، ٤٤٣/٤ ، أبو الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢ هـ ، ١٠٠١م) المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها ، ٢ ج ، تحقيق علي النجدي ناصف ، عبدالحليم النجار ، عبدالفتاح شلبي ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٩٤م ، ٣٠١/١

التكثير فرع على المعنى الأساسي الرئيسي الذي استخلصته ، وهو الجعل والتصيير على مهلة ومبالغة ، إذ إن المبالغة تتصرف أحيانا إلى جهة تكثير المجعول والمصير. وسنأتي مناقشة هذه المسألة بالتفصيل .

وحين وقف الرضيّ على معنى التعدية الذي ذكره المصنف (ابن الحاجب) نحو : فرّحته ، اعترض عليه وقال:" والأولى أن يُقال في مقام التعدية : هو بمعنى جعل الشيء ذا أصله ، ليعمّ نحو فحّى القدر : أي جعلها ذات فحا ، وشسّع النعل+[٤٣] .

وهذا تحقيق قيّم من الرضيّ يوافق ما أذهب إليه في معنى فعّل؛ إذ لمح الرضيّ أن معنى التعدية يضيق عن استيعاب فعّل وأمثلته المتنوّعة فاستدرك على المصنف أن المعنى الأوسع هو جعل الشيء ذا أصله ، أي فرّحته : جعلته ذا فرح ، ونحوه .

وهو أمر يؤيّد أنّ المعنى الأساسيّ لفعّل هو ما ذكرت ، وليس ما فرّعوا من معانٍ دلاليّة ونحويّة تابعة للمعنى الصرفيّ الأساسيّ ، فالتعدية مثلا ليست معنى صرفيًا ولكنّها مسألة نحويّة جاءت نتيجة المعنى الصرفيّ ، وبعبارة أوضح فإن فرّح مثلا طلبت مفعولا (تعدّت) لما طرأ عليها من معنى الجعل الّذي جاء من الصيغة الصرفيّة (فعّل) وهذه هي حقيقة المعنى الصرفيّ.

---

[٤٣] رضي الدين محمد بن الحسن الاسترابادي (٦٨٦هـ ، ١٢٨٧ م) ، شرح شافية ابن الحاجب ، ٤ج ، تحقيق محمد نور الحسن ، محمد الزفزاف ، محمد محيي الدين عبدالحميد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٢ م ، ج١/ص٩٣

ثم نقل مخالفة المصنف للصرفيين في أن مثل فسقته ليس للنسبة كما زعموا ، وإنما قال : يرجع معناه إلى التعدية ، أي جعلته فاسقا بأن نسبته إلى الفسق ، وهذا ما ذكرته سابقا ، وهو عين ما أراد . فالحقيقة أن معناه يعود للجعل وليس للتعدية التي هي نتيجة للجعل كما وضحت .

ثم خصّ الرضيّ الصيرورة بمعنى مستقلّ وفصّلها من جهة الأصل أو الفاعل أو المفعول ، قال: " ويجيء بمعنى صار ذا أصله ، كورّق : أو أورق ، أي صار ذا ورق ، وقيّح الجرح: صار ذا قيح+[44] ، ومن جهة الفاعل : روّض المكان ، أي صار روضا ، وعجّزت المرأة ، وثيّبت .. . ومن جهة المفعول : سبحان الذي ضوأ الأضواء ، وكوّف الكوفة وبصّر البصرة ، أي جعلها أضواء وكوفة وبصرة .

ومن المعاني التي استخلصها أيضا: المشي إلى الموضع المشتق منه ، نحو : كوّف ، وفوّز وغوّر ، وهذا فرعٌ على معنى الوقت الذي سيذكره لاحقا مستقلّا بمعنى عمل شيء في الوقت ، نحو: هجّر ، ومسّى وغلّس ، وقد وقفت عند هذه المسألة حينما أوردها سيبويه وبيّنت أنّ المعنى هناك هو الصيرورة إلى الزمان ، وهنا الصيرورة إلى المكان ، فكوّف : صار إلى الكوفة ، ولا يؤدّي هذا المعنى قوله: المشي إلى المكان إلاّ توسّعا ، لأنّ المعنى المراد على وجه الدقة : الصيرورة التدريجيّة أو على مهلة.

وذكر سائر المعاني الّتي سبقت عند متقدّميه ، نحو: الدعاء ، والسلب ، وعمل شيء في الوقت ، نحو : هجّر ، ومسّى ، وغلّس.

---

[44] الرضيّ الاستراباذي ، شرح الشافية ١/٩٥

المحدثون ومعاني فعّل :

تابع المحدثون القدماء في معاني فعّل من حيث تعديدها وتكثيرها ، ومن حيث نقل المعاني ذاتها وتشعيب بعضها ، ولم أظفر بمن ضبط هذه المعاني أو سعى إلى ردّها إلى معنى صرفيّ واحد .

وحين سعت نجاة الكوفيّ إلى ذلك فإنّها لم تأت بجديد ؛ إذ ذكرت معانيها التي ذكرها القدماء ، ثم قالت : «فصيغة فعّل تفيد التعدية مع ملحظ الدلالة على التكثير الذي هو أصلٌ فيها»[٤٥] . فما يبدو في قولها أنّه خلاصة معاني فعّل ليس هو في الواقع كذلك ؛ لأنّ التعدية نتيجة نحويّة للمعنى الصرفيّ كما وضّحت ، زيادة على أن قولها بأن التكثير أصلٌ في فعّل – وهو رأي كثرة من القدماء كما أشرت– ليس الأمر فيه كذلك ؛ لأنّ المبالغة النوعيّة فيها أكثر رسوخاً من المبالغة الكميّة الّتي تُعدُّ وجهاً من تجليّات المبالغة في بعض الأفعال الّتي لا تحتمل إلا التعديد

لذلك وقفت نجاة الكوفي[٤٦] على ما وقف القدماء عليه متحيّرين ، فلم تستطع فك إشكال ما أشكل عليهم حين لم يضبطوا معنى فعّل الصرفيّ وجنحوا بها إلى التكثير . وستأتي مسألة اختلافهم في الفعل نزّل في القرآن الكريم بين معنى التكثير والمبالغة وما دار حول ذلك .

---

[٤٥] نجاة الكوفي ، أبنية الأفعال دراسة لغوية قرآنية ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ، ١٩٨٦م ، ص ٥١

[٤٦] انظر : نجاة الكوفي ، أبنية الأفعال ، ص ٥٠

وقد حاولت ربط التكثير بالفعل من حيث تعديه ولزومه ، وأن التكثير غالباً ما يأتي مع الأفعال المتعدية وقليلاً مع اللازمة ، وهو أمر لم يقدم في حل المشكلة شيئاً.

وحين وقفت خديجة الحديثي عند معاني فعّل[٤٣] استندت الى ما ورد عند القدماء ، وخلطت بعض المعاني ببعض ، فهي لم تفرق بين التعدية والصيرورة في فعّل ، وجاءت بمعنى إصابة المفعول بالفعل نحو : عسّرته ، وبشّرته . وهو معنى تفردت به ولم يرد عند غيرها ، فيما أعلم ، وهو معنى غير دقيق لأنّ كلّ مفعول مصاب بالفعل إلاّ إنْ حُمل قولها على أنّها تعني بالإصابة الجعل والتصيير ، فإنه إذ ذاك يستقيم؛ لأنّ معنى الجعل والصيرورة على مبالغة ومبالغة في عسّر وبشّر لا يخفى.

ثم ذكرت معنى(جعل المفعول بقدر الفعل) ، نحو كثّرت وقلّلت ، وهو معنى لم يرد عند غيرها ، ولا يمكن اعتباره معنى صرفياً ، لأنهما يعودان صرفياً الى معنى الجعل والتصيير ، وهو المعنى الصرفي العام الذي يجمع كل الأمثلة سواء مع هذين الفعلين أو غيرهما ، ولا يمكن أن نخص كل فعل أو فعلين بمعنىً صرفيّ.

وكانت الحديثي قد تابعت القدماء في عدّهم أكثر وأقلّ بمعنى جاء بالقليل وبالكثير صرفياً[٤٤] ، ومن كثّر وقلّل ذكرت المعنى المشار إليه وهو

---

(٤٣) خديجة الحديثي ، أبنية الصرف في كتاب سيبويه ، منشورات مكتبة النهضة ، ط١ ، بغداد ، ١٩٦٥ م ، ٣٩٠

(٤٤) خديجة الحديثي ، أبنية الصرف في كتاب سيبويه ، ٣٨٧

جعل المفعول بقدر الفعل . فلو كان ما ذكرت معنى صرفيا صحيحا مضبوطا لما افترق فعّل عن أفعل لأنّ كليهما عدّى الفعل وهي نتيجة لمعنى الصيرورة والجعل والفرق بينهما هو في المهلة والمبالغة في كثّر وقلّل التي لا توجد في أكثر وأقلّ .

ومن المحدثين من اختص معاني أبنية الأفعال بكتاب مستقل ، لكنّه لم يتجاوز ما ذكر القدماء[49].

أمّا هاشم طه شلاش فقد تجاوز القدماء والمحدثين في تكثير معاني الصيغة إذ أوصلها إلى واحد وعشرين ، منها سبعة معاني عدّها في البدء ، هي ذاتها ما سبق عند القدماء نصا ومعنى[50] ، وذكر من المعاني التي لم أجدها عند غيره: اتّخاذ الفعل من الاسم ، نحو خيّم القوم: ضربوا خياما ، وصلّب الراهب: اتّخذ في بيعته صليبا ، مستشهدا ببيت الأعشى:

وما أيبُليٌّ على هيكلٍ   بناه وصلّب فيه وصارا[51]

---

[49] أبو أوس إبراهيم الشمسان ، أبنية الفعل دلالاتها وعلاقاتها ، دار المدني ، ط ١ ، جدة ، ١٩٨٧م : ٢٥-٣٢

انظر: هاشم طه شلاش ، أوزان الفعل ومعانيها ، مطبعة الآداب ، النجف الأشرف ، ١٩٧١م ، ٧٤- ٨٣

[51] انظر : ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، شرح وتعليق : محمد حسين ، مكتبة الآداب ، ص ٥٣ (والأيبلي صاحب العصا التي يُدقّ بها الناقوس . الهيكل موضع في صدر الكنيسة يقرّب فيه القربان)

وأورد حديث عائشة رضي الله عنها ، أن النبيّ صلى الله عليه وسلم كان إذا رأى التصليب في ثوب قضبه ، أي قطع موضع التصليب منه[٥٢]...

والحقيقة أنّ هذا المعنى لا يعدو معنى الجعل والصيرورة في شيء ، فأمثلة المذكورة تؤول بمعناها الصرفيّ إلى : صار القوم ذوي خيام ، وصار ذا صليب ، وصلّب الثوب : جعله مصلّبا أو جعل التصليب فيه .

ومن المعاني التي ذكرها الحضور في الشيء ، نحو : جمّع : حضر الجمعة ، ووسّم : حضر الموسم ، مفرّقا هذا المعنى عن معنى آخر نقله عن القدماء ، وهو عمل الشيء في الوقت المشتق منه الفعل ، نحو : هجّر ، ومسّى ، وغلّس ، وقد سبقت الإشارة إلى المعنى الثاني وردّ إلى المعنى الصرفيّ الأساسيّ. وما عدّه حضورا في الشيء لا يختلف عن هذا في شيء. وقد فرّق الكاتب بين هذا الأخير ومعنى قصد المكان الّذي جعله مستقلا ، نحو: كوّف ، فوّز ، غوّر ، مع أنّ معناهما الصرفيّ واحد يفارق الزمان والمكان ، وقد فرّق أيضا بين ما تقدّم وبين ما ذكره القدماء وعدّه هو معنى مستقلّا ، وهو الإتيان في الوقت المشتق منه الفعل ، كصبّح وغلّس[٥٣].

وذكر معنى الحينونة ، نحو : ظهّر ، أي حان الظهر ، وهو لا يختلف عن معنى هجّر وصبّح ، وغلّس في شيء ، وقد سبق توضيح الصيرورة فيه.

---

[٥٢] الحديث بتمامه في مسند الإمام أحمد بن حنبل(٢٤١هـ) ، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، عادل مرشد ، وآخرين ، مؤسسة الرسالة ، طبعة١ ، ٢٠٠١م ، ج٤٣/ ص١٤ حديث رقم ٢٥٨١٠.

[٥٣] انظر : هاشم طه شلاش ، أوزان الفعل ومعانيها ، ٨٣

بجميع ما تقدّم يعود إلى معنى الصيرورة إلى الزمن أو المكان ولا فائدة من تفريع المعاني وتكثيرها ، وهو ما أدّى إلى الخلط والتشويش فيما بينها.

ومن المعاني التي ذكرها ، معنى الاعتقاد ، نحو: وحّد ، وقدّس[٥٤] ، ومعناه الصرفيّ كما لا يخفى الجعل والصيرورة ، وذكر معنى القبول ، نحو: شفّعت في كذا ، كقول حاتم :

فككتَ عديا كلّها من إسارها   فَأفضِل وشفّعني بقيس بن جَحْدَر[٥٥]

ولا يخفى أن شفّعني : اجعلني شفيعا ، وما معنى القبول إلّا خلط للدلالة بالمعنى الصرفيّ ، وتكثير للمعاني .

وذكر معنى الحمل: حفّظه الكتاب : أي حمله على حفظه ، وكلّ ذلك يعود إلى الجعل والصيرورة .

فعّل والمعنى الصرفيّ الواحد :

تبيّن بعد استعراض معاني (فعّل) عند القدماء والمحدثين وجاهة ضبط معانيها إلى معنى صرفيّ واحد ، هو الجعل والصيرورة على مكث أو مهلة أو مبالغة ، وهو معناها الصرفيّ الحقيقيّ والرئيس من غير ما تعسّف ، إذ تبيّن أنّ تكثير المعاني يتجاوز معناها الصرفيّ إلى دلالات الأمثلة والاستعمالات وتشعيب المعنى إلى معان بلا طائل ، بل إنّه أدى إلى اختلاط المعاني وتداخلها اصطلاحا وتمثيلا.

---

[٥٤] انظر: السابق ٧٩

[٥٥] انظر: ديوان شعر حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره ، صنعة يحيى بن مدرك الطائي ، رواية هشام بن محمد الكلبي ، تحقيق: عادل سليمان جمال ، الطبعة ٢ ، ١٩٩٠م ، مكتبة الخانجي بالقاهرة ، ص ٢٠١

المعنى المذكور لم يغب عن القدماء والمحدثين نصّاً وإشارة ، غير أنّهم لم يجعلوها ذات معنىً واحد تعود سائر المعاني إليه ، بل عدّوه معنىً من المعاني ، ووضعوه جنباً إلى جنب مع سائر المعاني التي اشتقوا بعضها من بعض وكثّروها.

ومن عباراتهم التي أصابت شطر المهلة في المعنى قول ابن زنجلة : " (فعلت الشيء) على تمهّل "[56] ، وقول ابن خالويه :" فالحجّة لمن شدّد (يعني الفعل بلّغ) أنّه أراد تكرير الفعل ومداومته "[57] ، وقال الراغب الأصفهاني :"وقد أجّلته : جعلت له أجلاً "[58]

وقد جنح كثيرٌ منهم إلى اعتبار التكثير هو المعنى الرئيس لهذه الصيغة كما أشار غير واحدٍ منهم[59] ، وما أرى التكثير إلّا وجها من وجوه الجعل والصيرورة على مُكْث ومبالغة؛ لأنّ المعنى الأخير أرسخ في

---

[56] عبدالرحمن بن محمد بن زنجلة (٤٠٣هـ) ، حجة القراءات ، تحقيق : سعيد الأفغاني ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، الطبعة ٥ ، ١٩٩٧م ، ص ٢٧٩

[57] الحسين بن أحمد ابن خالويه (٣٧٠هـ) ، الحجة في القراءات السبع ، تحقيق : عبدالعال سالم مكرم ، دار الشروق ، بيروت ، الطبعة٣ ، ١٩٧٩م ، ١٥٧

[58] الراغب الأصفهاني ، المفردات ، ١٦٥ (أجل)

[59] انظر: سيبويه ، الكتاب ، ٤/٦٥ ، السيرافي ، شرح كتاب سيبويه ٤/٤٤٣ ؛ ابن جنّيّ ، المحتسب ، ١/٣٠١ ، موفق الدين يعيش بن علي ابن يعيش ، (٦٤٣هـ ، ١٢٤٥ م) ، شرح المفصّل ، ١٠ج ، عالم الكتب ، بيروت ، ج٧/ص١٥٩ ، مكي بن أبي طالب القيسيّ ، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، تحقيق : محيي الدين رمضان ، الطبعة ٤ ، ١٩٨٨م ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١/٤٣٦ ، ٢/١٩٦ ، ٢/٣٢٢.

الصيغة ، وما التكثير إلاّ أحد وجوهه . فالتمكّث والمهلة (وقد يكون هو ما عبر عنه القدماء بالمبالغة) قد يتوجّه إلى المبالغة النوعيّة ، وهي الاهتمام والحفاوة بإحداث الفعل على مهلة ، وقد يتوجّه إلى التكثير والتعديد لا سيّما في الأفعال الّتي يناسبها التكثير العدديّ أكثر من المبالغة النوعيّة.

وممّا يؤيّد ذلك أن التكثير ليس هو المعنى الغالب في أمثلة الصيغة ولكنّه محصور بأمثلة (أفعال) تحتمله ، وعدم عموم التكثير ومغالبة المبالغة النوعيّة له هو ما جعل أقوال القدماء تضطرب في بعض الشواهد بين التكثير والمبالغة . وهو الإشكال ذاته الّذي وقف عنده المحدَثون في مجمع اللغة العربيّة (القاهرة) وقرّروا قياسيّة (فعّل) للدلالة على التكثير والمبالغة ، في عبارة تسترضي الدلالتين وتزاوج بينهما ، مع إغفال جزء أساسيّ من المعنى الصرفيّ وهو الجعل والصيرورة [٦٠].

ولانحياز القدماء إلى معنى التكثير في (فعّل) فضّل سيبويه (غلّقت) على (أغلقت) التي جاءت في شاهد شعريّ فصيح هو قول الفرزدق:

ما زلت أفتحُ أبوابا وأغلقها حتى أتيت أبا عمرو بن عمّار[٦١]

ووجه تفضيل سيبويه (غلّقت) على (أغلقت) هو أنّ الأبواب جمع فيناسبها (غلّقت) لما فيها من التكثير على ما يرى. ومع ما تقدّم من سيبويه

---

(٦٠) انظر: خالد بن سعود العصيمي ، القرارات النحوية والتصريفيّة لمجمع اللغة العربيّة ، جمعا ودراسة وتقويما حتى عام ١٩٩٥م ، دار التدمرية ، السعودية ، دار ابن حزم ، بيروت ، الطبعة ١ ، ٢٠٠٣م ،ص ٦٢٧

(٦١) انظر : سيبويه ، الكتاب ٤/٦٥

إلا أنه لم يجد بدًا من وصف الثانية (أغلقت الأبواب) بأنه استعمال عربي جيد[٦١].

وفسّر الفارسي استجادة سيبويه للثاني بأنّ (أغلقت الأبواب) تحتمل التكثير كما يدلّ الفعل المخفف أحيانا على التكثير[٦٢]. ولو انطلقوا من معنى فعّل الصرفيّ الحقيقيّ ما وجدنا هذا الإلحاح على معنى التكثير. لأنّ معنى (غلّقت الأبواب) صرفيًا : جعلت الأبواب وصيّرتها مغلقة زيادةً على المهلة والمكث في التغليق التي يمكن أن نتوجّه إلى تكثير الأبواب ، أو إلى المبالغة في فعل المغلق ، وهو ما تنبّه له الأصفهاني في مفردات غريب القرآن[٦٤] في هذا الفعل ذاته ، حين ورد في الآية الكريمة ﴿وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ﴾ [يوسف ٢٣].

أما معنى (أغلقت الأبواب) : إي جعلت الأبواب وصيّرتها مغلقة ، بلا مهلة ومكث هنا ، وملمح الجمع فيها جاء من أنّ الأبواب جمع ، وهو الملمح نفسه الّذي لا تخلو منه العبارة السابقة ، وهو ما جعلهم يفضّلون(غلّقت) لتناسب التكثير في الجمع .

ومن الأمثلة التي استوقفت القدماء بين التكثير والمبالغة ، الفعل(نزّل) ، إذ ألمح سيبويه إلى أنّ نزّل وأنزل بمعنى واحد ، مشيرا إلى أنّ أبا عمرو يفرّق بينهما[٦٥]

---

(٦٢) انظر: سيبويه ، الكتاب ٤/٦٣

(٦٣) انظر: أبو علي الفارسي ، الحسن بن أحمد(٣٧٧هـ/٩٨٧م) ، التعليقة على كتاب سيبويه ، تحقيق : عوض بن حمد القوزي ، ط١ ، بلا ناشر ، ١٩٩٠م ، ج٤/ ص١٣٥

(٦٤) انظر: الراغب الأصفهاني ، المفردات ٦١٢ (غلق)

(٦٥) انظر : سيبويه ، الكتاب ٤/٦٣

وحين وقف الزمخشري على هذين الفعلين في قوله تعالى ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ [الأنعام٣] ، فسر استعمال (نزل) مع القرآن ، و (أنزل) مع التوراة والإنجيل بأن القرآن نزل منجما ، ونزل الكتابان جملة[٦٦]. وقال في موضع آخر :"لأن القرآن نزل مفرّقا منجّما في عشرين سنة بخلاف الكتب قبله+[٦٧] ، ونقل عن ابن عبّاس أنّه قرأ ﴿وقرآنا فرّقناه﴾ [الإسراء ١٠٦] بالتشديد ، وقال(أي ابن عبّاس) موجّها قراءته : " لم ينزل في يومين أو ثلاثة ، بل كان بين أوّله وآخره عشرون سنة+[٦٨].

وقد اعترض أبو حيّان على مذهب الزمخشري هذا ، وملخص اعتراضه أن التضعيف في (نزّلنا) للنقل ، والتضعيف هنا مرادف لهمزة النقل ، ثم عدّ أن قول الزمخشري أن نزّلنا دالّ على التنجيم مؤداه أن الزمخشري يرى أن التضعيف للتكثير. ثم ردّ أبو حيّان دلالة نزّل على التكثير بأن التكثير يأتي غالبا في الأفعال الّتي تكون قبل التضعيف متعدّية ، قال:" ونزّلنا لم يكن متعدّيا قبل التضعيف إنّما كان لازما ، وتعدّيه إنّما يفيده التضعيف أو الهمزة ، فيكون التعدي المستفاد من التضعيف دليلا على أنّه للنقل لا للتكثير+[٦٩] . ثم يقول أبو حيّان لو كان التضعيف في(نزّل) مفيدا للتنجيم

---

[٦٦] انظر : أبو القاسم محمود بن عمرو الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ ، ١١٤٣ م) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ٤ ج ، دار الكتاب العربي ، ط ٣ ، بيروت ، ١٤٠٣ هـ ، ج١/ص٣٣٦

[٦٧] الزمخشري ، الكشاف ١/٥٧٦

[٦٨] الزمخشري ، الكشاف ٢/٦٩٩

[٦٩] انظر : أبو حيّان الأندلسي ، البحر المحيط ١/ ١٦٧ ، ١٦٨

لامتناع قوله تعالى﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان ٣٢] إلى تأويل ؛ لأنّ التضعيف دالّ على التنجيم والتكثير ، وقوله جملة واحدة ينافي ذلك. ثم زاد حجة أخرى لتأييد التعدية في(نزّل) لا التكثير ، وهي أنّ القراءات بالوجهين تدلّ على أنّهما (أنزل ونزّل) بمعنى واحد .

والملاحظ أن أبا حيان ألزم الزمخشريّ بمعنى التكثير واعترض عليه ، ومعنى التكثير ليس لازما من قول الزمخشري بالتنجيم . فلا يخلو اعتراض أبي حيّان من التحامل ؛ لأنّه اعتبر التنجيم في عبارة الزمخشري تكثيرا ، ومن ثم فنّد معنى التكثير .

والتنجيم هو تفريق نزول القرآن في عشرين سنة كما ذكر الزمخشري ، وهو معنى إلى المهلة والمكث أقرب منه إلى قصد التكثير ، لأنّنا اذا افترضنا أن معنى نزّل الصرفي في الآيات المذكورة التكثير فمؤدّى ذلك تكرار فعل إنزال القرآن بجملته ، وهذا غير وارد ، فسياق الآيات يدل على أن المراد بالقرآن الكتاب بجملته في مقابل التوراة والإنجيل .

أمّا تنزيل أجزاء الكل وتفريقها حتى يكتمل فهذا ليس تكثيرا للفعل ، وإنما هو تأدية الفعل على مهلة ومكث. يؤيّد ذلك قوله تعالى ﴿ وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴾ [الإسراء ١٠٦].

هذا هو ظاهر تفسير الزمخشري وهو يتفق تماما مع معنى (فعّل) الصرفي الّذي يدور عليه هذا البحث.

وما ذكره أبو حيان من ردّ للتكثير في الفعل المذكور على وجاهته لا ينسلط على قول الزمخشري في الفعل.

وقد قصر أبو حيّان معنى فعّل (نزّل) هنا على الجَعْل والتصيير (النقل والتعدية على حسب عبارته) نافيا التكثير.

وحين النظر في هذه المسألة (التي تبدو خلافيّة) من جهة المعنى الصرفيّ لـ (فعّل) المقرّر في هذا البحث نجد أن الرأيين يتفقان ولا يتناقضان ، ويكمّل أحدهما الآخر؛ لأنّ مجموع ما ورد فيها من الزمخشري وأبي حيّان أن فعّل تفيد الجعل والتصيير(النقل والتعدية على حسب عبارة أبي حيّان) على مهلة ومكث (التنجيم الّذي ذكره الزمخشري).

وإذا ما ركنّا إلى معنى فعّل الصرفيّ (المقرر في هذا البحث) فإنّ الإشكالات المثارة في هذه المسألة تتلاشى.

غير أني أخالف أبا حيّان في عدم تفريقه بين نزّل وأنزل ، فهذا مذهب سيبويه من قبل ، وهو يصدق حين تكون نظرتنا للمعنى الصرفيّ جزئيّة وليست كليّة ، فأنزل ونزّل يتّفقان في التعدية (الجعل والتصيير) ولكنّهما يفترقان في المهلة والمكث الّتي في فعّل وليست في أفعل.

واستناد أبي حيّان الى القراءات التي جاءت بالوجهين على أفعل وفعّل[٧٠] في توحيد معناها لا يسلّم به؛ لأن كل قراءة على معنى.

والتكثير الّذي نفاه أبو حيّان ليس بلازم من قول الزمخشري كما ذكرت ، قال الألوسي : " ذكر بعض المحققين... أن التدريج (المهلة والمكث) ليس

---

(٧٠) انظر: أبو حيان الأندلسي ، البحر المحيط ، ٦٩/١٠.

هو التكثير بل الفعل شيئا فشيئا كما في تسلسل... فصيغة فعّل تدل عليه.. لكنه إذا قامت القرينة يُراد بالتدريج التنجيم+[71].

وعليه لا يكون قوله تعالى ﴿جملة واحدة﴾ محتاجا إلى تأويل لأنه لا يُحمَل(نزّل) على معنى التكثير فقط ، ولكنّه يُحمل على الاهتمام والحفاوة والمبالغة أيضا.

وخلاصة المسألة أن المبالغة(النوعيّة) والتكثير (العدديّ) مختلطان متداخلان في صيغة فعّل لأنهما أصلا وجهان للمهلة والمكث والتدرج الّذي فيها زيادة على الجعل والصيرورة ، لذلك فكلّ فعل يُصاغ على فعّل يصيبه معنى الجعل والصيرورة ، وهو معنى ملازم زيادةً على المكث والمُهلة في تأدية الفعل ، والقسم الثاني من المعنى إمّا أن يتجلّى بتكثير عدديّ ، إن كانت دلالة الفعل تحتمل ذلك ، أو بمبالغة نوعيّة ، وقد يحتمل الفعل الوجهين معا . فالفعل بتّك مثلا فيه مهلة وتدرّج تحتمل المبالغة النوعيّة ، غير أنّ التكثير العدديّ أولى به ، ومثله الفعل بذّر ، وفتّح ، وجرّح ومزّق ، وفجّر .

وثمّة أفعال متعديّة ولازمة تتجلى المهلة والمكث فيها بالمبالغة النوعية وليست العدديّة ، نحو: بشّر ، بلّغ ، جلّى ، سرّح ، سعّر ، كوّر ، بطّأ ، برّأ ، جهّز .

---

[71] شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى ١٢٧٠هـ) ، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ١٥ج ، تحقيق : علي عبد الباري عطية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، الطبعة١ ، ١٤١٥هـ ، ج١٠/ص٧٥.

وهناك أفعال يختلط فيها التكثير والمبالغة النوعيّة بشدة ، مثل: غلّق ، صرّف ، حمّل ، سيّر ، هدّم ، نقّب ، محّص ، كرّه .

فالمهلة والمكث هما الأصل في المعنى الصرفيّ مع الجعل والتصيير ، والتكثير فرعٌ عليها وتغالبه المبالغة النوعيّة (الحفاوة والاهتمام والتشديد) ، فلو كان التكثير هو المعنى الأساسيّ لشمل معظم أمثلة الصيغة ؛ ولكنّه واقع كما ذكر أبو حيّان في الأفعال الثلاثيّة المتعديّة إذا صيغت على فعّل ، بل لا يشملها كلّها ، وتزاحمه المبالغة النوعيّة في كثير منها ، يزاد على ذلك أنّ أغلب اللازم المُصاغ على فعّل هو للصيرورة والمبالغة النوعيّة (المهلة والتدرّج) .

ويُزاد على ذلك أيضا أنّ فعّل المشتقة من الأسماء مثل: جهّز ، رتّل ، شبّه ، غيّر ، وغيرها لا تفيد غالبا التكثير .

وبعد كل ما تقدّم أستطيع أن أخلص مطمئنا إلى أن التكثير ليس معنى صرفيّا أصيلا في فعّل ، ولكنّه وجه من وجوه المبالغة والمكث فيها ، يظهر في الأفعال الّتي يناسبها التكثير .

خلافا لفاضل السامرائي الّذي عكس المسألة فهو يرى أن التلبث والمكث واستغراق وقت أطول في صيغة فعّل إنّما هو من مقتضيات التكثير المبالغة[٧٢].

فاضل صالح السامرائي ، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني ، شركة العاتك لصناعة الكتب ، القاهرة ، الطبعة ١ ، ٢٠٠٦م ، ص ٥٨

ولو وقف القدماء على معنى فعّل الرئيس ووخدوء لما ثار ما ثار من اختلاف بين التكثير والمبالغة والتعدية (التي تقابل الجعل في هذا البحث). فحين استظهر أبو حيان على الزمخشري بقوله تعالى(لولا نُزّل القرآن عليه جملة واحدة) ، إذ كيف يجتمع التنجيم وجملة واحدة إن كان الزمخشري يريد التكثير ، وهو استشكال جيد لو لم تُفد نزّل إلاّ التكثير ، أمّا ومعناها الصرفيّ المهلة والتدرّج والمكث (المبالغة) زيادةً على الجعل فالخطب في التوجيه هيّن؛ لأنّ المبالغة نوعيّة فيها تدرّج وحفاوة واهتمام .

ومنهم من تمسّك بأن التضعيف في المثال السابق للتعدية احترازا من الاستشكال السابق ، ونفى ابن عاشور أن يجتمع في التضعيف التعدية والدلالة على تقوية الفعل ، قال : " وأمّا إذا صار التضعيف للتعدية (يعني في نزّل) فلا أومن أنه يدل على تقوية الفعل إلاّ أن يُقال: إنّ العدول من التعدية بالهمز إلى التعدية بالتضعيف لقصد ما عُهد بالتضعيف من تقوية معنى الفعل ، فيكون قوله : نزّل عليك الكتاب ، أهم من قوله: وأنزل التوراة والإنجيل للدلالة على عظم شأن نزول القرآن+[٧٣]

ويبدو لي أنّ في التفريق بين المبالغة (الاهتمام والتدرّج) والتعدية تعسُّفا يقود إلى مثل هذه النتائج التي تقرّ بالنتيجة ذاتها ولكن من طريق أبعد وأوعر.

وثمّة إشارات ترجيحية تدل على أصالة المبالغة دون التكثير في صيغة فعّل ، وذلك أن بعض الدراسات السامية قابلت بين فعّل وفاعل التي تدلّ

---

[٧٣] انظر : التحرير والتنوير ٣/١٤٧ ، ١٤٨

على المبالغة عند المرزباني ، زيادة على النص على معنى المضاعفة فيه

ولعل الإشارة الأولى مؤيدة بتعاور الصيغتين في بعض القراءات القرآنية .

نحو : ضعّفت وضاعفت[٥] ، إذ لا تختلف المبالغة عن الصيغتين.

وذكر بعضهم أن فاعل سببي[٦] ، وهو ذاته المعنى الذي ذكر في أفعل . وهي إشارة تؤكد معنى الجعل والصيرورة فيها.

---

(٤) انظر : سباتينو موسكاتي ، ... أولندورف ، أنطون شبيتلر ، فلرام فون زودن : مدخل إلى نحو اللغات السامية المقارن ، ترجمه وقدم له مهدي المخزومي ، عبد الجبار المطلبي ، عالم الكتب ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٩٣م ، ص ٢٠٢ ، هاشم طه شلاش ، أوزان الفعل ومعانيها ٢٦٣

(٥) انظر : محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) ، جامع البيان في تأويل القرآن (تفسير الطبري) ، (٢٤ج) تحقيق : أحمد محمد شاكر ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة ١ ، ٢٠٠٠م ، ج٥/ ص٣٦٧ ، مكي بن أبي طالب القيسي ، الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها ، تحقيق : محيي الدين رمضان ، الطبعة ... مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ج١ ص٣٠٠ ، ص٤٥١ .

(٦) انظر : ... مدخل إلى نحو اللغات السامية ٢٠٢

الأدوية الكيميائية المستعملة في الطبّ العربي

الدكتور عادل البكري

الملخص :

يتناول البحث الناحية الاكثر أهمية في المعالجات الدوائية عند الأطباء العرب وهي المعالجة بالمواد الكيميائية التي يلقى بعض الاطباء حرجا في استعمالها نظرا لسمية بعضها وتأثيرها السيء في جسم المريض .غير ان لهذه الادوية اهميتها في اعطاء النتائج بعد الاستعمال من قبل اكثر الأطباء بعد أن يتم اختبارها إختبارا علميا وتجربتها على الحيوانات للحصول على هذه النتائج الجيدة . ويتضح لنا أن الكثير من هذه المواد اعتمدتها شركات الادوية في العصر الحديث وهي تقر بصحة ما توصل اليه الاطباء العرب في استعمالها

المقدمــة :

الكيمياء من العلوم الطبيعية التي مارسها العرب وكرسوا جهودهم من أجل الاطلاع على أسرارها ووضع الاصول العلمية لها بالتجربة والاستقصاء لتكون علما له قواعده بين العلوم الاخرى . وكان أول من اشتغل بهذا العلم خالد بن يزيد المتوفى سنة ٩٠ هجرية . فقد جاء في طبقات الامم لصاعد الاندلسي (ص٦٣) أن خالد بن يزيد كان له في الكيمياء رسائل تدل على براعته فيها .

وقد اتفق الباحثون على ان الكيمياء هى علم عربى ، وأن الكلمة مشتقة من فعل (كمي يكمي) اي أخفى وستر ، ومنه قول الشاعر :

وانى لاكمي الناس ما أنا مضمر

مخافة ان يوشي بذلك كاشح

اي انه يخفي أسراره مخافة الوشاية وكانت الكيمياء تخفي أسرارها في تحويل المعادن الرخيصة الى الذهب وتسمى من أجل ذلك (علم الصنعة)، ويسمي الرازي أحد كتبه (كتاب الأسرار) والكتاب الآخر (سر الاسرار) وهذا مما يعزز القول ان اسم الكيمياء مشتق من فعل (كمي) بمعنى ستر واخفى ، أي اخفاء الصنعة [1]

ويذكر الخوارزمي في مفاتيح العلوم (الباب التاسع من المقالة الثانية) أن اسم صناعة الكيمياء عربي ويسمونها (الحكمة)[2].

ويُعتبر جابر بن حيان اشهر الكيميائيين العرب وهو الذي وضع أسسا وضوابط لعلم الكيمياء أصبحت فيما بعد منهجا قويما للعلوم التطبيقية . وجعل العمل التجريبي أساسا في دراسة الكيمياء وممارستها ، وهو جابر بن حيان بن عبد الله الكوفي المتوفى ببلدة طوس سنة ١٨٤ هجرية وله في الكيمياء مؤلفات نذكر فيما يأتي عنوانات بعضها :

---

(١) العلوم الطبيعية عند العرب – الدكتور ياسين خليل – بغداد ١٩٨٠ – ص ٢٠٠ .

(٢) مفاتيح العلوم – محمد بن احمد الخوارزمي – ادارة الطباعة الاميرية – القاهرة – ص ١١٩ .

١ - التصريف في الكيمياء : جاء ذكره في فهرست ابن النديم .

٢ - الخمائر : ذكره ابن النديم في الفهرست .

٣- الخواص الكبير : يوجد نسخة منه في مكتبة المتحف العراقي .

٤ - الرحمة في الكيمياء : نسخة منه في مكتبة باريس الوطنية .

٥- كيمياء المعادن : ذكره ابن النديم في الفهرست .

٦ - السموم ودفع مضارها : نسخة منه في مكتبة المتحف العراقي .

٧ - الزرابيخ : ذكره ابن النديم في الفهرست .

٨ - الملاغم : نسخة منه في مكتبة كليفلاند بامريكا ، وفيه يصف ملاغم الزئبق وصفاتها وخواصها .

وكان جابر بن حيان يصف عمله في كتاب الخواص بقوله (والله قد عملته بيدي وبعقلي من قبل ، وبحثتُ عنه حتى صحّ وامتحنته فما كذب) .

ومن اهم اعمال جابر انه حضرّ عددا من ملاغم الزئبق ووصفها وصفا متقنا في كتاب خاص الفه عنها هو كتاب (الملاغم) الذي ترجم الى اللغات الاوربية .

وحضّر نترات الفضة المتبلورة (حجر جهنم) $AgNO_3$ وكان أول من لاحظ حدوث راسب ابيض هو كلوريد الفضة عند اضافة محلول ملح الطعام الى نترات الفضة .

واكتشف طريقة الفحص النوعي للنحاس بتعريض المادة الى اللهب فيتغير لون اللهب عند وجود مركبات النحاس وهي طريقة الكشف عن أيون النحاس المنسوبة الى جابر التي لا تزال تستعمل حتى الآن في المختبرات .

وحضر حامض النتريك HNO_3 ووجد ان مزج هذا الحامض مع حامض الكلوردريك HCl يؤدي الى حدوث حامض جديد يذيب الذهب وقد سماه جابر (الماء الحاد) .

ولابد لنا ان نذكر عالما آخر من الكيميائيين العرب وهو ابو بكر الرازي احد كبار الاطباء السريريين وهو المسمى (جالينوس العرب) ومؤلف كتاب (الحاوي في الطب) الذي هو موسوعة طبية في التراث العربي . وكان قد ولد في مدينة (الري) سنة ٢٢٦ هجرية ونشأ فيها ونسب اليها .

وان ما اتصف به الرازي من علم وافر وفكر نيّر جعله اول واضع لخطة تصنيف المواد الكيميائية معتمدا في ذلك على معرفة الخواص الطبيعية للمركبات ، وكذلك تمييزه العناصر بالنسبة لخواصها وتفاعلاتها[٣]. كما ان الرازي يعتبر مؤسسا لعلم الكيمياء العلاجية [٤] .

وقد اعتمد الرازي في أعماله الكيميائية على عمليات فنية كالتقطير والتصعيد والتسامي والملغمة والتكليس والبلورة وغيرها وقد ذكرها في كتابه (سر الاسرار) وهو من اهم كتبه في الكيمياء . ويعتبر العلماء ان الرازي بزّ جابر بن حيان في وصف اجهزة التحضير في الكيمياء والعمليات الكيميائية وكان اكثر تنسيقا وتنظيما في عمليات الكيمياء[٥] . وكان يجري

---

[٣] اعلام العرب في الكيمياء - الدكتور فاضل الطائي - ص١٠٥ .

[٤] عيون الانباء في طبقات الاطباء - موفق الدين ابو العباس احمد بن القاسم بن خليفة الخزرجي ، المعروف بابن ابي اصيبعة - بيروت ١٩٥٦ - ج٢ ص٣٤٣

[٥] Holmyard. E.J, Alchemy Pelikan Books 1957, P 84

جدها في أجهزة مختبرية متقنة مثل البوتق والبوتقات وملاعق الاحتراق والأفران والكؤوس الزجاجية وما إلى ذلك وهي مذكورة في كتبه .

وقد حضّر الرازي حامض الكبريتيك H_2SO_4 وسماه زيت الزاج لأنه حضره من الزاج الأزرق وهو كبريتات النحاس المائية $CWSO_4 \cdot 5H_2O$ عند تسخين الزاج الأزرق تسخيناً شديداً فينتج غاز ثالث أوكسيد الكبريت SO_3 الذي يذاب في الماء فينتج حامض الكبريتيك (زيت الزاج)

$$SO_3 + H_2O \longrightarrow H_2SO_4$$

أقول إن ما نتناوله في بحثنا هذا ليس تاريخ الكيمياء أو تفصيل هذا العلم أو موضوعاته فهذه لها بحوث أخرى في مكان آخر ، وإن ما ذكرته قبل قليل لا يزيد عن مقدمة في علم الكيمياء ولكنني أتناول في الأسطر الآتية ذكر العناصر الكيميائية وكانوا يسمونها (الفلزات) وقد أخذنا نحن هذه التسمية عنهم ، فقد جاء في كتاب لباب الآداب للثعالبي (أن كل جوهر من جواهر الأرض كالذهب والفضة والنحاس والرصاص فهو فلز)[1] . وهذه العناصر هي ومركباتها استعمل الأطباء العرب ما ينفع منها بعد إجراء التجارب عليها في معالجة الأمراض التي تصيب الإنسان وهو ما يفعله الطب الحديث بعينه في أكثر من أصناف الأدوية التي تستعمل في الوقت الحاضر والتي تنتجها الشركات الأجنبية صانعة المواد الكيميائية . وقد استعمل الأطباء العرب هذه المواد في معالجة الخراجات والدمامل والجرب والحكة وداء الثعلب والثآليل والكسور واللثة والشري والرمد والقروح وأمراض جهاز

---

(1) لباب الآداب – أبو منصور بن [illegible] الثعالبي – بيروت ٢٠٠٠ – ص٢٣

المصدر والزمن اللولبة ، وكانوا يجرون التجربة والاختبار على الدواء ليتأكدوا من صلاحيته للمعالجة وهو ما فعله ابو بكر الرازي فكان يكرر القول في كتابه (الحاوي في الطب) : (جربت فوجدتُ) او ان يقول (جربته بنفسي ورأيت) .

وجرب الرازي اعطاء الزئبق شربا للقرد وكان يسكبه في حلقه فحدث للقرد الم شديد في بطنه وامعائه فصار يتلوى ويضرب بطنه بيديه ثم خرج الزئبق لانه هو لعدم امتصاصه وبهذه العملية اثبت خطأ نظرية جالينوس في ان الزئبق سم شديد السمية بل ان املاحه هي السامة .

ودفعت هذه التجربة الرازي الى تجربة اخرى ذكرها في كتابه (الحاوي) وهي اعطاء الزئبق شربا للمريض المصاب بانسداد الامعاء فهو بثقله يضغط على موضع الإنسداد ويدفعه الى الاسفل وتتفتح الامعاء .

ويذكر حنين بن اسحاق في رسالته ان الأدويه تمتحن لمعرفة قواها والتثبيت من أن الدواء خال من اي كيفية مكتسبة تؤثر في خواصه وبالتالي تؤثر في المرض .

وقد تعرف العرب على كثير من العناصر الدوائية الكيميائية واستخدموها في معالجة كثير من الامراض نذكر منها :

١ – الكبريت ومركباته :

عرف العرب عنصر الكبريت منذ قديم الزمان فهو مبذول في الطبيعة ويوجد حرا أو متحدا بغيره من العناصر ، كما يوجد في الينابيع المعدنية . يقول علي بن عباس المجوسي في كتابه (كامل الصناعة الطب) ان أجود أنواع الكبريت هو الأصفر ويعالج به الجرب والقوباء

تقشر الجلد اذا طلي به . اما ابن باجه في كتاب (النجربتين) فيقول ان الكبريت اذا خلط بادوية قروح الرأس جلاها وادملها ، واذا حُلّ بالزيت نفع من الجرب والحكة . ويقول داود الانطاكي في كتاب (التذكرة انه يقاوم السموم ويفيد في تقشر الجلد والسعفة (القرع) وداء الثعلب طلاء بالنطرون على الموضع المصاب .

اما الرازي فقد ذكر أن الكبريت يعطى في علاج النملة بعد خلطه مع النخالة[1] فهو يمنعها من ان تمتد وتتسع . والنملة اصطلاح طبي استعمله القدماء للدلالة على المرض الذي يدعى بالاكزيما (Eczima) في الوقت الحاضر .

وجاء في (فردوس الحكمة) للطبري ذكر وصفة تحتوي على الكبريت لعلاج الحكة وهي وصفه مسكنة وملطفة ومانعة للتعفن (والتعفن هو الالتهاب الجرثومي) وهي :

أفيون	جزء واحد
كبريت	جزآن
أسفيداج	٦ اجزاء

وقد اثبت الطب الحديث فعالية الكبريت في معالجة الجرب ومعالجة الأكنة (اي حب الشباب) والتهاب الاجربة المتقيح في الذقن والسيلان الدهني في الرأس والوجه والتهاب الاجفان وداء السمك I chthyosis وهو تقشر جلد المريض من الرأس الى القدم قشورا صلبة فيصبح مثل جلد السمكة وهو مرض نادر في الوقت الحاضر ، وكذلك الاكزيما المزمنة

---

[1] الحاوي في الطب ابو بكر الرازي ج ٢ ص ١٨٠

داء التصدف Psoriasis ويفيد استعماله في داء الفقاع Pemphigus ذرورا على الجلد .

اما استعمال الكبريت من الداخل فقد استعملوه ملينا ومسهلا وفي علاج التسمم بالرصاص والزئبق . كما استعمل كدواء مقشع Expectoront يساعد على تمييع القشع واخراجه . وهو مطهر للرئة ولاسيما في ذات القصبات المزمنة . ويقول داود الانطاكي إن الكبريت ينفع في السعال والربو والتخلص من القشع اذا اخذ مع البيض عن طريق الفم[٨] . وفي الوقت الحاضر تحتوي كثير من الوصفات التي تنتجها الشركات الدوائية لمعالجة امراض الجلد على الكبريت .

اما استعمال الكبريت ملينا فهو معروف قديما ، وقد ذكر الدكتور رمزي مفتاح أن الكبريت يستعمله العوام في مصر مع السكر كملين لأنه يحرض حركة الامعاء[٩] وجاء في عمدة المتطببين أن الكبريت يُعطى بشكل معجون مع العسل بمقدار عشرين جزء مع مقدار كاف من العسل عند تناوله [١٠].

وللكبريت استعمال مهم نصح به الاطباء العرب وهو لأجل القضاء على الحشرات والهوام كالبق والبراغيث[١١] ، وطريقة ذلك ان يذر مسحوق

---

[٨] تذكرة أولي الالباب – داود الانطاكي – ص١٤٤

[٩] احياء التذكرة – الدكتور رمزي مفتاح – ص٤٣٤ .

[١٠] عمدة المتطببين – ج٢ ص١٨٣

[١١] الحاوي في الطب – الرازي – ص٣٢٢ .

الكبريت فوق النار وتغلق ابواب الغرفة ونوافذها (عند انتشار الأوبئة) فينتج عند حرق الكبريت غاز ثاني اوكسيد الكبريت كما في المعادلة الآتية :

$$S + O_2 \longrightarrow SO_2$$

وهو غاز ثقيل حاد الرائحة له خواص في قتل الحشرات ومنع حدوث التعفن في الاماكن الموبوءة

ويتحد الكبريت في الطبيعة مع بعض المعادن كالخارصين والنحاس والذهب والفضة فتتكون من ذلك المرقشيتا (Marcasite) وهي البوريطس Pyrites[12] وقد ذكرها ابن البيطار وقال إن مرقشيتا اي معدن تشبه المعدن الذي نسبت اليه في لونه ولكنها يخالطها كبريت[13] . كما ذكرها ابن سينا وابن هبل وعلي بن عيسى الكحال وقالوا انها تفيد في تحليل الأورام .

ومن الاستعمالات الجيدة للكبريت الاستحمام بالمياه الكبريتية وهي ينابيع حارة عرفها العرب في بلاد الشام والعراق ووصفها الاطباء لمعالجة الامراض الجلدية والرثية (الروماتزم) . وقد تأكدت فوائد هذه المياه استحماما وشربا لما تحتويه من الكبريت الفعال ومن مركبات كبريتية كالهيدروجين الكبريتي الذي يطرح عن طريق جهاز التنفس عند شرب هذه المياه فيؤثر مطهرا للقصبات الرئوية ومضادا للتعفن (الالتهاب) ومقشعا وموسعا للقصبات من غير أن يكون له ضرر في الجسد . كما تؤثر هذه

---

[12] معجم الدكتور شرف - مادة Marcasite .

[13] الجامع لمفردات الادوية والاغذية - ج ٤ ص ١٥٢ .

الميناء بمقدرتها المشعة الفعالة Radio Activity التي تنفذ في أعماق الخلايا والأجواف الطبيعية فتنشط أنسجة الجسم كافة وتفيد المفاصل .

٢ - الزئبـق :

وهو من العناصر التي عرفها العرب منذ القديم وكانوا يطلقون عليه (الفرار) و (الابق) أي الذي يفرّ ويهرب ، و (الزاووق) للمعنى نفسه . وقال عنه عنترة العبسي في شعره وهو يصف نجوم الليل الصافية :

أراعي نجوم الليل وهي كأنها
قوارير فيها زئبق يترجرج

وقد استعمل الرازي الزئبق من الخارج في معالجة الجرب والتهاب الجلد الدمّلي كما استعمله لمكافحة القمل والصئبان ، واستعمل مركباته الكيمياوية في معالجة الجروح المتقرحة والمتعفنة ومنها (الزنجفر) Cingatre الذي يتصف بخاصيته القابضة للجروح ويساعد على انبات اللحم الجديد ، وهو يتكون من الزئبق والكبريت (كبريتيد الزئبق الاحمر) Hgs . وقد سمي بالزنجفر للونه الاحمر ويوجد في الطبيعة بشكل طبقات وعروق في الأراضي الصخرية . وهو مسحوق احمر لا ينحل في الماء . ويقول عنه البيروني إن الزئبق يزوج مع الكبريت في النار فينتج الزنجفر ، يعقد ويولد الحمرة التي تظهر عليه [١٤] .

---

[١٤] الجماهر في معرفة الجواهر - البيروني - ص ٢٣٠ .

وعلاج الغش بالصندل الزئبقي معروف بالطب منذ القديم ، ويوجد محاليل زئبقية بنسبة ١/٣٠٠٠ مطهرة وتستعمل لابادة قمل الرأس والطفيليات ، كما يدخل الزئبق في صنع لصقة فيزال Violol في الوقت الحاضر .

غير ان أحد مركبات الزئبق السامة هو (السليماني) وهو لا يزال يعرف بهذا الاسم في الوقت الحاضر وهو ثاني كلور الزئبق (كلوريد الزئبقيك) فهو يتركب من الكلور والزئبق ويحضر بتصعيد خليط من كبريتات الزئبقيك مع ملح الطعام وهو شديد السمية وقاتل للجراثيم إذ يؤخر نموها في المزارع المختبرية ولذلك فهو يعد من مضادات العفونة القوية جدا ولكن محلوله يستعمل لتطهير الايدي وقد ترك استعماله بسبب تخريشه الشديد .

وقد ذكر داود الانطاكي في كتابه (التذكرة) أن السليماني يدمل الجراح ويأكل اللحم الزائد الذي يعلو على الجرح ويسقط الخشكريشة Eschars وهي القشور المتيبسة التي تلتصق على الجروح والتقرحات ولكنه يوجع وجعا شديدا . غير ان أهم استعمال للسليماني ما ذكره هذا الطبيب (أي داود الانطاكي) (وهو من اطباء القرن السادس عشر) وهو استعماله في معالجة (الحب الافرنجي) كما يسميه وهو مرض الزهري الذي ظهر في تلك الايام . ويذكره الانطاكي بقوله (مرض عرف من اهل افرنجة اولا وانتقل حتى كثر ولم يذكره الأطباء السابقون) ثم يذكر وصفا لهذا المرض[١٥] .

---

(١٥) تذكرة اولي الالباب – داود الانطاكي ص ١٨٩

٣ – النحاس :

وهو عنصر قليل الانتشار في القشرة الأرضية وقد عرفه العرب واستعملوه وعرفوا عدداً من أملاحه ومركباته التي استعملت أدوية ناجحة عند الأطباء العرب في معالجة كثير من الأمراض وقد عرفوا عدداً من أملاحه ومركباته ومن أهمها (الزاج الأزرق) وهو كبريتات النحاس المائية $CUSO_4 . 5H_2O$ وهو بلورات كبيرة زرقاء طعمها معدني قابض وهي عديمة الرائحة وينحل قسم منها في ثلاثة أقسام من الماء ، وهي من معقمات العفونة الرخيصة لذلك تستعمل لتطهير المحلات والأماكن العامة وإذا وضع محلوله المكثف على الجلد فهو يسبب التخريش والألم . أما محاليله المختلفة فتعد قابضة ومطهرة وإذا أعطيت عن طريق الفم فهي مقيئة في حوادث الانسمام وكمطهر معوي في حالات الإسهال وقد قل استعمالها في الوقت الحاضر

وعند تسخين الزاج الأزرق تسخيناً شديداً ينتج عنه غاز ثالث أوكسيد الكبريت SO_3 الذي يذوب في الماء فينتج زيت الزاج وهو حامض الكبريتيك :

$$SO_3 + H_2O \longrightarrow H_2SO_4$$

كما أن كبريتات النحاس هذه يمكن تكوينها تم إضافة زيت الزاج المخفف إلى النحاس في الهواء .

[illegible] الأدوية – الدكتور [illegible] مطبعة الجامعة السورية – دمشق [illegible]
[illegible] الأول ص [illegible]

$$2CU + 2H_2SO_4 + O_2 \longrightarrow 2CUSO_4 + 2H_2O$$

وهي تمنع نمو الاشنات ولكنها لا تؤثر في الاحياء الراقية .

واستعمل الاطباء العرب مركبا آخر من مركبات النحاس هو (الدهنج) ويطلق عليه الكيميائيون (مالاشيت) Malachite ورمزه الكيميائي $CU_2(OH)_2CO_3$ وهو حجر اخضر ناعم الملمس ذكره الشاعر الشماخ بن ضرار المتوفى سنة ٦٤٣ في شعره بقوله :

تمشي مُنادلها انحسام وهبرزٌ

حسن البريق يلوح فيه الدهنج

و (هبرز) هو الدينار الذهب ، يقول انها تمشي كأنها السيف ولها بريق مثل الذهب ويلوح فيها شكل (الدهنج) الاخضر الناعم الملمس .

ويتكون الدهنج في الطبيعة من تعرض النحاس للماء والهواء بتأثير ثاني اوكسيد الكاربون . قال عبد التيفاشي في (أزهار الأفكار) ان اجوده المشبع الخضرة الشبيه اللون بالزمرد وانه يستعمل لمعالجة مرض السعفة[١١] (وهو داء القرع) . وقال ابن البيطار إنه اذا سحق وديف بالخل أفاد في معالجة القوباء (مرض جلدي)[١٢] . كما استعمله الاطباء لمعالجة الجروح المتعفنة . ويستعمل في الوقت الحاضر لمكافحة العصيات الكولونية في الامعاء . وعرف الاطباء العرب مركبا كيميائيا آخر من مركبات النحاس

---

[١١] ازهار الافكار في جواهر الاحجار - التيفاشي - ص١٦٣ .

[١٢] الجامع لمفردات الادوية والاغذية - ابن البيطار - الجزء الرابع - ص١٥٢ .

وهو (اسيتات النحاس) وهو الذي يطلق عليه (الزنجار) ويصف ابن سينا في كتابه (القانون) عدة طرق لتحضير هذا المركب منها رش برادة النحاس بالخل ودفنه في محل رطب ، او كب آنية نحاسية على آنية فيها خل .

ويقول علي بن عيسى الكحال[19] إنه محلل ينقص اللحم الزائد وينفع في معالجة الجرب .

ويقول عنه ابن البيطار انه يحلل وينقص اللحم الزائد في الجروح ، يأكله ويذيبه ، ولكنه من السموم اذا شرب لأنه يضر الكبد والمعدة .

٤ – **الخارصين (الزنك) :**

استعمل الأطباء العرب عددا من مركبات هذا العنصر وقد وصفه البيروني بقوله : (الخارصين عندما يذوب يشبه الرصاص الا انه ينكسر كالزجاج ولا يقبل طرقا ولا لتا)[20]

ومن مركباته (الاقليميا) وهي اوكسيد الزنك Zinc Oxide وقد اقتبس الاوربيون هذه التسمية فقالوا Cadmia وهي مسحوق ابيض خفيف لا رائحة له ، وطعمه ترابي ، لا ينحل في الماء ولكنه ينحل في الحوامض المخففة[21] .

---

[19] طبيب اشتهر بطب العيون في بغداد وهو مؤلف كتاب (تذكرة الكحالين) وهو افضل كتاب في طب العيون وكانت وفاته سنة ٤٠٠ هـ .

[20] الجماهر في معرفة الجواهر – البيروني – ص٢٦٢ .

[21] علم الادوية – الدكتور حيدر – مصدر سابق .

وتستعمل الاقليميا إما مسحوقا ممزوجا مع غيرها من الادوية او تستعمل مرهما مضادا للحكة والوذح (احمرار الجلد التحسسي) والنملة (الاكزيما) . اما من الداخل فتستعمل مضادا للتشنج والمغص . وكان الرازي يصف الاقليميا مع بعض المسكنات لمعالجة البواسير وتشقق المخرج[٢٢] ، ويصفها غيره في وصفات مماثلة . وقد انتج معمل ادوية سامراء دواء يتركب من الاقليميا وزيت الخروع بنسبة 50/7 لمعالجة التسلخات الجلدية عند الاطفال والطفح الجلدي . وقد وصفناه نحن اطباء الامراض الجلدية في عياداتنا فوجدنا الدواء قد اتى بنتائج باهرة .

والاقليميا كما يقول كوهين العطار[٢٣] (هي خبث كل جسد ذائب) فهي الشوائب المتحجرة التي تطفو على المعادن الذائبة عند صهرها وتحتوي على اكاسيد المعدن ولاسيما اوكسيد الزنك ، وهي تتكون في الطبيعة في بعض المناطق كما يمكن الحصول عليها من أفران الصهر أي الأتاتين (ومفردها آتون) .

ويقول الرازي في الحاوي ان الاقليميا تتكون من بخار ما يرتفع في الاتون . ووصفها ابن البيطار بانها مادة قابضة تملأ الجروح المتعفنة وتنقص اللحم الزائد وتدخل في تركيب المراهم الذرورات التي تدمل القروح والجراحات كما وصفها علي بن عيسى الكحال لمعالجة امراض العيون فقال

---

[٢٢] الحاوي في الطب – ابو بكر الرازي – ج١١ ص٣٠ .

[٢٣] منهاج الدكان ودستور الاعيان – كوهين العطار – ص٢٦٢ .

ي الاقليميا مجففة ومقبضة وجلاء وهي معتدلة بالحرارة والبرودة وتنفع في معالجة القروح التي في العين وتملاؤها[٢٤] .

ومن مركبات الخارصين الاخرى القلامين او القلميا وهي كاربونات الزنك Zinc Carbonate وتسمى ايضا حجر التوتيا لوجودها في الطبيعة غير نقية ، وتدعى في اللغات الاوربية (كالامين) Calamine وهي مادة تبدو بعد سحقها بلون رمادي مصفر وتستعمل مجففة وعدية في معالجة الجروح الواهنة والحروق والحكة والحساسية الجلدية وتخلط مع الكبريت لمعالجة (الغدّ) اي حب الشباب .

ومن مركبات الخارصين الاخرى الزاج الابيض او (الشب اليماني) وهو كبريتات الزنك ويكون بشكل بلورات مربعة الزوايا ذات طعم قابض ، تستعمل محاليلها المخففة قاطعة للنزيف ومزيلة لاحتقان العين ولذلك صنعت محليا (قطرة الزنك) لاحتقان العين ، كما استعمل الاطباء العرب الشب اليماني مع ادوية اخرى لمعالجة الانزفة .

٥ – الانتيمـــون :

الانتيمون عنصر متبلور ابيض كالفضة وله خواص الفلزات واللافلزات يتحد مع بعض العناصر ومن اهمها الكبريت فيتكون كبريتيد الانتيمون وهو الاثمد ، وهو حجر اسود لماع مائل الى الزرقة يتخذ منه الكحل لغرض الزينة ولصحة العين ايضا ويتكون الاثمد في الطبيعة من اتحاد الكبريت بالانتيمون بشكل مركب كيميائي عرفه العرب وأطلقوا عليه

تذكرة الكحالين – علي بن عيسى الكحال –٣٧٥ .

الستيبيم وهو الكحل (عربية قديمة جاء منها اسم ستيبيوم Stibiwm)
ويقول علي بن العباس المجوسي (الاثمد اجوده ما كان نقيا ويلمع اذا كسرته وهو بارد وهو قابض . يبعع من الحرارة والرطوبة التي في العين اذا اكتحل به وينشف الدمعة وينقي قروح العين وينفع في الحروق التي في الجلد اذا طلي مع الشحم)[٢٥] .

ويقول ابن البيطار (الاثمد حجر اسود صلب براق كحلي اللون واجوده ما يكون اذا فتت كان لفتاته بريق ولمع وكان ذا صفائح . أما داخله فأملس سريع التفتت)[٢٦] ويقول علي بن هبل (الاثمد هو الكحل وهو حجر معدني اجوده الصفائحي السريع التفتت الخالص من الشوائب وطبعه بارد ... يحفظ صحة العين وينشف قروحها ويقوي الاجفان ويدمل القروح ، وهو مع الشحم الطري ينفع من حرق النار و قروح المخرج)[٢٧] .
واستعمال الكحل عادة قديمة عند العرب وقد كنّوا به سواد الليل فقال الشاعر ابو عمر :

كميش الإزار يجعل الليل اثمدا

ويغدو علينا مشرقا غير واجم

---

[٢٥] كامل الصناعة الطبية – علي بن عباس المجوسي – ج٢ ص١٣١ .
[٢٦] الجامع لمفردات الادوية والاغذية – ابن البيطار – مادة اثمد .
[٢٧] المختارات في الطب – علي بن هبل – ج٢ ص٢٤ .

٤ - الحديد :

عنصر معروف كثير الانتشار استعمل الاطباء العرب القدماء بعض مركباته لعلاج الامراض ، منها (القلقند) ، وهو (الزاج الاخضر) وهو كبريتات الحديدوز المائية ويكون بشكل ملح اخضر اللون متبلور يذوب بالماء ، قال عنه كوهين العطار في كتابه (منهاج الدكان) إنه يشبه زنجار النحاس في خضرته .

وقال علي بن عيسى الكحال في (التذكرة) إنه مقبض ومجفف للحم الرطب الذي يرتفع فوق الجرح . وقال علي بن عباس المجوسي في كتابه (كامل الصناعة الطبية) انه يقبض قبضا شديدا مع حرارة قوية ويجفف اللحم ووصفوه مخلوطا مع الشحم لمعالجة الامراض الجلدية المزمنة والقروح ومسامير القدم . ووصفه داود الانطاكي غرغرة لتأثيره القابض لاغشية الفم .

ومن مركبات الحديد الكيميائية ايضا (الشاذنج) او (حجر الدم) وقد ذكره البيروني وسماه (الشاذنة) وهو بيروكسيد الحديد او الاوكسيد الاحمر ، وهو احد خامات الحديد ذات اللون الاحمر ويحتوي على ٧٠% منه حديد والباقي اوكسجين مما يتفق مع الصيغة الكيميائية Fe_2O_3 . وهو يوجد في الطبيعة بشكل كتل سهلة التفتت وهو اشد قبضا من الاكاسيد الحديدية . ونظرا لخاصيته المقبضة للاوعية الدموية فقد استعملوه لمعالجة احتقان العيون والرمد . ويعرف هذا الدواء في بغداد باسم (الكثلي) وفي الموصل باسم (صبغ حديد) ، وفضلا عن ذلك فهو يستعمل لقطع النزيف في اي موضع كان في الجسم كما يقول داود الانطاكي ، ويستعمل ايضا

لمعالجة الاسهال والزحير[٢٨] . وكان استعمالهم غالبا للحديد في اشكاله المعدنية ، فقد استعملوا توبال الحديد او برادته (والتوبال هو ما يتساقط من الحديد عند الطرق) ، كما استعملوا خبث الحديد وهو ما يتخلف منه عند الصهر ، واستعملوا الماء الذي يطفأ فيه الحديد المحمى (وتتساقط فيه عادة ذرات منفصلة من الحديد المنتهب) ، كما استعملوا زنجار الحديد وهو اوكسيد الحديد كمادة كاوية لكي الثاميل والقروح وقد استعمله الرازي مخلوطا مع الخلّ لكي البثور والداحس[٢٩] ونقلها عنه ابن البيطار في (جامع المفردات) .

اما استعمال برادة الحديد دواء ، فالذي أعتقده أن برادة الحديد تتفاعل مع حامض الكلوردريك الذي في المعدة وتتحول الى كلور الحديد

$$Fe + 2Hcl \longrightarrow Fecl_2 + H_2$$

ثم تتحول في الامعاء الى اوكسيد الحديد وتصبح في الدم بشكل البومينات الحديد ليستفيد منها الجسم بالقدر الذي يحتاجه ويطرح الباقي من الكبد والامعاء .

٧- **الرصاص** :

وعرف الاطباء العرب اكاسيد الرصاص الموجودة في الطبيعة وقد حصلوا عليها بحرق الرصاص فيتكون منها الاسرنج والمرداسنج Litharge .

---

[٢٨] تذكرة اولي الالباب – الانطاكي – ص١٩٠.

[٢٩] الحاوي في الطب – ج٢٠ ص٢٤٢

اما الاسرنج فهو السليقون او الزرقون ويسمى بلغة الموصل (الزغيقون) وتستعمله الامهات هناك في معالجة التسميط وتسلخ الجلد عند الاطفال بعد خلطه بدهن الآسى ، ورمزه الكيميائي Pb_3O_4 وقد ذكره كوهين العطار في (منهاج الدكان) .

واما المرداسنج فهو (المرتك) وهو صبغ أصفر رمزه الكيميائي (Pbo) وله استعمالات طبية[٣٠] وقد ذكره الانطاكي في تذكرة اولي الالباب .

واستعمل العرب قديما كاربونات الرصاص القاعدية وهو (الاسفيداج) وهو مسحوق ابيض لاينحل في الماء وكانوا يحضرونه من تفاعل الرصاص مع الخل المركز وذلك بوضع الرصاص على فم خابية (وهي اناء خزفي كبير) فيها خل ثقيف (مركّز) ويغطى ببارية (حصيرة قصب) فاذا ذاب الرصاص اخذ وعزل وجفف وسحق ويكون في اول الامر خلات الرصاص ثم يتحول الى كاربونات الرصاص[٣١] وكان ابن سينا يسميه (رماد الرصاص) ويقول انه يلين الاورام الباردة والصلبة اذا وضع عليها ويدخل في المراهم لمعالجة التقرحات وفي ادوية تشقق المخرج وينفع فيه كثيرا [٣٢] .

ويدرس الرازي الاسفيداج دراسة عملية فيذكر فوائده في معالجة امراض الجلد ويخلطه مع الاقليميا (اوكسيد الزنك) وبعض الدهون

---

[٣٠] تاريخ الصيدلة والعقاقير – الاب شحاته قنواتي – ص١٤٤

[٣١] دائرة معارف البستاني – مادة اسفيداج .

[٣٢] القانون في الطب – ابن سينا – باب الادوية المفردة .

الملطفة لمعالجة البواسير [٣٣] . ويضيف الرازي ان الاسفيداج بسبب حالة سمية لمن يأخذ عن طريق الفم فيسبب السعال والفواق وبرودة الاطراف وانعدام الحركة .

ويذكر كوهين العطار في منهاج الدكان مرهم الاسفيداج المركب من دهن البنفسج والشمع الابيض مع الاسفيداج المغسول ويقول انه يفيد في الحروق والحمرة (أي التهاب الجلد الاحمراري) والبثور ، هذا اضافة الى استعمال الاسفيداج للزينة عند النساء .

٨ – **الكالسيوم :**

وهو من العناصر الكيميائية المهمة التي استعمل الاطباء العرب مركباتها منذ القديم في المعالجة ويمتاز الكالسيوم بكثرة مركباته المنتشرة في الطبيعة . ومن اهم مركبات الكالسيوم الجبسين والنورة . فالجبسين هو كبريتات الكالسيوم $CaSo_4 . 2H_2O$ وقد ذكره الرازي بقوله (الجبسين له قوة راسخة لازقة وذلك انه يتحجر على المكان ويتصلب اذا نفع ، ولذلك قد يخلط مع الادوية اليابسة الملائمة لنزف الدم فانه وحده اذا جمد كان صلبا حجريا)[٣٤] .

ويذكره ابن هبل بقوله (الجبسين هو حجر الجص ، اجوده اليابس الازرق وهو قابض مجفف . اما اذا أحرق زاد لصقا وتجفيفا ، وهو غاية في قطع الرعاف طلاء على الجبهة)[٣٥] . غير انه ليس له مثل هذا الاستعمال

---

(٣٣) الحاوي في الطب – الرازي ج٢ ص٢٥٣ .

(٣٤) الحاوي في الطب ج٢ ص٢٣٢

(٣٥) المختارات في الطب ابن هبل

في الوقت الحاضر لان الكالسيوم لا يمكن امتصاصه من الجلد اما النورة فهي اوكسيد الكالسيوم Cao وهي توجد بحالتين هما النورة الحية او الكلس الحي (قبل اضافة الماء اليه) ، والنورة المطفأة او الكلس المطفأ وهو هيدروكسيد الكالسيوم $Ca(OH_2)$ الذي يصبح كذلك بعد اضافة الماء كما يأتي :

$$Ca + H_2O \longrightarrow Ca(OH)_2$$

ونظرا لشدة ميل الكلس الحي للماء فانه يجفف المكان الذي يوضع عليه ويسبب الما وحرقا للجلد الذي يوضع عليه ولهذا يعتبر من الادوية الكاوية . وقد استعمله اولئك الاطباء لمعالجة اللحم الزائد الذي يراد استئصاله[٣٦] . وقد استعمله علي بن عباس المجوسي في وصفه لعلاج الثآليل ومسامير القدم[٣٧] . وبمثل ذلك ذكره ابن البيطار في كتابه الجامع . وقد ادخل كوهين العطار النورة المطفأة في مرهم سماه (مرهم النورة) يحتوي على السليقون والشمع الابيض[٣٨] .

٩ – عناصر اخرى استعملت أدوية كيميائية :

من هذه العناصر (المغنيسيوم) ومن مركباته (سيليكات المغنيسيوم المائية) Mg_3Si_4 Olo $(OH)_2$ وهو مسحوق أبيض دهني الملمس لا ينحل في الماء وهو (الطلق) وهي تسمية عربية اقتبسها الأوربيون فقالوا (تالك TALK) . وقد أكد ذلك الاب انستاس ماري الكرملي

---

[٣٦] اصول تركيب الادوية – السمرقندي – ص١٠٩ .

[٣٧] كامل الصناعة الطبية – ج٢ ص٢٠٢

[٣٨] منهاج الدكان – ص١٥٠ .

عندما قام بتحقيق كتاب (نخب الذخائر) لابن الاكفاني فقال ان الغربيين إستعاروا كلمة الطلق من العربية وجعلوها تالك ، وسماها الاسبان TALKO ، وقد اعترفوا جميعهم باقتباسهم هذه الكلمة العربية . وقد سماه داود الانطاكي (عروق العروس)[٣٩] .

ومن صفات (الطلق) ايضا انه مسحوق خفيف له رائحة ترابية وليس له طعم خاص وهو من الادوية الحافظة التي تستعمل من الخارج ذرورا على الجلد لتلطيفه وتبريده في حالة الاحمرار والتسلخ الجلدي (التسميط) . ونظرا لهذه الخواص فهو يدخل في تركيب المساحيق المستعملة في الزينة وفي (بودرة الاطفال) كما ان من خواصه ايضا انه يمتص رطوبة الجلد ، فيمزج مع ادوية اخرى في المراهم المستعملة لمعالجة النملة (الاكزيما) ويستعمل من الداخل مضادا للاسهال .

ومما يجب ذكره ان الاشارة الى استعمال الطلق كدواء مضاد للاسهال وردت في بعض المصادر الطبية العربية كتذكرة اولي الالباب فقد جاء فيها ان الطلق (يجفف القروح ويذهب الحكة والجرب ويحبس الدم والاسهال)[٤٠] ، وهي معالجة اقرها الطب الحديث واثبتها في مصادره الطبية التدريسية[٤١] .

ومن المواد الاخرى المستعملة في المعالجة (الزرنيخ) ويوجد على شكلين الابيض والاصفر ، والثاني منهما هو التجاري ، ومنه تصنع عجينة

---

[٣٩] تذكرة اولي الالباب – ٢١٣ .

[٤٠] المصدر السابق .

[٤١] علم الادوية – الدكتور عزة مريدن – ج ١ ص ١٤١ .

سم الفار او لقتل الذباب ويقول الرازي في هذا المجال (الزرنيخ الاصفر منى الفي في لبن ووضع وسط البيت قتل الذباب)[42] . وكذلك لقتل القمل والصوأب بخلطه مع البورق والزيت ويطلى به الرأس[43] كما وصفه كاويا في أكلة الانف بعد خلطه بدهن الورد[44] ، ومعالجة اللحم الزائد بعد خلطه بالنشادر والنورة[45] .

اما من الداخل فقد استعملوه بحذر لسميته الشديدة رغم فوائده الطبية ، وخير استعمال له هو ما وصفه الرازي لمعالجة الزحار (وهو الزحار الاميبي)[46] . وقد ذكره في هذه الطريقة من المعالجة ضمن وصفة تحتوي على الطباشير والعفص (وهي مواد قابضة) والافيون (وهو مسكن للألم) والصمغ العربي (وهو مادة مثبتة تعطي الدواء شكله الصيدلاني) . وهي وصفة يقرها الطب الحديث بدليل انتاج مصانع الادوية في الوقت الحاضر حبوبا لمعالجة الزحار الاميبي تحتوي على الزرنيخ وهي Stovorsol وهو دواء فعال لتطهير الامعاء والقضاء على الزحار الاميبي واللامبليا ايضا ويحتمله المريض دون أن يترك اعراضا سيئة جانبية في الجسم أو اثر ما . وحبوب (الستوفارسول) متوفرة في الصيدليات حاليا .

---

(42) الحاوي في الطب – ج١٩ ص٣٢١ .

(43) الجامع لابن البيطار – ج٢ ص١٦٠ .

(44) المختارات في الطب – ج٢ ص٧٧ .

(45) اصول تركيب الادوية – السمرقندي – ص١٠٩ .

(46) الحاوي في الطب – ج٨ ص٩٦ .

وعنصر آخر نذكره هنا وهو الالمنيوم . ومن اهم مركباته الكيميائية (الشب) Alumin وهو كبريتات البوتاسيوم والالمنيوم $K_2SO_4 . Al_2 (So4)_3 . 24 H_2O$ وهو بلورات كبيرة شفافة طعمها قابض تعمل على تقليص انسجة الجسم والاوعية الدموية لذلك يستعمل الشب قاطعا للنزيف وقابضا في امراض الفم واللعوم الحادة ولمعالجة البواسير النازفة .

ويقول عنه ابن هبل (الشب قابض فيه حموضة وفيه تجفيف ويقطع النزف والسيلانات ، وطبيخه - كذا - مضمضة نافع من وجع الاسنان ويشدها ويقويها ، وهو جيد لصنان الابط)[٤٧] .

ويقول ابن البيطار (الشب يقطع النزيف ويشد اللثة التي يسيل منها اللعاب ، واذا خلط بالخل والعسل اثبت الاسنان المتحركة ، كما يستعمل لتقليل التعرق تحت الابط وقطع الرائحة فيها)[٤٨] . وينقل ابن البيطار عن الرازي قوله : (يقول الرازي في خواص الشب : اذا طرح الشب في الماء الكدر والنبيذ صفاه وروّقه في اقرب وقت)[٤٩] .

ومن خواص الشب انه اذا سخن على النار ذاب وفقد ماء التبلور واصبح بعد ذلك كتلة بيضاء لها خاصية جذب الماء من الانسجة المجاورة لها . لذلك يستعمل الشب المحروق في كيّ الناميات اللحمية والتآكيل والاغشية الكاذبة والظفر الناشر .

---

[٤٧] المختارات في الطب - علي بن هبل ج٢ ص١٨٤ .

[٤٨] الجامع لمفردات الادوية والاغذية - مادة الشب .

[٤٩] المصدر نفسه .

ومن المواد الكيميائية ايضا (البورق) Borax وهو ثاني بورات الصوديوم ويوجد في الطبيعة بشكل ملح بلوري لا لون له ولا رائحة . وقد اقتبس الاوربيون كلمة (بورق) العربية فقالوا (بوراكس) Borax .

ذكر الرازي البورق وقال انه يفيد في الحكة والرطوبات المتقيحة في الجلد ، كما وصفه لمعالجة التسمم بالفطر[٥٠] ووصفه ابن هبل للحكة والجرب وقطورا في الاذن وقال ان أجوده الخفيف الصفائحي الابيض الهش[٥١] .

اما علي بن المجوسي فقد وصفه تمريخا للبدن في الحميات قبل حدوث نوبة الحمى[٥٢] كما ذكره منصور احمد الطبيب في كتابه (عمدة المتطببين) بوصفة لمعالجة التهاب الفم عند الاطفال تتكون من البورق وشراب السكر بأجزاء متساوية ، وذكر وصفة اخرى لمرهم البورق تتكون من البورق والشحم لمعالجة الامراض الجلدية . وهو يستعمل في الوقت الحاضر لمعالجة التهابات الفم والبلعوم ، وتصنعه بعض الشركات مع مواد مسكنة للألم في التهاب اللوزتين واللثة .

ومن الادوية الكيميائية الاخرى النشادر والقلي وهي مواد ذات تفاعل قاعدي (قلوي) فهي تغير ورق عباد الشمس الأحمر الى الازرق وتتفاعل مع الحوامض مكونه مركبات متعادلة فالنشادر هو ملح الامونيا وهو كلوريدات الامونيوم . اما القلي فهو رماد الاشنان الذي يحتوي على كاربونات

---

[٥٠] الحاوي في الطب – ج٢٠ ص١٣٤ .

[٥١] المختارات في الطب – ج٢ ص٤٣ .

[٥٢] كامل الصناعة الطبيه – ج٢ ص١٣٢ .

البوتاسيوم K_2CO_3 وقد نقل الاوربيون كلمة (القلي) الى لغاتهم فسموه Alkali واستعملوه في بلادهم . ويقول ابن البيطار إن (قلي) هو قلي الصباغين والزجاجين . ويقول السمرقندي ان هذه المواد هي كاوية وتستعمل لازالة الناميات اللحمية وتجفف القروح القديمة بتطبيقها على الجلد[٥٣] .

ويقول علي بن المجوسي ان القلي حار يابس حاد يأكل اللحم الزائد .

واستعمل الاطباء في العصر العباسي أحد مركبات المغنيسيوم (المغنزيوم والمانيزيا) لمعالجة امراض المعدة وهو (الطين النيسابوري) وقد سبق ان ذكرنا مركبا اخر للمغنسيوم وهو (الطلق) الذي هو دواء متداول ومعروف . اما الطين النيسابوري فلم يعرفه الاطباء الا بشكله الطبيعي ومن خلال نوع من أنواع الطين يوجد في نيسابور وقد دعاه الرازي (الطين المتنقل به)[٥٤] . وهو طين ابيض اللون لين اللمس يلطخ الفم من شدة لينه ذو طعم طيب فيه شيء من الملوحة ويؤكل نيئا ومشويا . وقد ثبتت فائدته في معالجة حموضة المعدة وآلامها ومعالجة القيء وذلك لوجود كاربونات المانيزيا بكمية كبيرة والومينات المانيزيا بكمية اكبر[٥٥] .

---

[٥٣] اصول تركيب الادوية .. السمرقندي — ص١٠٩ .

[٥٤] كتب عنه ابو بكر الرازي كتابا هو (للطين المتنقل به منافع) وهو الطين الذي يؤكل مثل (النقول التي تؤكل) وليس الطين الذي ينتقل به من مكان الى آخر كما يبدو . وقد ذكره ابن ابي اصيبعة في طبقات

[٥٥] ابحاث الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب — حلب ٩٧٧ — ص٧٨٧ وفيه اشارة الى التحليل المختبري الذي يؤكد وجود مركبات المغنيزيوم في هذا الطين .

وكاربونات المايتزيا لها صفة قلوية تساعد على تعديل حموضة المعدة وتخفيف آلامها . ونظرا لما يتصاعد منها من غاز الكاربونيك اثناء التفاعل فانها تعمل مضادة للقيء

اما الومينات المايتزيا فانها تعتبر افضل دواء ضد الحموضة وانتفاخ البطن ، وان الدواء المسمى Riopan ليس غير الومينات المايتزيا ويعتبر اليوم افضل دواء مضاد للحموضة .

وللرازي حديث طويل عن هذا الدواء فقال في (كتاب الطين) انه يشد فم المعدة وينفع من الغثي (الغثيان اي رغبة المريض ان يتقيأ) والهيضة (المغص والاسهال) وينفع من يتقيأ دائما ومن هو رهل المعدة . ويقول انه خلص به رجلا مصابا بهيضة صعبة شديدة وبكثرة القيء والتشنج ، وقد اشرف على الهلاك فوصف له ادوية واشربة واغذية وما يسكن الغثي فلم يفده شيئا ففزع الى هذا الدواء كما يقول ، فسحق من هذا الطين مقدار ٣٥ درهما ، اي حوالي ١٠٠ غرام ، وسقاه اياها في ثلاث مرات : مرتين بماء التفاح ومرة بطبيخ السعد فسكن عنده الغثي والضيق بسرعة .

كما وصفه في مرات اخرى لمصابين بامراض المعدة والمصابين بالغثي والضيق بعد الطعام واشار على من يعتريه ذلك ان يتناول منه شيئا قليلا بعد طعامه فتسكن هذه الاعراض .

وقال ايضا في كتابه المسمى (دفع مضار الاغذية) ان هذا الدواء يسكن القيء ويذهب بوخامة الاطعمة اذا اخذ منه بعد الطعام شيء يسير .

ولا يفوتنا ان نقول ان هذا الطين له مضادات استطباب Contra – inolication تؤدي الى نتائج سيئة .

وقد نبه الرازي نفسه الى ذلك فقال في كتابه هذا (ينبغي ان يجتنب هذا الطين اصحاب الاكباد الضيقة المجاري ومن يتولد الحصى في كليته) كما اشترط ان يؤخذ بكميات قليلة دون الاكثار منه .

وفي الوقت الحاضر تعطى وصفة طبية تحتوي على كاربونات المغنسيوم وهي المادة الفعالة الموجودة في الطين النيسابوري لمعالجة قرحة المعدة(٥٦) .

---

(٥٦) The P. Presecriler anol Guide to Presecription Writing – Alistoir G. Cruikahank – London 1956

الخاتمة

هذا ما استطعنا ذكره من عناصر ومركبات كيميائية استعملها الاطباء العرب في العصر العباسي ، عصر الحضارة العربية ، لمعالجة الامراض المختلفة وقد وضعوا فيها الكتب الطبية المفصلة ، فكان عملهم انجازا علميا باهرا في مجال الطب والصيدلة ، وكان عملهم على اقل تقدير محاولات ناجحة اخذ بها الاوربيون واعتمدوا على قسم كبير منها في المجال الطبي ببلادهم ، وهو اعتراف بفضل العرب وحضارتهم وتقدم الطب عندهم .

ومما تميز به الاطباء العرب قيامهم بتجربة الادوية واختبار صلاحيتها في المعالجة . وكان الرازي يجرب الادوية على نفسه . اما الادوية السامة فكان يجربها على الحيوانات ، ولو لم يكن ذلك لما عرف ان الزرنيخ يشفي مرض الزحار الاميبي . فاستعمل الاوربيون بعدئذ لهذا الغرض واطلقوا عليه اسم ستوفرسول Stovarsol ، وكذلك دواء (البورق) (الطلق) ، وادوية كثيرة اخرى وردت في ثنايا هذا البحث .

المصــــادر

اولا : المصادر العربية :

١- ازهار الافكار في جواهر الاحجار - شهاب الدين احمد بن يوسف التيفاشي - تحقيق الدكتور محمد يوسف حسن والدكتور محمود خفاجي - القاهرة ١٩٧٧ .

٢- ابحاث الندوة العالمية الاولى لتاريخ العلوم عند العرب - جامعة حلب ١٩٧٧ .

٣- اصول تركيب الادوية - نجيب الدين محمد بن علي السمرقندي - مخطوط في مكتبة اوقاف بغداد .

٤- تاريخ الصيدلة والعقاقير في العهد القديم والعهد الوسيط - الاب شحاته القنواتي - القاهرة ١٩٥٨ .

٥- تذكرة اولي الالباب والجامع للعجب العجاب - داود الانطاكي - القاهرة ١٩٥٦هـ .

٦- تذكرة الكحالين - علي بن عيسى الكحال - حيدر آباد ١٩٦٤ .

٧- تحصيل الصحة بالاسباب الستة - حبيش بن ابراهيم بن محمد التفليسي - مخطوط في مدرسة يحيى باشا بالموصل .

٨- الجامع لمفردات الادوية والاغذية - ضياء الدين عبد الله بن احمد المالقي المعروف بابن البيطار - القاهرة ١٢٩١هـ .

٩- الجماهر في معرفة الجواهر - ابو الريحان محمد بن احمد البيروني - اصدار عالم الكتب ببيروت - ١٣٥٥هـ .

١٠- الحاوي في الطب – ابو بكر محمد بن زكريا الرازي – حيدر اباد ١٩٥٥ .

١١- دائرة معارف البستاني – بطرس البستاني – بيروت .

١٢- الذخيرة في الطب – ثابت بن قرة – تحقيق الدكتور جورجي صبحي – القاهرة ١٩٢٨ .

١٣- علم الادوية – الدكتور عزة مريدن – دمشق ١٩٤٩ .

١٤- العلوم الطبيعية عند العرب – الدكتور ياسين خليل – بغداد ١٩٨٠ .

١٥- عمدة المتطببين في فن الصيدله والاقرباذين – منصور احمد – القاهرة – بولاق ١٢٨٣هـ .

١٦- عمدة المحتاج في علمي الادوية والعلاج – احمد الرشيدي – القاهرة ١٢٨٢هـ .

١٧- العمدة في الجراحة – امين الدولة المعروف بابن القف – حيدر اباد ١٣٥٦هـ .

١٨- عيون الانباء في طبقات الاطباء – موفق الدين احمد بن القاسم الخزرجي المعروف بابن ابي اصيبعة – بيروت ١٩٥٦ .

١٩- فردوس الحكمة في الطب – علي بن سهل المعروف بابن رين الطبري – تحقيق الدكتور محمد زبير الصديقي – برلين ١٩٢٨

٢٠- القانون في الطب – الشيخ الرئيس ابو علي بن سينا – بيروت – دار صادر .

٢١- كامل الصناعة الطبية – علي بن عباس المجوسي – القاهرة ١٢٦٤هـ .

٢٢ الكيمياء الطبية – الدكتور اسماعيل عزة – دمشق ١٩٤٩ .

٢٣- المختارات في الطب مهذب الدين على بن هبل – حيدر اباد ١٣٦٢هـ .

٢٤ منتخب جامع المفردات للغافقي – ابو الفرج ابن العبري – تحقيق ماكس مايرهوف وجورجي صبحي – مطبعة الاعتماد بالقاهرة .

٢٥- المعتبر في الطب ... حد الزمان هبة الله بن ملكا – مخطوط في المكتبة الظاهرية بدمشق برقم ٦٧٨٩ .

٢٦- منهاج الدكان ودستور الاعيان – ابو المنى داود بن ابي النصر المعروف بكوهين العطار – المطبعة اليوسفية – القاهرة .

٢٧- النزهة المبهجة في تشحيذ الاذهان وتعديل الامزجة – داود الانطاكي – القاهرة ١٣٥٦هـ .

ثانيا المصادر الاجنبية

1- Aliatair G.The Prescriber and Guide to prescription Writins – London 1956.

2- Holmyard, Makers of Chemistry - Oxford. 1946.

3- Murray and Dawron – Comparative Inorganic Chemistry – 1982.

الزهراوي جراح العرب الأكبر

٤٠٤ - ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ - ١٠١٣م

الدكتور محمود الحاج قاسم محمد

طبيب أطفال - الموصل / العراق

الملخص :

أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي الأنصاري الأندلسي ، ولد بعيد عام ٣٢٥ هـ / ٩٣٦ م في مدينة الزهراء ، العاصمة الأندلسية ، ويرجح أنه لقي حتفه في عام ٤٠٤هـ / ١٠١٣م أيام البرابرة . ولم ينل الزهراوي ما يستحقه من اهتمام مؤرخي العلوم ومؤلفي كتب التراجم الأندلسيين وبذلك بقيت سيرته المهنية والعلمية خافية علينا ، وله من الكتب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف ، وهو اكبر تصانيفه وأشهرها .

مكانة الزهراوي في الطب العالمي : يقول لوكليرك يعد أبو القاسم ، في تاريخ الطب ، أسمى تعبير عن علم الجراحة عند العرب وهو أيضا أكثر المراجع ذكرا عند الجراحين في العصر الوسيط ، وقد إحتل الزهراوي في معاهد فرنسا مكانة بين أبقراط وجالينوس فأصبح من أركان الثالوث العلمي

من المرجح أن الزهراوي لم يؤلف من الكتب غير كتاب التصريف . وقد أدى تعدد الترجمات اللاتينية لكتاب التصريف أو لبعض مقالاته إلى الظن بأن للزهراوي مؤلفات أخرى غير التصريف . وجاء التصريف مكونا من ثلاثين مقالة تحدث فيها عن تقاسم الأمراض والترياقات . والأدوية بكل أشكالها مثل الحبوب المسهلة والمقيئة والقلبية والصدرية والمعاجين ، والأقراص والأدهان . . إلخ وأطعمة المرضى والأصحاء .

المقالة الثلاثون والأخيرة : في كتاب التصريف التي هي الأشهر من أجزائه مع ما يزيد كثيرا عن مائتي رسم أو صورة للأدوات الجراحية تحت عنوان العمل باليد وهي القسم العملي الجراحي والوصفي التشريحي للكتاب . يقول فيها وقد قسمت هذه المقالة إلى ثلاثة أبواب :

الأول : في الكي بالنار والكي بالدواء الحار وصور الالات وحدائد الكي وكل ما يحتاج إليه في العمل باليد .

والثاني : في الشق والبط والفصد والحجامة والجراحات وإخراج السهام وصور الآلات الجراحية ورسومها .

والثالث : في الجبر والخلع وعلاج الوثي والفك .

وقد تناولنا في البحث أهم ابتكارات الزهراوي في علم الجراحة والآلات التي إكتشفها .

ترجمة حياته :

هو أبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي الأنصاري الأندلسي ((ولد بعيد عام ٣٢٥ هـ/ ٩٣٦ م في مدينة الزهراء ، العاصمة الأندلسية الجديدة ، التي أتم الخليفة عبد الرحمن الناصر بناءها في العام نفسه ونقل إليها مركز حكومته – وقد عاش ومات في بلدته الزهراء – ويرجح أنه لقي حتفه في عام ٤٠٤هـ/ ١٠١٣م أيام البرابرة التي دكت بها معالم المدينة وسقطت في أيدي الغزاة المدمريين . . وفي أحد أزقة قرطبة قرب المسجد وجدت شارعا صغيرا يحمل اسم أبو القاسم الزهراوي Albucasis تخليدا لذكراه من قبل أهالي قرطبة الأماجد الطيبين))[١] .

وقد جاء لقبه في بعض نسخ كتاب التصريف (الأنصاري) إشارة إلى أن والده كان من الأنصار – أنصار الرسول (صلى الله عليه وسلم) – الذين كانوا مع جيش الفتح ، واستوطن قرطبة ، ثم انتقل إلى الزهراء .

((وتدل القرائن على أن الزهراوي بدأ يزاول مهنته في أيام الخليفة عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر (٣٠٠-٣٥٠ هـ/ ٩١٢-٩٦١ م) وأنه أدرك عصر الحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦ هـ/٩٦١-٩٧٦ م) وهشام المؤيد بالله (٣٦٦-٣٩٩هـ/٩٧٦-١٠٠٩ م) ، غير أننا لا نستطيع أن نتثبت أنه قد انتظم في خدمة أحد من هؤلاء الأمراء ولاسيما وأن الزهراوي نفسه يجعلنا نفهم من كلامه في خطبة (التصريف) أنه لم يكن من أهل

---

[١] حمارنة ، الدكتور سامي خلف : تاريخ العلوم الطبية عند العرب والمسلمين ، سلسلة منشورات جامعة اليرموك ، عمان ١٩٨٩ ، مجلد أول ، ص ٣٣٤ -٣٣٥ ، ٣٥٢ .

الثراء ككثير من أطباء عصره)) بمعنى ((كثير من مثل الأطباء الذين يخدمون ذوي السلطان والنفوذ أن يجمعوا من ذلك ثروة طائلة كما يحدثنا مؤرخو العلوم ومؤلفو التراجم الأندلسيون))

((وإننا نميل إلى الاعتقاد بأن الزهراوي بقي بعيداً عن خدمة ذوي المكانة في الدولة يدل على ذلك أنه لم يهد كتابه إلى أحد منهم بل وقفه على بنيه ، وأن سليمان بن جلجل وأبا القاسم صاعد التجيبي وهما من أبرز مؤرخي العلوم العرب في الأندلس – لم يذكرا أي شيء عن الزهراوي مع أنهما ترجما عدداً غير قليل من معاصريه : الأول في طبقات الأطباء والحكماء ، والثاني في طبقات الأمم ، وهما معاً قد حرصا على إبراز الأطباء الذين كانوا منتظمين في خدمة الأمراء . . وكان ابن جلجل معاصراً للزهراوي . . وفي هذا التاريخ كان الزهراوي قد تجاوز الخمسين من عمره وقضى في مزاولة الطب والجراحة نحو ثلاثين سنة . لكنه لم يكن قد ألف بعد كتاب (التصريف) . فهل كان ابن جلجل يجهل وجود الزهراوي لكونه لم يكن مقربا من ذوي السلطان والجاه ، أم أنه لم يكن قد بلغ من الشهرة ما جعل ابن جلجل يهمله ؟

أما الزهراوي فكان على علم بمؤلفات ابن جلجل ، وقد ذكره في التصريف . . أما صاعد الأندلسي الذي ألف طبقات الأمم عام ٤٦٠هـ/١٠٦٨م ، فإنه عاش بعد وفاة الزهراوي بمدة قصيرة ومع ذلك لم يذكر عنه ولا عن كتابه التصريف قليلاً ولا كثيراً . . مع أنه ذكر من بين تراجمه عدداً من معاصري الزهراوي ، كما ذكر بعض تلاميذه ومنهم ابن ربر

أبو المطرف عبد الرحمن بن وافد اللخمي (٤٦٧هـ/١٠٧٤م) أحد المبرزين في علم الأدوية المفردة .))

((فإذا نحن انتقلنا إلى مؤلفي كتب التراجم فإننا نجد أن أبا الوليد بن الفرضي (المتوفى ٤٠٣هـ) لم يذكر أي شيء عن الزهراوي في (تاريخ العلماء ورواة العلم في الأندلس) في حين ذكر من أطباء عصره طائفة لا يبلغون مكانة الزهراوي ، لقد كان علينا أن ننتظر مرور عقود من الزمن على وفاة مؤلف التصريف لنظفر باشارة إلى كتابه هذا عند أبي محمد علي بن أحمد بن حزم (٤٥٤هـ/١٠٦٣م) في رسالته الشهيرة (في فضل الأندلس وذكر رجالها) حيث قال في معرض تعداد مؤلفات الأندلسيين في الطب : (وكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف لأبي القاسم خلف بن عباس الزهراوي ، وقد أدركناه وشاهدناه ولئن قلنا إنه لم يؤلف في الطب أجمع منه ولا أحسن للقول والعمل في الطبائع لنصدقن)

ثم جاء تلميذه أبو عبد الله محمد بن فتوح الحميدي (٤٨٨هـ/١٠٩٥م) فقدم لنا في جذوة المقتبس معلومات عن الزهراوي ثم نقل كلام إبن حزم بنصه . . أما أحمد بن عميرة الضبي (٥٩٩هـ / ١٢٠٢م) فقد إكتفى بنقل ما كتبه الحميدي نقلا حرفيا

وعلى هذا فمن الواضح أن أبا القاسم الزهراوي لم ينل ما يستحقه من اهتمام مؤرخي العلوم ومؤلفي كتب التراجم الأندلسيين وبذلك بقيت سيرته المهنية والعلمية خافية علينا بحيث إننا نجهل شيوخه وأماكن استقراره وتنقلاته

ومكان وفاته ، كما لا نعرف شيئا عن تلاميذه سوى ما قلناه عن الوزير ابن وافد اللخمي)). [٢]

أما مؤرخو العلوم من أهل المشرق فنذكر من بينهم ابن أبي أصيبعة الذي قال عنه ((كان طبيبا فاضلا خبيرا بالأدوية المفردة والمركبة جيد العلاج ، وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي ، ولخلف بن عباس الزهراوي من الكتب كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف ، وهو اكبر تصانيفه وأشهرها ، وهو كتاب تام في معناه)) . [٣]

مكانة الزهراوي في الطب العالمي [٤] : ((لخص لوسيان لوكليرك مكانة الزهراوي في تطور الطب العالمي بقوله " يعد أبو القاسم ، في تاريخ الطب ، أسمى تعبير عن علم الجراحة عند العرب وهو أيضا أكثر المراجع ذكرا عند الجراحين في العصر الوسيط " ثم قال :

" وقد إحتل الزهراوي في معاهد فرنسا مكانة بين أبقراط وجالينوس فأصبح من أركان الثالوث العلمي)) [٥]

ولوكليرك إنما يؤكد بهذا القول الأخير ما سبق أن ردده ركسيوس (Riccius) في القرن الخامس عشر الميلادي ، ويعد لوكليرك أحد

---

[٢] الخطابي ، محمد العربي : الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية ، دار الغرب الإسلامي – بيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨٨ ، ج١ ، ص ١١٣ .

[٣] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، بيروت ١٩٧٩ ، ٣:٨٣.

الخطابي (المصدر السابق) ، ص ١١٩ .

[٥] لوكليرك : تاريخ الطب العربي ، ، ٤٥٤ _ ٤٥٥ .

المتخصصين في دراسة الزهراوي ، فهو الذي ترجم إلى الفرنسية مقالة في الجراحة ، وكتب عنه في تاريخ الطب العربي الذي أصدره عام ١٨٧٦ م ، نحو عشرين صفحة ضمنها معلومات مفيدة عن هذا الجراح الأندلسي ولا سيما عن الترجمات اللاتينية والعبرية لكتاب التصريف .

وعن مكانة الزهراوي في الغرب الأوربي نقل لوسيان عن كتاب "تاريخ الفكر في فرنسا Histoire Litteraire de la France " فقرة تبين التأثير البالغ الذي أحدثه الزهراوي في سبيل تقدم علم الجراحة في أوربا ، يقول

" هنالك واقع جدير بالإهتمام في تاريخ الجراحة بفرنسا ، ذلك أنه في النصف الثاني من القرن الثالث عشر غادر عدد من الأطباء الإيطاليين وطنهم في أعقاب الفتن التي نشبت بين طوائف الجلفيين والحبلنيين ، ولجأوا إلى فرنسا حاملين معهم مؤلفات أبي القاسم ، الطبيب العربي الأندلسي الشهير الذي يعد باعث الحياة في علم الطب ، ويظهر أن هذه المؤلفات قد وصلت بوصول أحد أطباء مدرسة ساليرنو إلى باريس ، واسمه روجي دي بارم Roger de Parme . وقد وفد بعده إلى فرنسا أطباء آخرون منهم برونودي كالبر Bruno de calabre ولافرانك Lanfran ، وتادي Tadde ، ولوي دي ريجيو Louis deRegio ، وفاليسكوس دي تاريني Valescus de Tarenie ، ولوي دي بيز Louis de Pise ، وأغسطس دي فبرون ، وسلفيستر دي بيستوي Silvesstere de Piosti ، وأرمان الكريموني Armand fr Cremone وآخرون غيرهم . وإننا نتفهم عبارة لانفرانك الذي وصل الى فرنسا نحو عام ١٢٩٠م حيث قال : " إن جل الجراحين الفرنسيين كانوا أغبياء ومتحدين ، لا يكادون يعرفون لغتهم ،

وكانوا مجرد خدمة ، وقد بلغ بهم الجهل بحيث يتعذر العثور على جراح عمداني بينهم)) .

((ومن هنا فإن دهشتنا تتضاعف ونحن نرى أبا القاسم الزهراوي يتبوأ مكانه إلى جانب أبقراط وجالينوس ، ويؤلف ما يشبه الثالوث العلمي)) .[٦]

مؤلفاته :

سبق أن ذكرنا قول ابن ابي أصيبعة عن الزهراوي والذي يوهم إلى أن للزهراوي كتابين وهذا لا شك غير صحيح لأن الزهراوي لم يؤلف غير كتاب التصريف .

وقد حقق ونشر عبد الحميد العنوجي كتاب [تفسير الأكيال والأوزان] ونسبه للزهراوي ، وأكثر الإحتمال أن هذا الكتاب من بعض أجزاء كتاب التصريف المفقودة وليس كتابا آخر له .

ويؤكد الأستاذ محمد العربي الخطابي ما ذهبنا إليه حيث يقول :

((من المرجح أن الزهراوي لم يؤلف من الكتب غير كتاب التصريف . وقد ذكر إبن عبدون - عرضا - في [عمدة الطبيب] كتابا آخر للزهراوي سماه [ترجمة العقاقير][٧] ، وقد يكون المقصود بهذا المقالة المتعلقة بالأدوية المفردة في كتاب التصريف [الباب الأول من المقالة التاسعة والعشرين] .

---

[٦] المصدر نفسه

[٧] عمدة الطبيب في معرفة النبات مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، ص ٦١.

هذا وقد أدى تعدد الترجمات اللاتينية لكتاب التصريف أو لبعض مقالاته إلى الظن بأن للزهراوي مؤلفات أخرى غير التصريف ، ومن الأسماء التي شاعت في اللغة اللاتينية في العصور الوسطى عن كتاب أبي القاسم :

١ - Acaravius و Alsaharavius ، وهذه التسمية ليست إلا الرسم اللاتيني لإسم الزهراوي ، وإنما أطلق من باب الشهرة على الكتاب نفسه ، وذلك من قبيل ما ذكره ابن أبي أصيبعة في عيون الأنباء كما سبقت الإشارة . أما المقالة الثلاثون المتعلقة بالجراحة فقد شاعت في اللغة اللاتينية باسم Liber chirugicae كما أطلق عليها اسم Albulcasae de chirurgia libritres أي كتاب الزهراوي في الجراحة . ذلك أن المؤلف اشتهر عند الغربيين باسم Albicasis أو Abulcasis وهو تصحيف صوتي لاتيني لكنية الزهراوي وهي أبو القاسم .

٢ - Liber servitoris ، وهي ترجمة تقريبية للعبارة العربية [كتاب التصريف] ، وهذه التسمية اللاتينية لم تكن تطلق في الحقيقة إلا على المقالة الثامنة والعشرين من كتاب التصريف الخاصة بإصلاح الأدوية.

وكيفما كان الحال فإن التأليف الوحيد الذي خلفه الزهراوي ووصل إلينا كاملاً هو كتاب [التصريف لمن عجز عن التأليف] ، وقد وقع بعض اللبس في فهم المعنى الذي قصده المؤلف من هذه التسمية ، فلو أننا رجعنا إلى ما قاله الزهراوي نفسه في خطبة الكتاب لارتفع اللبس ووضح القصد ، يقول : [وسميته بكتاب التصريف لمن عجز عن التأليف ، وإنما سميته بذلك لكثرة تصرفه بين يدي الطبيب وكثرة

حاجته إليه في كل الأوقات وليجد فيه من جميع الصفات ما يغنيه عن التأليف] ، والمقصود أن الزهراوي - الذي ألف هذا الكتاب لبنيه قبل غيرهم - أراده أن يكون في متناول المشتغلين بالطب يرجعون إليه عند الحاجة ويأخذون منه ما شاءوا من صفات الأدوية وطرق العلاج)) [٨].

مراجع الزهراوي في كتاب التصريف :

((يتبين من قراءة مقالات كتاب التصريف أن الزهراوي قد رجع إلى عدد من المؤلفات اليونانية والعربية في الطب والأغذية والأدوية وتدبير الصحة . . . اما المقالة الثلاثون [في العمل باليد] فإن الزهراوي لم يذكر فيها اسم أي مرجع ، بل اعتمد في جل فصولها على خبرته ومعاناته الفعلية للجراحة والجبر كما يتضح . . . وقد أكد الزهراوي في ديباجتها أن صناعة العمل باليد تكاد تندرس في بلده وزمانه ، وأن ما بقي منها [رسوم يسيرة في كتب الأوائل قد صحفته الأيادي وواقعه الخطأ والتشويش حتى إستغلقت معانيه وبعدت فائدته فأردت أن أحييه] فنحن أمام عمل إحياء وتجديد قائمين على الخبرة والممارسة من جهة ، وعلى ربط فن الجراحة بعلم التشريح ووظائف الأعضاء من جهة أخرى ، وهذا ما أكده الزهراوي بالقول والفعل)). [٩]

---

[٨] عمدة الطبيب في معرفة النبات مخطوط الخزانة العامة بالرباط ، ص ٦٧.

[٦] نقلنا هذه الفقرة عن الخطابي ، المصدر السابق ص ١١٩ - ١٢٠

ز والمصادر التي استمد منها الزهراوي بخصوص تراكيب الأدوية هي :

١ - جالينوس : كتاب الأدوية المقابلة للأدواء ، كتاب النجح ، نصائح الرهبان ، المزاجات ، تدبير الأصحاء .

٢ - أرمانيوس : كتاب أرمانيوس .

٣ - أهرن [القس السرياني] : كتاب أهرن [الكناش الذي نقله ماسرجويه إلى العربية]

٤ - بولس= بولس [الأجانيطي]

٥ - سرجيوس [بن إلياس الرومي] : كتاب سرجيوس [رسالة في الأدوية]

٦ - سابور [بن سهل] : كتاب سابور [الأقرباذين]

٧ - ابو حنيفة الدينوري : الأدوية المفردة [كتاب النبات]

٨ - الكندي : كتاب الترياق .

٩ - يوحنا بن ماسويه [ابو زكرياء يحيى]

١٠ - أبو بكر محمد بن زكريا الرازي : كتاب المنصوري . كتاب الطب الملوكي . كتاب الأقرباذين . كتاب السر [سر صناعة الطب]

١١ - ابو جعفر أحمد بن الجزار : كتاب زاد المسافر وقوت الحاضر البغية في الأدوية المفردة . كتاب الإعتماد في الأدوية المفردة . كتاب النصح . كتاب المعدة .

١٢ - ابو داود سليمان بن حسان بن جلجل : الأدوية المخزونة .

١٣ - عبد الله بن محمد الثقفي السوسي : الكنانيش (المقالة التاسعة في أدوية القلب) .

١٤ - مسيح بن حكم : كتاب مسيح بن حكم [الرسالة الهارونية]

أما الأطباء والنباتيون الذين ترددت أسماؤهم في كتاب التصريف من غير إشارة إلى مؤلفاتهم فنذكر منهم : أندروماخوس ، روفش ، لوقش ، بوسطس ، إسحق ابن عمران ، حنين إبن إسحاق ، إسحق بن سليمان ، جبريل بن بختيشوع ، أبو بكر يحيى إبن إسحق ، موسى بن القزاز)). (١٠)

وهناك ثلاثة أمور لابد من الإشارة إليها وهي :

١ — مسألة أساس جراحة الزهراوي هو بولش [بولس] : ذهب بعض الباحثين — وفي مقدمتهم لوسيان لوكريك — إلى أن الزهراوي إعتمد في الجراحة على الكتاب السادس لبولس الأجانيطي ((والحقيقة أن الزهراوي ذكر بولس عدة مرات ونقل منه صفة أدوية ، ولكنه لم يذكره في مقالة الجراحة ، وربما نقل معلومات من كتاب علل النساء لبولس وذلك في الفصول التي خصصها الزهراوي لفن التوليد وتدبير الحوامل ، وليس لدينا أي دليل على أنه نقل من كنانيش بولس شيئا)) (١١)

٢ — التشابه بين الزهراوي وإبن الجزار في فصل تدبير الصبيان : حيث أن هناك ((تشابها في المعنى واللفظ بين الفصل الذي كتبه الزهراوي حول تدبير الصبيان وبعض فصول كتاب أبي جعفر إبن الجزار القيرواني في كتابه سياسة الصبيان وتدبيرهم الذي إستند فيه مؤلفه إلى مصادر سابقة ، أ أخذ الطبيبان العربيان من مصدر قديم واحد أم أن الزهراوي نقل مباشرة من إبن الجزار ، ولاسيما وأن الزهراوي كان قد إطلع على

---

(١٠) الخطابي (المصدر نفسه) ، ج١ ، ص١٢١

(١١) الخطابي (المصدر نفسه) ص ١٢١-١٢٣

بعض مؤلفات هذا الطبيب القيرواني وذكرها بأسمائها – كما ذكرنا ولكنه لم يذكر من بينها كتاب سياسة الصبيان))[21].

٣ معرفة الزهراوي بابن سينا : ((إن الزهراوي لم يعرف ابن سينا [٤٢٨هـ/١٠٣٧ م] ولم يطلع على كتابه القانون . فهو قد توفي قبل ابن سينا بنحو أربع وعشرين سنة . وكان الشيخ الرئيس في ريعان شبابه مشرفا على الثلاثين من عمره . هذا ويؤكد ابن أبي أصيبعة أن كتاب القانون لابن سينا لم يدخل الى الأندلس إلا في زمان الطبيب أبي العلاء بن زهر [٥٢٥هـ/ ١١٣٤م])).[22]

محتويات كتاب التصريف :

وقبل الدخول في تفاصيل محتويات الكتاب من المناسب أن نذكر فقرات من خطبة الكتاب التي بين فيها الزهراوي غايته من تأليف للكتاب ، فقال :

((حببكم الله يابني موارد الخير . فهذا كتاب ألفته لكم . . وهو عظيم الفائدة قريب المنفعة . وسميته بـ (كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف) ، وإنما سميته بذلك لكثرة تصرفه بين يدي الطبيب ، وكثرة حاجته إليه في كل الأوقات ، وليجد فيه من جميع الصفات ما يغنيه عن التأليف ، كفيتكم به من قراءة الكنانيش المطولات وكتب الأوائل المغلقة . . وجعلته لكم كنزا وذخرا . ولمن انتفع به سواكم ثوابا وأجرا ، إذ لا فضل مال لي أخلفه لكم ، فإن وراثة العلم عند أهل النهى أفضل من وراثة المال .

---

[21] الخطابي (المصدر نفسه) ص ١٢٣.

[22] الخطابي (المصدر نفسه)ص: ١٢ .

ومع أني لم اقصد في وضعه قصد من أراد الفخر والذكر والدروس ، وإنما قصدت فيه أن أجعله بين يدي تذكرة حاضرة وعدة للشيخوخة ، ولكن ذخيرة نافعة ومنفعة باقية . فإن طعن علي طاعن فيه أو تعقب علي متعقب لخلل أو زلل وقع فيه بغير عمد ، فالخير أردت ، والصواب قصدت ، ولكل عامل جزاء ما لم يتعمد الخطأ . . وحسبي أني لم أؤلفه إلا لنفسي وبني ، فإن أنصف منصف . . وجد هذا الكتاب ينتفع به العام والخاص والجاهل والعالم في كل أوان)).

أما محتويات الكتاب فهي كما يأتي [٤٤] :

المقالة الأولى : بعد خطبة الكتاب يتناول في هذه المقالة حد الطب وقسمي العلم من أمور طبيعية وأسباب ودلائل ، والعمل باليد وعيون من التشريح لجميع أعضاء البدن ووظائفها والأدوية ومنافعها وأوصافها وتركيبها ، والأمراض الآلية وأصنافها وأسبابها وأجناس الدلائل وعلاماتها وتقدمة المعرفة والإنذارات والأنباض .

المقالة الثانية : في تقاسيم الأمراض وعلاماتها والإشارة إلى علاجها وما يعرض للحبالى وعلامات الحمل وخروج الجنين على الشكل الطبيعي وتدبير خروج الطفل والرضاعة والوقت الذي ينبغي فيه أن يدرب الطفل أكل الطعام وظهور الأسنان والعظام ونموه ليصير صبيا

المقالة الثالثة : في صفات المعاجين القديمة التى تخزن وتدخر والديبدات التي اعتاد الحكماء تركيبها على طول الأزمان وكرروا تجربتها واستعمالها على طول الأيام وتيقنوا فضلها ونفعها .

---

[٤٤] الخطابي (المصدر نفسه) ص٤١٢ .

المقالة الرابعة . في الترياقات مجموعة من كنانيش الحكماء ورؤساء الأطباء

من جملتها الترياق الكبير الفاروق وكيفية عمله ومنافعه الكثيرة والمراتب السبعة لتحضير مفرداته وما ذكره سابور بن سهل صاحب الأقرباذين الكبير ونسخه البيمارستان ببغداد وغيرها من الترياقات النافعة في جميع السموم والمضادة لفعلها في البدن

المقالة الخامسة : في الأيارجات القديمة والحديثة وادخارها وتخميرها والتي يحتزنها الملوك في خزائنهم حتى تعتق وتستعمل في الأمراض العسيرة . وكلمة الأيارج مشتقة من اليونانية وتعني الدواء المر .

المقالة السادسة : في الحبوب المسهلة المرة مع التحذير من استعمال أدوية قوية كشحم الحنظل والصبر والسقمونيا والفربيون والشبرم .

المقالة السابعة : في الأدوية المقيئة ، والحقن والشيافات والفتل والخرجات .

المقالة الثامنة : الملوكية في الأدوية المسهلة المألوفة اللذيذة الطعم العطرية الرائحة التي يستعملها الأشراف وأهل الرفاهية .

المقالة التاسعة : في الأدوية القلبية وأكثرها متحركة من داخل البدن منشوها من المرة السوداء والبلغم

المقالة العاشرة : في الإطريفلات والبنادق مع نسبتها إلى أصحابها للاستعمال في أوجاع المعدة والرطوبات والإستفراغات .

المقالة الحادية عشرة : في الجوارشات وصنوف المعجونات مجموعة ، كالسابق ، من كتب الأوائل وهي نافعة في حفظ الصحة أو ردها للمرضى والبعض منها من تأليف الزهراوي نفسه ، ومنها ما هو نافع لجميع علل المعدة الباردة تطيب النفس ومقوية للأعضاء تعين على

الهضم وتنفي الريح ، تصلح للأسرف مع الحذر من خمر الأدوية العتيقة

المقالة الثانية عشرة : في أدوية الباه والتسمين والتهزيل والمدرة للبول وإكثار اللبن .

المقالة الثالثة عشرة : في الأشربة والسكنجبينات والربوبات والمربيات مع مئات الوصفات الدوائية ومنها من تأليفه .

المقالة الرابعة عشرة : في البخاتج والمطبوخات والمنقوعات المسهلة وغير المسهلة .

المقالة الخامسة عشرة : في المربيات ومنافعها وحكمة ترتيبها وادخارها .

المقالة السادسة عشر : في السفوفات التي لا تحتمل البقاء لإسراع الهواء في فساد مركباتها لخلوها من حافظ يبقي عنها الفساد .

المقالة السابعة عشرة : في الأقراص .

المقالة الثامنة عشرة : في السعوطات والبخورات والقطورات والذرورات والغراغر .

المقالة التاسعة عشرة . في الطيب والزينة وصناعة الغوالي

المقالة العشرون : في الأكحال والشيافات واللطوخات .

المقالة الحادية والعشرون : في السنونات وأدوية الفم والحلق .

المقالة الثانية والعشرون : في أدوية علل الصدر .

المقالة الثالثة والعشرون : في الضمادات وأصنافها .

المقالة الرابعة والعشرون : في صناعة المراهم .

المقالة الخامسة والعشرون . في الأدهان وأحكام صناعتها .

المقالة السادسة والعشرون : في أطعمة المرضى والأصحاء .

المقالة السابعة والعشرون : في طبائع الأدوية والأغذية وإصلاحها ، وذكر قواها وخواصها .

المقالة الثامنة والعشرون : في إصلاح الأدوية المفردة والمركبة من معادن ونبات أو حيوان وحرق الأحجار المعدنية وما ينصرف في الطب من ذلك . وهي أفضل مقالة من نوعها كتبت في الأندلس حتى زمن المؤلف .

ولأول مرة نجد الرسم والوصف الكامل لطريقة عمل القالب الذي يصنع وتطبع فيه الأقراص على لوح من الأبنوس أو العاج ، فبعد ثم ينشر الى نصفين طولا ، ثم يحفر في كل وجه قدر غلظ نصف قرص وينقش على أحد الوجهين اسم القرص المراد صنعه مطبوعا بشكل معكوس ، فيكون النقش صحيحا عند خروج الأقراص .

ولا ريب في أن ذلك يعطي الزهراوي حقا حصاريا لكي يكون المؤسس والرائد الأول لصناعة الطباعة، وصناعة أقراص الدواء؛ حيث اسم الدواء على كل قرص منها، هاتان الصناعتان اللتان لا غنى عنهما في كل المؤسسات الدوائية العالمية . ومع هذا فقد اغتصب هذا الحق وغفل عنه كثيرون .

((وبسبب ترجمة كامل المقالة إلى اللاتينية وشيوع استعمالها تحت عنوان كتاب التصريف (Liber Servitorius) زاد انتشارها في الأوساط الطبية والعلمية حتى اعتبرت هذه المقالة وكأنها كتاب

الزهراوي الكامل ، أضف إلى ذلك أنه لأصالة هذه المقالة وطرافتها وأهميتها في تاريخ العقاقير والكيمياء ، فبعد ترجمتها في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) في الغرب ، نشرت بواسطة نقولا جنسون الغالبي في فينيسيا عام ١٤٧١م وهي أول طبعة من نوعها في موضوعها في عالم الطباعة ، وتبعتها بعد ذلك عدة طبعات)) .

المقالة التاسعة والعشرون : في تسمية العقاقير باختلاف اللغات (يونانية وسريانية ولاتينية واسبانية وبربرية) مرتبة على حروف المعجم ، وعناوين الأسماء والآلات على حسب فهم بلدنا (الأندلس) ، وبدل العقاقير بعضها ببعض اذا عدمت المطلوبة أو تعذر وجودها ، وأعمار الأدوية المفردة والمركبة من مصادرها الطبيعية ، وتفسير الأكيال والأوزان الموجودة في كتب الحكماء باختلاف لغاتهم .

المقالة الثلاثون والأخيرة : في كتاب التصريف التي هي الأشهر من أجزائه مع ما يزيد كثيراً عن مائة رسم أو صورة للأدوات الجراحية تحت عنوان العمل باليد وهي القسم العملي الجراحي والوصفي التشريحي للكتاب . وشعوراً بأهمية الموضوع فالزهراوي يعلل الأهداف والأسباب والأغراض التي حملته على تأليف المقالة قائلا : ((لما أكملت لكم يا بني هذا الكتاب بعد المشقة رأيت أن أكمله لكم بهذه المقالة التي هي جزء العمل باليد لأن العمل باليد محسنه في بلدنا وفي زماننا

أوجزنا هذه الفقرة عن : حمارنة (مصدر سابق) ص ٣٣٦-٣٤٦ .

معدوم البتة حتى كاد أن يدرس علمه وينقطع أثره وإنما بقي منه رسوم يسيرة في كتب الأوائل الإغريق فرأيت أن أحييه .

والسبب الذي لا يوجد صانع محسن بيده في زماننا هذا لأن صناعة الطب طويلة وينبغي لصانعها أن يرتاض قبل ذلك في علم التشريح حتى يقف على منافع الأعضاء وهيئاتها ومزاجاتها واتصالها وانفصالها والعروق ومخارجها في البدن

ثم يقول ((وقد قسمت هذه المقالة إلى ثلاثة أبواب :

الأول : في الكي بالنار والكي بالدواء الحار وصور الآلات وحدائد الكي وكل ما يحتاج إليه في العمل باليد ، واضعا حدودا علمية وشروطا لتطبيقه وليس بصورة عشوائية بل حدد الزمن والمكان والحالات المرضية التي تفيد فيها ، حتى من أساء فقد أساء فهم قصد الزهراوي وتوصيته ، الأمر الذي بسببه يعتبر سابقا بين أطباء عصره سابقا لأوانه .

والثاني : في الشق والبط والفصد والحجامة والجراحات وإخراج السهام وصور الآلات الجراحية ورسومها ، وفي هذا يحذر من أخطاء تسبب نزف الدم ، وعدم التسرع أو الجهل بقوانين المهنة وأصول ممارستها .

والثالث : في الجبر والخلع وعلاج الوثي والفك والرد على ادعاء الجهال والعوام من ممارسي الصناعة معطيا وصفا واضحا لوضع الأضمدة النافعة في الحيل للمعالجة والشفاء . وهو يجهل رأي القائلين بأن الكي آخر الدواء لعدم فهمهم للأمر والتجلي في المقاصد ، ويصوب مفصلا الكي بالحديد على الذهب بعكس ما اعتبره جراحي زمنه

والذين سيفد ، مع تحديد المكان والأسباب والحالات تنشئ قدر أن

يشرع في ذلك))

وقد أغفل ابن أبي أصيبعة ذكر هذه المقالة بالرغم من أنها أهم مقالات الكتاب مما يدل على عدم إطلاعه على التصريف بصورة كاملة .

مخطوطات كتاب التصريف (٧) :

مخطوط في مكتبة الحرم المكي الشريف .

- = حسين حسين أيوب بمصر في مجلدين .
- = الخزانة الملكية بالرباط تحت رقم ١٣٤.
- = = = = ٦٣٥ د .
- = = = = ٦٧٣ في قسمين .
- = = = = = = ٦٧٧٩ .
- = = = = ٦٧٨٠ .
- = = = = = = ٨٣٦٤ .
- = بشير أغا رقم ٥٠٢ في السليمانية بإسطنبول .
- = = ٥٠٣ = = =
- = علي اميري عربي رقم ٢٨٥٤ في السليمانية في إسطنبول .
- = ولي الدين رقم ٢٤٥١ في السليمانية بإسطنبول .
- = سيد علي بإسطنبول .

مقارنة (المصدر نفسه) ص ٣٥٠ .

مقارنة (المصدر نفسه) ص ٣٥٠

Liber Alzaragui de cirurgia . وطبع للمرة الأولى عام ١٤٧١ في فينا ، وفي إيطاليا . ثم تتالت الطبعات اللاتينية بين عامي ١٤٩٧ و ١٧٦٨ م . وصدرت طبعة عام ١٧٧٨م باللغة العربية في أوكسفورد مع الترجمة اللاتينية للنص العربي وقد أشرف عليها جون تشاننج .

ترجمه إلى الفرنسية سنة ١٨٦١ لوسيان لوكلرك ، وتعتبر ترجمته أفضل الترجمات الفرنسية . ثم صدرت الترجمة الإنكليزية مع النص العربي عام ١٩٧٣ ، التي اشترك فيها سبينك ولويس . ولم ينشر الكتاب كاملاً ترجمة بل أجزاء بقي لعله حتى الآن . وأخيراً في عام ١٩٨٣ نشر الترجمة الروسية للمقالة الثلاثين .وقد ألحق الجراح الفرنسي الشهير (Guy de chauliac ... عام ١٣٦٧ م) الترجمة بأحد كتبه[19] .

وعلق عليه كبار الجراحين مثل أكوابندينتي (ت ١٦١٩ م) ما يدل على الشأن العظيم لكتاب التصريف في نشأة الجراحة في أوربة ، حيث بقي مرجعاً هاماً للجراحين في الشرق والغرب لعدة قرون حتى بداية العصر الحديث .

وفي الحقيقة أن الزهراوي لم يشتهر في العالم العربي إلا بعد ترجمة كتاب التصريف إلى اللاتينية ، وشهرته في أوربة ، ولا سيما أن الأطباء الأندلسيين والمغاربة ممن استفادوا مما ورد في كتابه كالغافقي والإدريسي وابن ميمون وابن البيطار لم ينوهوا بذكر الزهراوي[20] .

---

[19] العصري ، الدهان (المصدر نفسه) ، ص ١٠ - ٨٣ .

[20] Max Meyerhofl , 1968, Scince and Medicin
The legacy of Eslam. Oxford university press P.331

= بنكيبور في مكتبة خدا بخش في الهند . ومعه المخطوط رقم ١١ الحاوي للمقالة الثلاثين فقط .

- مخطوطات المكتبة الوطنية بباريس رقم ١١٦٢ – ١١٦٧ .
- مخطوط تيمور رقم ١٣٧ طب .

مدريد رقم ٥٠٠٧ .

ومن الجدير بالذكر أن معظم هذه المخطوطات ناقصة لا تضم كامل مقالات الكتاب .

ترجمات الكتاب [١٨] :

ترجم الكتاب إلى البروفنسالية ، كما ترجمه إلى اللاتينية جيرارد الكريموني ، وإلى العبرية الحبر شم طب ' sem tob ' ، وكان الجزء الثلاثون الذي نشر باللاتينية تحت عنوان ' الجراحة ' أوسع الأجزاء انتشارا . وأكثرها أهمية في تاريخ الطب كله ، مما رفع مكانة الزهراوي إلى أبقراط وجالينوس ، وجعل فن الجراحة لأول مرة علما مستقلا عن الطب ، قائما على أساس من علم التشريح . وعلم وظائف الأعضاء .

'Gonzalez palencia ,1945 , Historia delaliterature Aravigo-EditorialLabor , Beacelona ,p.29 ' .

ويعتبر جيرارد الكريموني (ت ١١٨٧ م) أول من نقل الكتاب إلى اللاتينية ، حيث ترجم كتاب (العمل باليد والجراحة) بعنوان

---

(١٨) مصري ، الدكتور محمود ، النعسان ، الدكتور محمد هشام : الجراحة في الطب الأندلسي ، منشورات المجمع الثقافي ، أبو ظبي - الإمارات العربية المتحدة ، ٢٠٠٥ ، ص ٨٠ - ٨١ .

وأخيرا ننقل قول الجراح الفرنسي أميل فورج عن كتاب التصريف :
((كان له الفضل الأول في تلخيص جميع المعارف الجراحية في عصره ، ويبقى التصريف صورة التعبير الأول في الجراحة))[١] .

مبادئ عامة يستعان بها في الطب وردت في التصريف : زخر كتاب الزهراوي بالعديد من القواعد والمبادئ المهنية التي نصح فيها الأطباء في الأخذ بها ، اخترنا فيما يأتي بعضا منها : حيث يقول

((... ثلاثة أرباع العلاج في حفظ قوة المريض لكيلا تسقط قبل انتهاء ... فعنده بما ينبغي ... خفت هبوطها إذا لم يكن في ذلك كبير عدم ... وطبيب يكلل ... الرجاء ... يدخل عليه منه الراحة والسرور والفرح ، ويعده بالفرج المحض ، ويهون عليه المرض ... واضرب له الأمثال بأن ... إن فلانا تخلص من مرضه الذي كان أعظم من مرضك

— إن من أبلغ الأشياء عما يحتاج إليه في علاج الأمراض — بعد المعرفة الكاملة بالصناعة — حسن مسائلة العليل ، وأبلغ من ذلك لزوم الطبيب العليل وملاحظة أحواله .

إن كثرة التخلط في العلوم قبل إحكام علم واحد أو فن واحد مفسدة ... ومبلدة للفكر

خذوا في تجربة ومزاولة المرضى وعلاج العوام وتواضعوا ولا تأخذكم العزة والكبرياء في التفتيش والامتحان للأمراض القبيحة عن الامتناع لمكابد

---

(١) ... محمد زهير : الصيدلي ... القاسم الزهراوي ، بحث وأعمال المؤتمر العالمي الثاني عن الطب الإسلامي ، منظمة الطب الإسلامي ، الكويت ... ١٤٠٢هـ

الفقراء وأهل المسكنة . وأدخلوا الراحة عليهم وحققوا من أوصابهم بقدر الطاقة وتجديد النية لهم إبتغاء أجر الله العظيم .

وهنالك شروط وضعها الزهراوي للجراح قبل بدء العملية الجراحيه وهي[22] :

١ - ينصح الزهراوي قائلا (ينبغي أن يكون التحذير اشد لأن العمل في هذا الباب كثيرا ما يقع فيه الاستفراغ من الدم الذي به تقوم الحياة عند فتح عرق أو شق ورم او بط اخراج أو علاج جراحة أو اخراج سهم أو شق على حصاة ونحو ذلك مما يصحب كلها الضرر والخوف يقع في اكثرها الموت).[23]

٢ - كما نبه الزهراوي إلى ضرورة دقة التشخيص قبل البدء بأي عمل جراحي لأن اخفاق الجراح في تشخيص الحالة التي هو بصدد معالجتها يؤدي الى هلاك المريض دون شك[24] ويقول في ذلك ((أنا اوصيكم عن

---

[22] جلد س . ريسلر : الحضارة العربية ، ص ١٩٨

الشمري ، نهاد نعمه مجيد حسن : تاريخ الطب في قرطبة الإسلامية رسالة ماجستير - كلية الآداب للبنات ، جامعة بغداد ، ٢٠٠٤ ، ص ١٠٥ .

[24] التصريف : ص ٤٦٣.

- ALBUKASIS ON SURGERY AND INSTRUMETS
ADEFINITIVE EDITION OF THE ARABIC TEXT
WITH ENGLISH TRANSLATION AND COMMENTARY
BY: M.S.SPINK AND G.L.LEWIS
LONDON THE WELLCOME INSTITUTION
OF THE HISTORY OF MEDICIONE 1973

الوقوع فيما فيه الشبهة عليكم فإنه قد يقع عليكم في هذه الصناعة ضروب من الناس يتحدرون من الاسقام فمنهم من قد ضجر من مرضه وهان عليه الموت لشدة ما يجد من سقمه)) [٢٥].

٣- ونهى الزهراوي وحذر طلابه عدم إجراء عملية جراحية للمريض وحالته لا يرجو منها شيئاً حيث يقول ((ومنهم من يبذل من حاله ويعينك به راجيا الصحة ومرضه قتال فلا ينبغي لكم أن تساعدوا من أتاكم ممن هذه صفته البتة)) [٢٦].

٤- وحذر الزهراوي طلابه من التهور والمجازفة فيقول ((رأيت طبيبا آخر قد تقدم في اخراج حصاة لرجل قد طعن في السن وكانت الحصاة كبيرة فتهور واخرجها مع قطعة جرم من المثانة فمات الرجل بعد ثلاثة أيام وكنت قد دعيت لاخراجها فرأيت من عظم الحصاة وحالة المريض ما قدرت عليه)) .

٥ - يمنع الزهراوي من الانزلاق في اغراءات المال والتوسل بمباهج الدنيا بل النظر دائما ايها افضل لإطالة الحياة وصحة المريض [٢٧] . ومن خلال العمليات التي قام بها الزهراوي والتي سوف نتناولها في كتابنا ((الزهراوي جراح العرب الاكبر)) لاحقا نجد الحذر عند الزهراوي في كل عمل يقوم به على الرغم من براعته وطول باعه في مضمار الطب

---

[٢٥] أمين ، قيس : الزهراوي ... ، مجلة المؤرخ العربي ، العدد السادس عشر ، القسم الأول ، بغداد ، ١٩٨١م ، ص ٤٦٤
[٢٦] التصريف (المصدر السابق) ص ٦٦.
[٢٧] التصريف (المصدر نفسه)

والجراحة ، ويعمل على اطالة حياة المريض مهما كانت حالته ثم يعود بالعمل الافضل والمناسب لكل حالة بعيدا عن التهور . وقد نبه في ذلك طلابه بأن لا يستغلوا ما لديهم من العلم القليل الذي لا يمكن من خلاله التجرؤ في اجراء عملية جراحية مما يؤدي إلى هلاك المريض إذ يقول ((فالعلة هي في جهل الطبيب وعدم تتبعه ودراسته فإن استغل الطبيب الجاهل بعضا من علمه أصبح مشعوذا وخاصة اذاكان ذلك الطبيب مستندا إلى بعض قواد البلد فأمن من العقاب ويستمر في عمله)) (٢٨).

– ((ويسجل التاريخ للزهراوي سبقا آخر إذ أنه قد أوصى في كل العمليات الجراحية في النصف السفلي من جسم الإنسان أن يرفع الجوف والأرجل قبل كل شيء ، حيث أن هذا الإجراء يعجل على إرجاع الدم إلى القلب ويقلله في الأقسام المرفوعة فيجعل موضع العملية واضح الرؤية وهذه الطريقة اقتبسها الغرب مباشرة عن الجراح العربي وعرفت باسم الألماني فردريك تريندلنبرغ (F . Terendelenburg)) (٢٩)،(٣٠).

وفي ختام حديثنا عن كتاب التصريف نتساءل لماذا لم يحقق وينشر هذا السفر الكبير والمهم حتى اليوم بشكل كامل ، وأردف القول لولا أنه لم تعد صحتي تعينني لأقدمت على تحقيقه ، وأملي في الشباب من الباحثين أن يشدوا العزم ويخرجوه نصا كاملا وإن ذلك ليس عليهم بعزيز إن شاء الله .

---

(٢٨) عبد الغني، مصطفى لبيب، دور الزهراوي في تأسيس علم الجراحة، دار ... المصرية ، القاهرة ، ٢٠٠٠م ، ص ٧١ .

(٢٩) التصريف (مصدر سابق) ص ٤٦٢.

(٣٠) هونكه ، سيغريد : شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٧٨ .

شعر صفوان بن ادريس التجيبي*
(دراسة اسلوبية)

الدكتورة بشرى عبد عطية
جامعة بغداد -- كلية الزراعة

الملخص :

يتناول البحث دراسة شعر الشاعر الاندلسي أبي بحرصفوان بن ادريس التجيبي على وفق المنهج الاسلوبي في الدراسة النقدية ، وقد قسم البحث الى مقدمة عرضت فيها مفهوم الاسلوبية بوصفها منهجا يقوم على دراسة الامكانات اللغوية في النص الادبي وبينت ابرز مستوياتها ممهدة لتطبيقها على شعره ، ثم قسمت البحث على النحو الاتي :

المبحث الاول : تناولت المستوى الصوتي فيه وقد ضم محورين الاول عني بالبنيات الموسيقية الداخلية من تكرار وجناس وتصريع ، في حين تناولت في المحور الثاني بنيات الموسيقى الخارجية المتمثلة بالوزن والقافية وحروف الروي .

---

* هو الشاعر الاندلسي ابو بحر صفوان بن ادريس بن ابراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن ادريس التجيبي ، الكاتب والشاعر من اهل مرسية ، كان من الادباء البلغاء ممن جمع له التقدم في النظم والنثر ، ولد سنة ٥٦١هـ وقيل سنة ستين وتوفي وهو دون الاربعين سنة٥٩٨هـ، ينظر : التكملة لكتاب الصلة ، ج ٢/٢٢٤.

اما المبحث الثاني فقد خصص للمستوى التركيبي ، وركزت فيه على ابرز الاساليب التركيبية للغة الشاعر التي تمثلت في اساليب الاستفهام والامر والنداء .

ودرست في المبحث الثالث التشكيل الصوري لدى الشاعر وانواع الصور البيانية التي ضمنها شعره ، وكان اهمها الصورة التشبيهية ، والكنائية . والاستعارية واخيرا كانت وقفتنا عند ملامح القصة في شعره .

وقد اظهر البحث ابرز السمات الاسلوبية التي تميز بها شعر صفوان بن ادريس التجيبي ومنها اعتماده الكبير على التكرار وسيلة يعكس من خلاله موقفه الشعوري والانفعالي فضلا عن توظيفه ليكون رديفا موسيقا داخليا بانواعه المختلفة مع الافادة من الجناس بانواعه المختلفة في تدعيم خطابة

كما برزت الصيغ الانشائية في اساليب خطاب حملها الشاعر دلالات توحي بمشاعره ووظفها للتعبير عن اغراض مغايرة لما وضعت له في الاصل كالاستفهام و اسلوب الامر . وكان للصورة البيانية ولاسيما التشبيهية منها حضور بارز في شعره الذي اضاف الوصف القصصي له خاصية اسلوبية مميزة .

مفهوم الاسلوبية :

وجهت الرغبة في اكتشاف ادبية النص محاولات جادة نحو تفسير عناصره وتبني منهجية تبدئها النظم وادواتها اللغة واهدافها حقيقة التشكيل اللغوي في ابعد مداه واقصى غاياته ؛ وما الاسلوبية الا نتاج تلك الرغبة في مقاربة موضوعية للعمل الادبي ساعية الى دراسته ظاهرة لغوية موسومة بميسم تواصلي واخر جمالي مكون من مستويات وظيفية تعكس تكامل النص وانسجامه .

ويفتح مصطلح الاسلوبية مجالات ارحب عند دراسة الامكانات اللغوية التي تمارس تاثيرات جمالية مع محاولة البحث عن الركائز التي يعتمد عليها هذا التاثير الجمالي ؛ بحكم التباين بين قدرات الافراد في استعمالاتهم التعبيرية عن افكارهم وحاجاتهم الى تمثلها كي تستحيل سمة ادبية يمكن من خلالها تحديد السمات الاسلوبية للمنشئ .

والاسلوبية كما يراها نور الدين السد تسعى الى وصف الظاهرة اللغوية المشكلة للخطاب الادبي وتحليلها والبحث في دلالاتها وابعادها الجمالية والفنية من دون الخروج عن سياق النص او التعسف في تفسيره[2] ؛ اي ان تركيز الاسلوبية يكون على طبيعة الدور الذي ينحصر في حدود وصفية مسرفة للنصوص الادبية شكل منها منهجا له ضوابطه وحدوده، مما حدا ببعض الدارسين الى الاعتداد بمصطلح اخر هو (علم الاسلوب) الذي يعرفه (ريفاتير) بانه ((علم يضبح الخصائص البارزة التي تتوفر لدى

ينظر : البحث الاسلوبي (معاصرة وتراث) : ٢١٠ .

[2] ينظر : الاسلوبية وتحليل الخطاب : ج١ / ٥٣.

المرسل والتي بها يؤثر في حرية التقبل لدى المتلقي بل انه يفرض على هذا المتلقي لونا معينا من الفهم و الادراك))[3] ، ومما تقدم يتضح ان مجال الدراسة الاسلوبية يكمن في اللغة في المقام الاول،فهي نقطة الانطلاق الاساسية ولذلك تقسم مجالات الاسلوبية الى المستويات الاتية:

اولا : المستوى الصوتي : وهو الذي يهتم بدراسة الطرائق الصوتية المتبعة في النص والايقاع ، ويضم ابواب البديع الصوتي من تكرار وجناس وغيرها.

ثانيا: المستوى التركيبي ويبحث في تراكيب الجمل في النص تحديدا لطبيعتها ، ورصدا للعلاقة بين دلالتها الذاتية المرتبطة بها من ناحية، ودلالة المفردات الواردة فيها،ودلالة السياق الذي يضمها من ناحية اخرى.

ثالثا: المستوى الصوري : ويهتم بتشكيل الصورة البيانية كالتشبيه والاستعارة والمجاز .

ومن خلال قراءتنا لديوان صفوان بن ادريس التجيبي لاحظنا ان هنالك مجموعة من الظواهر الاسلوبية التي تشكل علامات بارزة في شعره لذا انطلق البحث لابرازها والكشف عن وظيفتها وقدرتها على تقديم الفكرة وايصال الاحساس الذي يريده الشاعر من خلال المستويات الاتية .

المبحث الاول : المستوى الصوتي

للموسيقى في الشعر مكانة بارزة اذ تعد عنصرا مهما في بنائه الفني والفكري وهي في الوقت نفسه صورة النص السمعية فعن طريق ما

---

[3] البلاغة والاسلوبية : ٢١٢

تعطي هذه الأصوات من ايحاءات تعبر عن الحالة الشعورية للمبدع فيستطيع المتلقي أن يرسم لهذه الأصوات هيئات وأشكال بواسطة خياله وذلك نتيجة لطبيعة الصوت الذي يحدثه ((فالصوت والدلالة يشكلان علاقة ترابطية بين الشكل الفني الحسي القائم على [illegible] الذات والتنوع في انماط الموسيقى))[1]، وقد عنيت الدراسة الأسلوبية بالمستوى الصوتي كونه ((وسيلة توصيل رمزية تثير معنى ادراكيا))[2] ومن هنا كانت الموسيقى أحد المكونات البنائية الشعرية إذ أن ((البنية الإيقاعية هي أول المظاهر المادية المحسوسة للنسيج الشعري الصوتي وعلاقته بالدلالة))[3]

فموسيقى الشعر بنوعيها الخارجي والداخلي من أهم الوسائل التي تعد عليها الشاعر في تجسيد إحساسه وانفعاله في شتى أمور الحياة فاستطاعت موسيقاه الكشف عن مدى الخروج بالألفاظ في تجسيد أفكار الشاعر وأحاسيسه، وستكون دراسة المستوى الصوتي هنا في محورين:

الأول : محور الموسيقى الداخلية

وتسمى هذه الموسيقى بالإبداع الموسيقي فالبنية الإيقاعية في الشعر تتشكل من العناصر اللغوية التي تتشكل منها تلك النصوص الحاملة المميزة لها عن الاستعمال الاعتيادي وتسهم في بناء البنية الشعرية من خلال الحدث والدلالة الإيقاعية

---

(1) الأسلوبية الصوتية، الدكتور محمد [illegible]

(2) الأسلوبية الصوتية (الدكتور محمد [illegible]).

(3) [illegible] الشعرية [illegible]

[illegible] تحليل النص الأدبي [illegible]

وينشأ الايقاع الموسيقي من تكرار وحدة النغم((على نحو ما في الكلام او في البيت ، اي الحركات والسكنات على نحو منتظم))[3] فيتحقق عن طريق الجرس الموسيقي ، والتناسق اللفظي فضلاً عن التنغيم الصوتي الذي اعتمده الشاعر في التعبير عن الحالة النفسية والانفعالية التي يمر بها ، وابرز البنيات الصوتية التي ظهرت في شعر صفوان بن ادريس تمثلت في :

بنيــة التكــرار :

للتكرار دور في انسياب النص فاعليته الصوتية وسط تكامل لعناصره المتتابعة ، فهو عملية ((وليدة ضرورة لغوية او مدلولية او توازن صوتي او هي تجري لملء البيت والبلوغ به الى منتهاه))[4] فيعدو علامة اسلوبية في حال وروده في بداية النص الشعري مانحا اياه دفعا غنائيا،ونقله من لحظة التوتر الى لحظة الانفراج او يكون طرفا في تشكيل المتن لتكثيف الدلالة وزيادة الانتباه او قد يرتبط بالسؤال ليدل على زخم عاطفي ونفسي .

وقد اتخذ التكرار في ديوان التجيبي حضوراً متميزا وباشكال عدة منها :

١) تكرار الحروف :

يعد ابسط انواع التكرار وذلك لوقوعه بشكل لافت للنظر في الشعر ، وقد يأتي بقصد من الشاعر يسعى من خلاله الى احداث ايقاع صوتي متكرر في النص ، وقد يأتي من دون وعي منه وفي الحالتين لابد ان يحفظ

النقد الادبي : ٤٦٨ .

خصائص الاسلوب في الشوقيات : ٦٢ .

للشاعر للنص جمالية ولايكون القصد التلاعب بالحروف واظهار المقدرة على الاتيان به اتيانا متكلفا ، وقد ورد تكرار الحروف في شعر صفوان في قصائد ومقطعات عدة حتى ليشعرنا احيانا ان وعي الشاعر كان وراء هذا اللون من التكرار ليخلق ايقاعا موسيقيا داخليا لنصه يجسد من خلاله حالته الشعورية ، ومنه قوله :

لعل رسول البرق يغتنمُ الاجرا   فينثر على مــاء عبرتــــه نثــــرا

معاملة اربى بها غير مذنب   فاقضيه دمعَ العينِ عن نقطة بحرا

ليسقي من تدمير قطرا محببا   يقر بعين القطر ان تشرب القطرا [10]

يتكرر في الابيات الثلاثة حرف (القاف) ثماني مرات ، ولعل تكراره وهو من ((الحروف التي لها صوت شديد الوقع لانها جمعت بين الجهر والشدة)) [11] ينسجم مع الموقف النفسي الذي يعبر عنه الشاعر فهو في موقف مدح مدينته مرسية وتفضيلها على سائر مدن الاندلس فاراد ابراز شدة تعلقه بها والجهر بمحاسنها وتوجيه السامع من خلال هذا التكرار الى تبني قناعته بفضلها وتميزها .

وقد يكرر الشاعر حرفين او اكثر ليحقق حضورا موسيقيا صاخبا يتناسب مع دفق مشاعره ، ومنه قوله :

انسمي من سنىّ القرى رفقا بمـــن   يفني عليك صبابـــةً وغرامـــا

انا ضيف حسنك فاصطنعني انه   ضيف الهوى يستوجب الاكرامـــا

لما نظرت نحوه حملان بسنــــ   في صحن وجنتك استقنت مقاما

---

(10) الديوان : ٩٠-٩١ ، وينظر : ص [illegible]

(11) دروس في علم اصوات العربية : ٣٠ .

افنيت جسم الصمت سوقا مثلما ... افنى سمقيك قبلك الاصنام

يا زهرة سكنت فؤادي غضة ... انى تبوأت اللهيب كمانما

حتى كأن الحب قال لاضلعي: ... يا نار كن بردا له وسلاما. [12]

نلاحظ ان الشاعر كرر حروف(السين ، والقاف ، والفاء) الا ان الغلبة كانت للسين فقد تكرر وروده‍ا عشر مرات وربما يعود ذلك الى انه حرف سهل ((النطق به لا يحتاج الى جهد عضلي))[13] ، لذلك فان تكراره يحدث جرسا موسيقيا خفيفا تستريح له اذن السامع ولاسيما ان تكراره في الابيات جاء عفويا وانسجم مع تكرار حرف القاف القوي ،وبذلك جمع في نصه بين السلاسة والقوة .

تكرار الكلمات :

يحدث التكرار في البيت او الابيات ((ايقاعا صوتيا يشارك في موسيقية الشعر، لان تكرار الصيغه يعني نمطا تتردد فيه وحداته الصوتية))[14] وتكرار المفردة ظاهرة اسلوبية تميز بها شعر صفوان وبغية استجلاء هذا الملمح الاسلوبي سنقف عند بعض النماذج التي اعتمدت هذا التكرار الذي وردَ باشكال عدة بغض النظر عن كون الكلمة المكررة اسما او فعلا او حرفا ، فياخذ مثلا :

---

[12] الديوان : ٢١٨

[13] موسيقى الشعر : ٣٠

[14] الاسلوبية الصوتية ، محمد صالح : ٣٥.

١) **شكلا افقيا:**

ويكون بتكرار الالفاظ بشكل افقي في البيت الشعري ومنه قوله :

وقد شمخ **الوقار** به ولكن   **وقار** ذويه علّمه **الوقارا**.[15]

فتكرار الشاعر لكلمة (الوقار) جاء في معرض المدح اي انه كان بوعي وادراك منه لذا فهو مقصود لذاته لتأكيد الدلالة التي يرمي اليها وهي هيبة ممدوحه ورجاحة عقله.

وقوله :

اخي **برُّ** المودة كل **بر**   اذا **بر** الاشقة الانتسابا.[16]

الخطاب هنا توجيهي فيه حث على البر وبغية تأكيد المعنى كرر الشاعر لفظة (بر) ليؤدي التكرار وظيفة دلالية تضاف الى وظيفته الصوتية ، اذ ان البنية اللغوية المكررة في النص لها علاقة وثيقة بالبنية النفسية للمبدع ؛ فالكلمات والعبارات المكررة ليست الا انعكاسا للحالة النفسية .

وقد يجاور الشاعر بين الالفاظ المكررة المنسجمة مع بعضها للتعبير عن غايته ، كما في قوله :

جاورتهم فانخفضت هونا   يا رب **خفض** على **الجوار**.[17]

---

(15) الديوان : ١٩٨ .

(16) م.ن : ١٧١ .

(17) م.ن : ٢٠٢ .

نلاحظ ان الشاعر عمد الى المجاورة بين الحفض والحوار لايصال معنى سوء خلق وهوان من يصفهم .

٢) التكرار العمودي :

وهو تكرار الكلمة عموديا في مجموعة ابيات متتالية وبمواقع مختلفة فقد ترد في اول البيت او وسطه او خاتمته ، ومن امثلة هذا التكرار قوله :

خليلي قوما فاحبسا طَرْق **الصبا**	مخافة ان يحمي بزفرتي الحـــرى
فان **الصبا** ريحٌ على كريمــــةٌ	باية ما تسري من الجنة الصغرى

ثم يعود بعد خمسة ابيات ليقول :

وقد اسكرتْ اعطافَ اغصانها **الصبا**	وما كنتُ اعتدُ **الصبا** قبلها خمرا
هناك بين الغصن والقطر و**الصبـــا**	**وزهر الربى** ولدت ادابى الغــرا
اذا نظم الغصنُ الحيا قال خاطرى :	تعلمْ نظامَ النثرِ من ههنا شعرا
وان نثرت ريحُ **الصبا زهر الربـــى**	تعلمت حلَّ الشعر سبله نثرا.[(١٠)]

يظهر من النص تركيز الشاعر على لفظة (الصبا) ثم تكراره لـ (زهر الربى) ليعكس نشوة الشاعر بما تثيره هذه المفردة في داخله من احساس اراد مشاركته مع المتلقي وايصاله الى التعايش معه اذ ان الكلمة ليست الا عنصرا له درجته التكثيفية ومدلوله الخاص و((ان قيمة كل عنصر بنائيا تكمن على وجه التحديد في كيفية اندماجه وتصاعده الى مايليه ، ويصبح تكرارها ليس مجرد توقع موسيقي رتيب بل هو امعان في تكوين التشكيل التصويري للقصيدة وتدعيم لمستوياتها العديدة في مبنى

---

(١٠) الديوان: ١٩٢.

بركتين)) [19] ، لذا ختم الشاعر أبياته بجمع بين (المجد ، زهر حزين) فكلاهما يمثلان صورة لحالته الشعورية وتعبيرا عن احساسه الذي يجتهد في جعل المتلقي يشاركه اياه .

وقد يشكل التكرار احيانا فضاء فسيحا يعبر من خلاله الشاعر عن مشاعره من دون حدود ، يقول صفوان :

فإن فترتْ نـارُ الضلوعِ هنيهـة ... فسوف ترى تفجيره للحيا العـدِ

وإن ضنَّ صوبُ المزنِ يوما فادمعي ... تنوبُ كما نابَ الجميعُ عن الفردِ

وإن هطلا يوما بساحتها معاً ... فرواهما م مصاب من منتهى الود [20]

يستوقفنا النص بابراز التكرار الحالة النفسية للشاعر اذ ان الابنية اللغوية المكررة في النص لها دور كبير في التعبير عن حالته الشعورية لانه ((كلما تشابهت الابنية اللغوية فانها تمثل بنية نفسية متشابهة منسجمة تهدف الى تبليغ الرسالة عن طريق التكرار والاعادة))[21]. وقد اوجد الشاعر لتعبيره فضاءً واسعا من خلال تكرار (ان) التي يستطيع الشاعر ان يستثمرها في الاطناب في القول مع ضمان عدم الملل لمتلقيه وفي الوقت نفسه تجعلها ركيزة يتكئ عليها في مواصلة التعبير عن مشاعره ورسم صور لا تملها النفس لانها تستشعرها

ومما تقدم نجد ان تكرار الكلمة في سياق البيت الواحد يكاد يكون مقصودا من الشاعر لتكثيف الدلالة وتثبيت الفكرة لدى متلقيه في حين ان

---

(19) انتاج الدلالة : ٢٧٥.

(20) الديوان : ١٨٢ - ١٨٣.

(21) تحليل الخطاب الشعري : ٣٩ .

هذا سببا لايشترط لها حضور القصد اذ في الغالب يكون عفويا تدفع به الحالة النفسية التي تفرض حضور الالفاظ من دون وعي لكنه يكشف عن طاقات ابداعية للشاعر ويمنح تعبيره ثراءً دلالياً يجسد للمتلقي التجربة الشعورية التي عايشها المبدع

بنية الجناس :

تقوم هذه البنية على التشابه في الالفاظ مما يُحقق ايقاعا موسيقيا يضفي على البيت حلاوة ، والجناس بانواعه يعزز الصلات المعنوية التي تربط بين الوحدات المعجمية كما ان تعادل الاصوات يضمن تعادلا معنويا[32] ، وقد ورد الجناس في شعر صفوان بالشكل الاتي

الجناس التام :

وفيه تتفق الالفاظ في الحروف والحركات والترتيب والابنية ، ومنه قوله:

حمى الهوى قلبه واوقد | فهو على ان يموت او قد.[33]

نلاحظ ان الشاعر جانس بين الفعل(اوقد) بمعنى اشعل وبين اللفظين (او قد) بمعنى ربما.

وقوله :

لقد حييتُ بالخضراء دارا | ورنتْ شمسٌ تعلى تاج دارا.[34]

فالجناس بين (دارا) بمعنى بيت الشاعر ، و(دارا) المكان المشهور اظهر ان لا انفصال بين الوظيفة الدلالية والايقاعية في توظيف الشاعر الجناس

---

[32] ينظر : في سيمياء الشعر القديم ٣٥

[33] الديوان : ١٨١ .

[34] م.ن : ١٩٦ ، وينظر : م.ن :

ويتلف الى دور ابداعيا يضاف الى وظيفته التعبيرية ؛ وهو بهذا النوع قليل الورود في شعره .

٢) الجناس الناقص :

ويقوم على اتفاق حروف كلمتين مع اختلاف في هيئة الحركة او ترتيب الحروف ، ومنه قوله :

وديار تشكو الزمان وتشكي حدثتنا عن عزة ابن همشك

تركوا في الثرى الثراء وخلوا للاثيم نهبة لاعظم ملك.[25]

فالمجانسة تتضح في (تشكو) و(تشكي) وكلاهما اشتقا عن الفعل(شكا) ثم بين(الثرى) وهو التراب، وبين(الثراء) الغنى والنماء ليعكس حالة الخراب التي حلت بديار كانت قبل ذلك عامرة ؛ فتغير الدلالة النابع من تغير الالفاظ مع اتفاق الايقاع جاء متوافقا مع تغير الحال ، وبذلك تتعاضد الموسيقى مع اللفظ لرسم صورة معبرة موحية ارادها الشاعر شديدة الوقع راسمة بالالفاظ ما تبصره العين في الواقع، ومن المجانسات قوله :

وشادن ذي غنج دله يروقنا طورا وطورا يروع .

نلاحظ انه على الرغم من انسجام الايقاع الصوتي بين(يروق) و (يروع) فان الفرق في المعنى بينهما شاسع فالاول يحمل دلالة الفرح والسعادة ، والثاني شدة الخوف ؛ فكان ابداع الشاعر هنا في جمعه بين

---

[25] م . ن : ٢١٣

[26] الديوان : ٢١٠

صوات متقاربة ومعاني متضادة ليعبر من خلالها عن حالة المحب المتقلبة بين فرح الوصل مع محبوبه واحساس الخوف الملازم له خشية الفراق .

كما نلاحظ حضور الجناس الاشتقاقي في شعره،وفيه التقي الكلمات عند ((اصل واحد في اللغة)) [٢٧] ، ومن خلاله يعمد الشاعر الى تكثيف البنية الايقاعية فضلا عن تاكيد الدلالة ، ومنه قوله :

يا سارقا جاء في **دعواه** بالعجب ... سامحته في قريضي **فادعي** نسبي

ينمي الى العرب العرباء **مدعيا** ... كـذاك **دعوتـه** للشعر والادب

يايها السرجُ **دعْ** للبحر لؤلـؤه ... فالدرّ للبحر ذي الامواج والحبب. [٢٨]

يبرز تكرار الالفاظ المشتقة من الفعل(دع) وقد وفق الشاعر في تكراره للالفاظ المتجانسة ، وعمل على اثراء الايقاع وتعميق الوظيفة التعبيرية اذ ((لا تنفصل الوظيفة الدلاليـة في مسالة تكثيف التجانس الصوتي عن الوظيفة الايقاعية فهما متضافرتان على خلق نص متماسك في تحقيق الوظيفة الجمالية)) [٢٩] وبذلك يصل الى الفكرة التي يروم تثبيتها في ذهن المتلقي وهي هنا تتمثل في هجائه لابن مرج الكحل .

وقوله :

ضربت غبارَ البيدِ في مهرق السُرى ... بحيث جعلتُ الليلَ في ضربه حبرا. [٣٠]

---

[٢٧] في الجناس : ١١٤ .

[٢٨] الديوان : ١٧٢.

[٢٩] بنية الايقاع في الخطاب الشعري ٩٣

[٣٠] الديوان : ١٩٥.

والجناس الناقص كثير في شعر صفوان غير انه من الملاحظ عدم تكلفه فيه فهو لم يورد الجناس على حساب المعنى فالجمال الموسيقي الناتج عن الجناس بنوعيه التام والناقص كان صدى للمعنى الذي اراده الشاعر وهذا هو الجناس المقبول .

التصريع :

وهو ملمح اسلوبي ظاهر في شعر ابن ادريس وفيه يتم بناء الجملة الشعرية على مستوى الحرف الواحد،وكثيرا ما أورده الشعراء في مطالع قصائدهم ، حتى عُرف لدى النقاد القدامى بانه لا ياتي الا ((في البيت الاول من القصيدة)) [٣١]

ومن مزايا التصريع البلاغية منحه الصورة ايقاعا جميلاً كما ان وجوده في أوائل القصائد يحقق قيمة تاثيرية وانفعالية متميزة لما له من ((طلاوة وموقع في النفس لاستدلالها به على قافية القصيدة قبل الانتهاء اليها)) [٣٢] ، ومنه قوله :

تحية الله وطيب السلام   على رسول الله خير الانام [٣٣]

وقوله :

تأمل على بحر المياه حُلى الزُّهر   كعهدك بالخضراء والانجم الزُّهر [٣٤]

---

[٣١] منهاج البلغاء وسراج الادباء : ٢.

[٣٢] نقد الشعر : ج١/ ص ٣٦٦.

[٣٣] الديوان : ٢١٧ ، وينظر : د . ص . ١٩٠ .

[٣٤] م . ن : د . ٢

اما التصريع في اثناء القصيدة فقد عده بعض النقاد نادرا [35] وعلى الرغم من ذلك نجده حاضرا في شعره ولاسيما في المقطعات كقوله:

سرّ النوى في ضمير كتماني   ان لم تنافق عليّ اجفاني
ابلى لقلبي وليس في بدنـــي   ربّ طليق يشقى به العاني. [36]

الثاني : محور الموسيقى الخارجية :

تتمثل الموسيقى الخارجية بالوزن والقافية اللذين يرسمان الاطار الخارجي لموسيقى الشعر باستغلالها ما يقدمه الصوت من ((حيوية نغمية موسيقية ترتبط ارتباطا صميميا بموسيقية اللغة وتركيبها الايقاعي من جهة ، وبطبيعة التشكيلات الموسيقية التي نمتها الفاعلية الفنية العربية من جهة اخرى) [37] ، وسنتناول المكونات الايقاعية في الموسيقى الخارجية ، والوقوف على جماليات البعد العروضي الذي استثمره الشاعر من خلال:

اولا : الـوزن

من الباحثين من رأى ان هناك تناسبا في القصيدة بين البحر والموضوع[38] من خلال تحديد طابع نفسي لكل وزن او مجموعة من الاوزان لكن نظم الشعراء ومنهم شاعرنا لم يلتزم بهذا التحديد فقد نظم في مختلف الاوزان الشعرية للتعبير عن تجربته الشعورية وبذلك اوضح ان لا وجود لرابط

---

(35) ينظر : جدلية الخفاء والتجلي/١٢٣.

(36) الديوان : ٢٢٠، وينظر : م.ن/ ٢٠٩.

(37) في البنية الايقاعية : ٢٣٠ .

(38) ينظر : التفسير النفسي/٥٩.

البحور بالموضوعات اذ يستطيع الشاعر ان يعبر عن موضوعه في اي بحر شاء انما يتوقف الابداع على قدرته على تطويع البحر بايقاعاته بما يتلاءم وافكاره وموضوعاته، ومفرداته، وصوره .

وفي شعر التجيبي نجده قد فضل النظم في البحور الطويلة والتامة على ما سواها فكانت الغلبة للبحر الكامل اذ اعتمد موسيقاه القوية الرنانة في نقل انفعالاته ومشاعره ، ومنه قوله :

حـــاذ الرُبى من بانـة الجرعـــــاء نـوان من دمعي وغيم سماء

فالدمعُ يقضي عندها حقَ الهـــوى والغيـمُ حـقَ البانة الغنــاء

حلت الصدورُ من القلوب كما حلت تلك المقاصرَ من مها وظباء.[39]

ثم ياتي بحر الطويل في نسبة نظم الشاعر فيه ، ومنه قوله :

ولم ارَ فيما تشتهي العين منظرا كتفاحةٍ في بركة بقـرار

يفيض عليهـا ماؤها فكانهـا بقية خدٍّ في اخضرار عذار.[40]

اما البحور القصيرة و المجزوة فقد تنوعت الموضوعات التي نظم فيها على هذه البحور ، ومنه قوله في السريع :

سلّمَ اذ مرّ بنا شادنٌ يا ليتهُ من لحظه سلما

وقبّل الاصبعَ من تيهه كانه يستُرُ عنا الفما.[41]

---

[39] الديوان : ١٦١.

[40] م.ن : ٢٠٠ .

[41] م.ن : ٢١٩.

وقوله في الشعر الديني:

تحيـــة الله وطيب السـلام ... على رسول الله خير الانام

على الذي فتح باب الهـدى ... وقال للناس: ادخلوا بالسلام

بدر الهدى غيم الندى والسدى ... وما عسى ان يتناهى الكلام[٤٢]

وشواهد بحر السريع قليلة في شعر صفوان ولعل ذلك يرجع الى ما ذهب اليه الدكتور ابراهيم انيس س((اننا حين ننشد شعرا من هذا البحر نشعر باضطراب فـي الموسيقى لا تستريح اليه الاذان الا بعد مران طويل ، وذلك لقلة ما نظم منه ، والاذان تعتاد النغمات الكثيرة التردد)) [٤٣]، وهذا ما يفسر كثرة نظم صفوان بن ادريس في بحور الكامل والطويل والبسيط والوافـر ، فاوزانها مالوفة تتميز بكثرة المقاطع مما يجعل الاذن تستريح الى سماعها كما انها تتناسب مع موضوعاته ، وبهذا جاءت الموسيقى مناسبة للحالة الشعورية التي يكون عليها الشاعر حين ينظم شعره .

ثانيا: القـافية

للقافية دور مهم في تحقيق المتماثلات الصوتية في القصيدة داخليا وخارجيا للنهوض بمهمتها الايقاعية من خلال بنياتها الصرفية والنحوية والصوتية ، وهناك من عد القافية شكلا من اشكال التكرار الصوتي في خاتمة البيت ومعاودة لنغمية البيت الرئيسة في النص الشعري ؛ فهي تقف متماثلة تماثلا صوتيا خارجيا وانها تكرار للاصوات في البيت الشعري. [٤٤]

---

(٤٢) م . ن : ٢١٧

(٤٣) موسيقى الشعر : ٩

(٤٤) ينظر . في بنية اللغة الشعرية / ٧٤

وتنقسم القوافي الى:

١- القافية المطلقة :

ويكون فيها حرف الروي متحركا بحركات المد المعروفة وهي اوضح للسامع واسر للاذان ، وقد مثلت اكثر قوافي شاعرنا ومنها قوله :

يقول اذا رآني من دهاه ؟ ... كأن بمهجتي احدا سواه

وما ادراه بالشكوى ولكن ... تدلله بزبـــدهُ صبـــاه

وقالوا هل جنى شيئا عليه ... هلال الافق يمنحه قلاه.[45]

وقوله:

ابرز من وجنته وردة ... اودعها سوسنة عصفرا

فانما صورته آيـــة ... حسنها من سوسن عنبر.[46]

٢- القافية المقيدة :

وهي التي يكون حرف الروي فيها ساكنا، ومنها قوله:

يا قمرا مطلعه اضلعي ... له سواد القلب فيها غسقْ

وربما استوقد نار الهوى ... فذاب فيها لونه عن شفقْ

ملكتني في دوله من صبا ... وصدتني في شركه من حدقْ

عندي من حبك ما لو سرت ... في البحر منه شعلة لاحترقْ.[47]

---

(45) الديوان : ٢٢١.

(46) الديوان : ٢٠١.

(47) الديوان : ٢١٢ ، وينظر : م . ن/ ٢١١، ٢١٧

وقد وفق صفوان في استعمال هذه القافية المقيدة التي تناسب الحالة النفسية التي عليها الشاعر من انفعال . وقد استخدمها شاعرنا بقلة وهو في ذلك مساير نهج الشعر العربي ((فالشعر موسيقى والموسيقى تكون بالحركة لا بالسكون ولاتكون بالسكون ولذا كان الشعر اشد حرصا على الحركة في قوافيه منه على السكون . ومع ذلك لم يرفض الشعر السكون رفضا تاما فارتضى القوافي المقيدة بالسكون لا لمحبة السكون نفسه وانما لاصطناع تقييد القافية باعتباره طريقة تعبيرية ذات قيمة خاصة))[1].

٣- حروف الروي

باستقرائنا شعر صفوان ظهر بوضوح انه مال الى حروف معينة واعرض عن اخرى فقد جاءت اغلب قصائده في حروف (الراء ، والدال ، والباء ، واللام) ، واقلها ورودا في حروف (الهاء ، والقاف ، والكاف) ، وهو لم ينظم في حروف (الجيم ، والحاء ، والزاي ، والصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، والغين ، والواو ، والياء) وربما يعود ذلك الى ان بعضها مما يقل او يندر النظم فيه .

اما اكثر حروف الروي استعمالا في شعره فهو (الراء) ومنه قوله :

يا جار الناس لو سالنا دهرنا ... في ان يعودَ بمثله لم يقدر

خرق الزمانُ لنا به عاداته ... فلو اقترحنا النجم لم يتعذر

في فتيةٍ علمتْ ذكاء بحسنهم ... فتلفعتْ من غيمها في مئزر

والسرحةُ الغناءُ قد قبضت به ... كف النسيم على لواء اخضر

---

(١) اللغة العربية معناها ومبناها ص ٢٧١ .

(٢) الديوان : ٢٠١ ، وينظر : ص ... ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ١٩٩ ، ٢٠٧ ، ٢٠٦ ، ... ، ٢٠٠ .

ان وقوع الراء رويا كثير في الشعر العربي [٥٠] ، لذلك جاءت موسيقى شاعرنا منسجمة مع ما اعتادته اذن السامع ، كما ان الراء من الاصوات المتوسطة ((ليست شديدة ولا رخوة)) [٥١] لذلك كثرة في ابنية الكلام ، ومن حروف الروي التي فضلها صفوان حرف الدال، ومنه قوله :

اومى الى خـد بسوسنـــة   صفراء صبغتْ من وجنتي عبده

لم ترَ عيني من قبله غصنا   سوسنـــه نابــــت ازا ورده

اعملتْ زجري فقلت ربتمـــا   قرب خد المشوق من خـــده[٥٢]

المبحث الثاني : المستوى التركيبي

ان مفردات اللغة في ذاتها لا تسم اللغة الشعرية بالتميز ، لان تميز المبدع ينتج عن تاليفه بين دوال اللغة ؛ فالنص الشعري ليس مجموعة من المفردات المتناثرة اذ لو كان الامر كذلك ((لم تكن هناك لغة شعرية خاصة ، اما لو كنا نعني باللغة الشعرية تراكيب مكونة من كلمات ومصنوعة بانساق معينة فلا شك اذن في وجود لغة شعرية لا تتميز عما سواها بمضمونها وانما ببنيتها)) [٥٣] ، وتهتم دراسة المستوى التركيبي لدى شاعر ما بالكشف عن خصوصية بنائه لهذه التراكيب وتميزها ، اذ تكشف الدراسة عن العلاقة القوية بين لغة النص الشعري ودلالته من خلال وعي

---

[٥٠] ينظر : موسيقى الشعر / ٢٤٨ .

[٥١] مبادئ اللسانيات : ٢٤٨.

[٥٢] الديوان : ١٨٨ .

[٥٣] نظرية البنائية في النقد الادبي : ٣٤٩ .

تمتـ ـع بالصياغة ، وسنعرض أبرز التراكيب في شعر صفوان والوقوف على خصوصية ودلالة هذه التراكيب .

اولا : اسلوب الاستفهام :

يتميز اسلوب الاستفهام في العمل الادبي بتجاوزه لذاته ، وهذا التجاوز ((هو مناط تالقه وجمالياته وسبيله الى الدخول في الاساليب ذات الشحنات الانفعالية الوجدانية ، وبالتالي فهو سبيله الى الدخول في حقل الدراسة الاسلوبية)) (٥٤) .

وقد تردد اسلوب الاستفهام في شعر صفوان اثنتي عشرة مرة باسلوبه المجازي في اغراض مختلفة وكانت الغلبة لحروف الاستفهام(هل ، والهمزة) ومنه قوله :

ولست اذيل بالمدح القوافي ولا ارضى بخطتها اكتسابا

أ امدح من به أهجو مديحي اذا طيبتُ بالمسك الكلابا.؟ (٥٥)

جاء الاستفهام معبرا عن توتر المبدع وحدة انفعاله واحساسه بتناقض المجتمع ومعبرا عن طبيعة بنائه النفسي اذ هو يرفض ان يكون ممن يتكسب بشعره ويقول في ممدوحه خلاف ما يجد .

و يلجا الشاعر الى تكرار الاستفهام في محاولة منه للتعبير عن حسرته وتجسيد حيرته واضطرابه فنجده يقول :

---

(٥٤) اسلوبية السؤال(رؤية في التنظير البلاغي) : ٦١.

(٥٥) الديوان : ١٧٠.

عهدي بالعرس المنعم دوحه   سقتك دموعي انها مزنة سكرا؟

فكم فيك من يوم اغرّ محجّل   تقضتْ امانيه فخلدتها ذكرا؟ .[56]

وقولـــه :

فاين بياني او فاين فصاحتي   اذا لم اعد ذكر الاكارم او ابدي .[57]

ان اعتماد الشاعر على اسلوب الاستفهام بهذا التكثيف ياتي تعبيرا عن الم وحسرة و كل هذه التساؤلات والاستفهامات التي يطرحها شاعرنا انما هي تعبير عن هواجس الشاعر وافكاره التي يعرف جواب بعضها مسبقا وحتى تلك التي لا نعرف جوابه . فهو يطلق ذلك الاستفهام الذي يتجسد في لحظة حسرة والم تارة،وتارة أخرى حزن على واقع مؤلم.

اسلوب الامـر :

تتم دراسة اسلوب الامر كونه اسلوبا انشائيا قد وظف في الشعر لغير ما وضع له في الاصل ، فيخرج الى معان اخر تستفاد من سياق الكلام وقرائـن الاحـوال[58] ، وقد اعتمد النجيبي اسـلوب الامر في جذب انتباه المتلقي ودفعه الى مشاركته اياه بما يكشف عن وجدانه وذلك حين كرره في مدح ال البيت بقوله:

اومض ببرق الاضلع   واسكب غمام الادمع

واحزن طويلا واجزع   فهو مكان الجزع

---

(56) م . ن : ١٩٤.

(57) الديوان : ١٨٥.

(58) ينظر: شعر الفرزدق – دراسة اسلوبية : ٦٢ .

وانثر دماء المقلتين ثالما على الحسين
وابك بدمع دون عين ان قلّ فيضُ الادمع .[59]

وظف الشاعر تكرار فعل الامر في سياق الحديث الى الذات مثيرا عاطفة دينية فضلا عن استحضار المتلقي ودفعه الى ادراك المضمون الدلالي لاسلوب الامر في موضوعه فهو من خلاله يعزز قيمة دينية واعتقاد في نفس متلقيه .

كما يؤدي خطاب الامر دورا مؤثرا حين يرد في حشو الشعر اذ يسهم في اعادة جذب انتباه المتلقي وتحفيزه ودفع الملل عنه ، ومنه قوله في الغزل:

يا عين سُحي ولا تشحي ولو بدمع بحذفِ عين .[60]

افاد الشاعر من فعل الامر في التعبير عن حالة الحرمان الشديد ، فالامر للعين بسح دموعها وزجرها عن الشح بها مزج بين الالم والاستعطاف .

وفي الهجاء ياتي ليعظم دلالة التقريع بقوله :

يا قاطع البيدِ يطويها وينشرها الى الجزيرة ينضى بدُنَ العيس
الثم بها عن اخي حبٍّ وذي كلفٍ يدَ العلا والقوافي وابنَ ادريس.[61]

---

[59] الديوان : ٢٠٩ .

[60] الديوان : ٢٢٠

[61] م.ن : ٢٠٨ .

اسلوب النداء :

من الاساليب الانشائية التي استعملها الشاعر مفارقا بها دلالته الوضعية (طلب الاقبال) الى دلالات اخرى متنوعة تمنح النص الشعري ثراءً فضلا عن ان اسلوب النداء يعمل الشاعر من خلاله على جذب المتلقي ، وقد تردد في شعر التجيبي في مطالع النصوص وفي حشوها احيانا ، ومنه قوله متغزلا :

يا حُسنه والحسنُ بعضَ صفاته والسحرُ مقصورٌ على حركاته

بدرا لو ان البدر قيل له اقترح املا لقال اكونُ من هالاته.[٦٢]

اراد الشاعر من افتتاحه باسلوب النداء اثارة المتلقي ومنح خطابه سمة الحيوية التي تمنحها الاساليب الانشائية للنص الشعري فضلا عن العفوية وهو يصف حسن محبوبه .

وفي الهجاء نجده يحمل دلالة الزجر ، يقول :

يا سارقا جاءَ في دعواه بالعجب سامحته في قريضي فادعى نسبي[٦٣]

اما استعماله هذا الاسلوب في حشو النصوص فقد ابتغى منه اثارة المتلقي وابقاءه في دائرة الحدث على وفق ما ينسجم مع السياق الذي يرد فيه وهذا يتضح في قوله :

خلت الصدورُ من القلوبِ كما خلت تلك المقاصرُ من مها وظباء

---

[٦٢] م . ن : ١٧٤ .

[٦٣] الديوان : ١٧٢ .

صوره الحية الممجية . فعالم الصور عالم ابداعي ، ولا يكتفي فيه الوعي بادراك العالم بل يعيد انتاجه وخلقه

ومستويات التشكيل الصوري متعددة يمكن القول ان البلاغيين القدماء حصروها في علم البيان ، لان التشكيلات الفنية التي يقوم عليها علم البيان هي اساس الدرس الاسلوبي . ولكن بطريقة مختلفة تتجاوز الناحية التشكيلية الى دراسة تحليلية تقوم على رصد الظاهرة الفنية وتحليلها وابراز علاقتها بالمعنى ، وفي موضوعنا سنبحث في الخصائص الاسلوبية لمستويات تشكيل الصورة التي تكسب النص سمته الشعرية وستكون دراستنا هذه المستويات في ظل الجانب الدلالي لاساليب البيان وتشكيل الصورة الشعرية من خلال انواع الصور الاتية :

الصورة التشبيهية :

تتمثل في الصورة التشبيهية قاعدة جمالية مبنية على اساس ايجاد ضرب من الالفة والانسجام بين شيئين متباينين؛ فهناك نقطة التقاء في ذهن مبدع النص يصل اليها بطريق التشبيه ، وهذا يعني انه ((موازاة دقيقة بين مستوى التعبير ومستوى المحتوى))[66] اي ان ((قيمة التشبيه لا تكتسب من طرفيه فقط . ولا من وجود الشبه الموجود بينهما ، انما تكون مستمدة من الموقف الذي يدل عليه السياق ويستند عليه الحس الشعوري اثناء الموقف التعبيري))[67].

---

(٦٦) بنية اللغة الشعرية : ١٢١ .

فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور : ٥ ١١ – ١٧٦.

أبدع الشاعر في تشبيهه الزمن بالحاسب المتعسف وعلى الرغم من توافر اركان التشبيه ووضوحه الا انه استطاع اضفاء الابتكار في صورته حين جعل نفسه مدارا لها ووظفها لنقل احساسه بالغبن وشكوى حاله .

وفي معرض وصف بعض مفردات الطبيعة المحيطة ذات المنزلة الاثيرة لدى الشاعر تظهر قيمة الدلالة اللونية المستقاة من التشبيهات الموجودة في سياق النص ، وذلك لقيامها بدور مزدوج في الدلالة، فهي من ناحية تسهم في احكام التصوير من خلال اكسابه ابعاده اللونية اللازمة ومن ناحية اخرى تومئ الى ما تمثله من مكانة ومنزلة لدى الشاعر ، وذلك ما نجده في قولـــــه :

على حُبشيةٍ* نقاء خاضتْ عباب البحر و اقتعدت مطاه
كأن شراعها شيبٌ بفودى نجاشي تثور ذؤابتـــــاه
وبحر كالسماء له حباب لها بكواكب الافق اشباه
تبدتْ في ذرى الامواج دُرا كمثل الزهر تحمله ربـــاه
— — — —
كأن الموج لما ان فرعنا* هناك في تصيدنا ذراه
جبالُ زمرد والحوتُ فيها سنائك كاللجين لمن يراه[٧١].

---

[٧١] الديوان ٢٢٢- ٢٢٣، * حبشية : النمل الاسود وهنا يشبه الشاعر السفينة به. * فرعنا: علونا

وقد عدّ التشبيه اصلا من اصول الشعر وقاعدة من قواعده ولاسيما لدى اللغويين والبلاغيين[٦٨] . والتشبيه لدى شاعرنا من اهم وسائل تشكيل الصورة واكثرها استعمالا ولعل ابرز سمة اسلوبية في هذه الصور هي غلبة الجانب الحسي على العقلي . ومنه قوله :

والوردُ في شطِ الخليج كأنه رمدٌ المــدُ بمقلةٍ زرقـاء

وكان غصنَ الزهر في حضر الربى زهرُ النجومِ تلوحُ بالخضراءِ [٦٩]

نلاحظ ان الشاعر لم يوظف اسلوب التشبيه بوصفه رابطا جامعا بين بيتين او عدة ابيات بل اثر ان يجعله مقصودا لذاته بوصفه عنصرا تصويريا قادرا على توليد الدلالات وابرازها في السياق الكلي ولكن هذا لم يحل دون ان يكون لهذا الاسلوب دوره في تحقيق الاحكام والترابط وان انحصر مدى هذا الدور في نطاق البيت الواحد ففي البيت الاول يستحضر الاحساس في الصورة قبل اي شيء آخر ليشعر المتلقي بقوة تأثيرها فيه؛ فالرمد يرتبط باحساس الالم ثم اللون ،اما في البيت الثاني فيركز على حاسة الابصار فضلا عن وضع المتلقي في حالة التمعن في الصورة والمتعة في ربط اجزائها .

ومن تشبيهاته العقلية قوله :

كان زماني حاسبٌ متعسفٌ يطارحني كسرا وما يحسنُ الجبرا. [٧٠]

---

[٦٨] ينظر : الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي : ١٦.

[٦٩] الديوان : ١٦٣.

[٧٠] م . ن : ١٩٥.

اعتمد الشاعر على التشبيه في سرد احداث رحلة صيد جمعته مع صحبته وفي اثنائها واجهوا عاصفة وهم في وسط البحر ، وابرز ما يلاحظ على النص ارتكاز كل بيت منه على التشبيه ليكون اسلوبا متميزا في نقل الحدث اذ من خلاله ترسم اطراف الصورة ويبعث الحياة في اجزائها.

واكثر ادوات التشبيه تداولا في شعره كانت(كان ، و الكاف) ، ومنه قوله :

كان فاه عصا موسى اذا انفتت وما تقدمه افك من السحره.[٧٢]

من السمات الاسلوبية التي تؤشر لشاعرنا في الصورة التشبيهية تقديمه لاداة التشبيه فضلا عن غلبة التشبيه المجمل على بقية الانواع ليمنح المتلقي متعة استحضار وجه الشبه ، ففي هذا البيت يصور رجلا أكولا مشبها اياه بعصا سيدنا موسى التي تلقفت حبال السحرة ومن خلال التناص اضفى على صورته قوة تاثيرية تدعم الطاقة التشبيهيه في الصورة وتؤازرها .

الصورة الاستعارية :

عُدتْ الاستعارة جزء من التشبيه وقد ذهب عبد القاهر الجرجاني الى ان((التشبيه كالاصل في الاستعارهوهي تشبيه بالفرع له او صورة مقتضبة من صوره)) [٧٣] وعلى الرغم من ذلك تتميز الاستعارة بكونها اقدر على نقل تجربة الشاعر واحاسيسه الى المتلقي، اذ انها تزيل الحدود الفاصلة بين اطراف التشبيه ليندمج الطرفان في الصورة الاستعارية بحيث تتداخل الاشياء فيها، وتتوحد الماهيات والموجودات حتى تكاد تختفي الحدود الفاصلة

---

(٧٢) م . ن : ٢٠٠ .

(٧٣) اساس البلاغة : ٢٩ .

بين عناصرها لذا فان الاستعارة ليست ((مجرد تشبيه حذف احد طرفيه، بل انها اذا احسن استعمالها للدلالة على الصورة اقوى ايحاءٍ من التشبيه، لما تتضمنه من سعة الدلالة وقوة التصوير)) [٧٤]

ومن استقراء شعر صفوان بن ادريس التجيبي نجده يلجا في اكثر صوره الاستعارية الى اسلوب التشخيص ؛ فيستنطق الجمادات ويضفي الحياة على غير العاقل ، ومنه قوله :

وقد ضحكتْ للياسمين مباسمٌ   سروراً باداب الوزير ابى بكـر
واصغت من الاس النضير مسامٌ   لتسمع ما يتلوهُ من سورة الشعر. [٧٥]

وقولـه :

وافتر ثغر الاقحوان بما راى   طرباً وقهقه منه جرى الماء. [٧٦]

نلاحظ ان في كلا النصين اضفى الشاعر على مفردات الطبيعة تلك الخاصية الانسانية في التعبير عن الفرح والبهجة فقد (ضحكت للياسمين مباسم ، وقهقه الماء) فضلا عن تشخيصه لكل من الاس والاقحوان بافعال انسانية في الاصغاء وتبسم الثغروبذلك يعزز دلالة الحياة في مفردات الطبيعة ويصورها كما يشعر بها ، ويراها .

ومن الاستعارة التخييلية قوله :

فطرنا والدعاء لنا جناح   وبعد الياس افلتنا رداه[٧٧]

---

[٧٤] النقد الادبي الحديث : ٤٥٩ .

[٧٥] الديوان : ٢٠٥.

[٧٦] م . ن : ١٦٣.

[٧٧] الديوان : ٢٢٣.

تجتمع في النص كنايات عدة لا كناية واحدة فقد كنى الشاعر بقوله (انتم في انفه شمم ، و في طرفه كحل) عن رفعة الزمان بهم وما حققوه من رخاء ومجد وعلو شان ، ثم كنى عن شجاعتهم وانتصاراتهم على الاعداء وقوة الباس بـ (اعتناق العوالي في الوغى غزلا) اذ هم يجدون في الحرب متعة الغزل ، وبذلك كان التعبير الظاهر موحيا ومتصلا بالمعنى الحقيقي .

وهو يكنى عن الفتن بقوله :

اولئك معشرٌ قهروا الليالي   وردّوها لحكمهم اضطرارا [٨١].

ان نقل أحداث المجتمع يتطلب احيانا تقديمها بطرائق تعبيرية تلائمها وتضعها في اطار الشعرية لتكون اكثر تاثيرا وارقى في التعبير عن الواقع ،فالشاعر هنا يكني عن الفتن التي تناوب ظهورها في الاندلس بـ (الليالي) ويصور من يمدحهم بقوة الباس فهم قهروها واستعادوا حكمهم، وقد اعتمد فاعلية الصور الكنائية من خلال تبيان اثرها فهو يعبر عنها ضمنا ومفهوما دالا من السياق وقد اجتمعت الليالي والفتن في ظلمتها.

وقولــه :

الى الله أشكو ريبَ دهر الم ... ٍ   نوائبه الجمتْ السن العدِ [٨٢]

يكني الشاعر عن كثرة المحن وتوالي النوائب عليه بقوة رجل شديد لجم السن العدو بهذا التعبير صور حالة نفسية متازمة يعانيها وشعور بالضعف والعجز لم يجد من ينتشله منه الا الله عز وجل .

---

(٨١) م . ن : ١٩٨ .

(٨٢) م . ن : ١٨٣ .

وقولــه :

لا تعجبوا لانهزام صبري فجيش اجفانه مؤيد[83]

الشاعر في هذا البيت يقدم صورة شعرية معبرة عن تجربة انسانية ، وهي ذات فاعلية شعرية ترتكز على الكناية في صورتين الاولى قوله (انهزام صبري) كناية عن ولع الشاعر وشدة تعلقه بمحبوبته واستسلامه امام سطوة الحب ،والثانية (جيش اجفانه) كناية عن كثافة رموش محبوبته ما يزيد من سحر جمالها .

ملامح القصة في شعره :

القصص الشعري : هو القصص الذي يكتب شعرا وان ((اجادة القصص الشعري والبلوغ به الى غاية التمام انما يكون متى بلغ الشاعر من وصف الشيء او القضية الواقعة التي يصفها مبلغا يرى السامعين له كانه محسوس ومنظور اليه))[84]

والقصــة معروفــة عنـد العـرب وان كانـت غيرهـا فـي العصـر الحديث،وهي في ابسط صورها تحكي حدثا او مجموعة احداث تمس حياة الشاعر او مجتمعه او الطبيعه المحيطة به بما فيها من احياء او جماد ، وقد وظف شاعرنا عنصر الحوار والقصة لبث افكاره وارائه والتعبير عن تجربته الشعورية ؛ اما الحوار فهو نوع من الحديث ، ولكنه حديث مشترك يدور بين طرفين . والمحاورة هي ((ان يحكى المتكلم مراجعة القول ، ومحاورة جرت بينه وبين غيره باوجز عبارة ، واخصر لفظ فينزل في

---

[83] الديوان : ١٨٢ .

[84] معجم النقد العربي القديم : ج٢ : ١٨

البلاغة احسن المنازل ،واعجب المواقع))[85] ، وعليه فان الحوار بهذا المعنى اصبح من عناصر القصة والحكاية الاساسية وهو دليل الحركة المستمرة والحياة ، واستمرار الاحداث والافعال وقد تطور الى انواع عدة،فاصبح حوارا مع النفس وحوارا مع الغير وحوارا حسيا ، وهذا واضح في الشعر العربي بشكل عام اذ تكمن اهمية الحوار في قدرته((على التغلغل في اعماق النفس البشرية ، وعلى معرفة نوازعها وميولها،وما تفكر به))[86] وغالبا ما يتضح ذلك في حديث الشاعر مع المراة، يقول صفوان:

وعاذلة تقــــولُ ولستُ اصغـــــي	ولو اصغيتُ لم ارفع جَوابـــــا
تُخوفني الدواهي وهي عنـــــدي	اقل من ان اضيقَ بها جوابـــــا
تقولُ وهــــل يفلُ السيــف الا	اذا ما فــارقَ السيفُ القرابـــا
فقلتُ وهل يضــرُ السيف فــلٌ	اذا قطَ الجماجمَ والرقابـــــا
بخوض الهول تكتسبُ المعالي	يَحلُ السهلَ من ركبَ الصعابا. [87]

نلاحظ ان فعالية الحوار الذي اعتمده الشاعر للبوح تتركز في السؤال والجواب وبنفسٍ مسترسل على مدار الحديث يعرض من خلاله الشاعر قناعاته ويعبر عن اراءه باسلوب مؤثر غاية في الاقناع والامتاع لما يبعثه في نفس المتلقي من احساس التعايش مع المبدع والتوحد مع تجربته الشعورية فهو في نصه هذا يعبر عن كل انسان طموح له روح تسمو لنيل المعالي وترفض الخنوع والتكاسل وتواجه الصعب لنيل المنى .

---

[85] م . ن : ج٢ / ٢٥٨

[86] القصة والرواية : ٥٤

[87] الديوان : ١٦٨ - ١٦٩ .

وقد نجد الشاعر يوظف الحوار توظيفاً جميلاً لكي يوصل للمتلقي فكرته التي يريد أن يطرحها ،فهو مؤمن بسعة مغفرة الله وبشفاعة نبيه (صلى الله عليه وسلم) يرتجي النجاة ، لذا نجده يقول :

يقولون لي لما ركبتُ بطالتـــي ركوب فتى جم الغوايــه معتــدي
اعندك شيء ترتجي ان تناله ؟ فقلت : نعم عندي شفاعة احمد .[88]

اما السرد فهو الاخر خاصية أخرى اعتمدها ابن ادريس في شعره وغالباً ما يعمد الى ان يروي للمتلقي حدثاً عايشه او تجربة مرّ بها ولاسيما في الغزل ، ومنه قوله :

غفل الزمانُ فنلتُ منه نظــرة يا ليته لو دام في غفلاتــه
ضاجعتهُ والليلُ يذكي تحتــه نارين من نفسي ومن وجناتِه
بتنا نشعشعُ والعفافُ نديمنــا خمرين من غزلي ومن كلماتِه
فضممتهُ ضمّ البخيل لمالــه احنو عليه من جميع جهاتِه
اوثقه في ساعدي لانــــه ظبيٌ خشيتُ عليه من فلتاته
والقلبُ يدعو ان يصيرَ ساعداً ليفوز بالامال في ضماتــه
حتى اذا هاذ الكرى بجفونــه وامتدَ في عضدي طوع سناتِه
عزمَ الغرامُ عليّ في تقبيلـــه فنفضتُ ايدي الطوع من عزماتِه
وأبى عفافي ان اقبلَ ثغـــره والقلبُ مطويّ على جمراتــه
فاعجب لملتهبِ الجوانحِ غلّة يشكو الظما والماءُ في لهواته[89]

---

(88) الديوان : ١٨٦ .
(89) الديوان : ١٧٥ – ١٧٦.

يقدم الشاعر في هذه الابيات حدثا عاشه ومن خلاله يضيء جوانبا من شخصيته ويقدم رؤيته فالشاعر في هذه القصة بطل الحدث والراوي له وبذلك جعل نفسه شخصية مسرحية ذات اقوال وافعال وموقف تستاثر باهتمام المتلقي من خلال البناء الهرمي المثير والمشوق الذي اعتمده في السرد فبدا من لحظة اجتماعه بمحبوبه حتى وصوله الذروة ثم اختتم يبث رؤيته كل ذلك من خلال افعال متعاقبة لحدث صممه زمان محدد ضمن الشاعر من خلاله احكام روايته والاجادة في تصوير احداثها.

وهكذا نجد ان شاعرنا لم يدخر وسعا في الافاد من كل ما توفر له من امكانات فنية ولغوية في التعبير عن تجربته الشعورية ورسم صورة لواقعه وقد وظف لذلك كل ادواته الابداعية لكي تخرج بهذا الشكل وتبقى حية نابضة بكل الوان الحياة انذاك وما هذا البحث الا محاولة وقفنا من خلالها عند ابرز السمات الاسلوبية التي طبعت شعر صفوان بن ادريس التجيبي .

النتائج :

مما تقدم نستنبط عدة نقاط تمثل النتائج التي توصلنا اليها من بحثنا وتمثلت في :

١. اظهر البحث ان المستوى الصوتي للقصائد التي قالها الشاعر انما اتخذت من تكرار الاحرف والكلمات وسيلة لتفريغ ما في نفسه وتاكيدا لكل ما يدعو اليه فضلاً عن افادته من مزايا الجناس الايقاعية والدلالية لاثراء اسلوبه الشعري .

٢. ان شاعرنا عمد الى التصريع في القصائد لما له من قيمة تاثيرية وانفعالية متميزة تخدم الغاية والهدف الذي يرمي اليه من خلال التاثير في المتلقي وجذب انتباه السامعين اليه .

٣. اكثر نظم شاعرنا كان في البحور الطويلة كالطويل والبسيط والكامل بسبب ملاءمتها للحالة الشعورية التي يعبر عنها ، وقدرتها على استيعاب الافكار الكثيرة . والعواطف الجياشة فضلا عن نظمه في البحور القصيرة فهو لم يتقيد بوزن معين لكنه وازن بين العرض والبحر ببراعه .

٤. وجدنا شيوع القوافي المطلقة على المقيدة.

٥. اعتمد الشاعر اساليب خطاب عدة لبلورة احساسه وتجسيد افكاره ابرزها كان الامر والاستفهام والنداء .

٦. ادى تفاعل الشاعر مع المحنة التي يعيشها الى ان يضمن شعره صورا شعرية رائعة ، وجدنا الصورة البيانية تبرز بشكل واضح ومؤثر في شعره ولاسيما صور التشبيه والاستعارة والكناية .

بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل ، دار نوبار للطباعة القاهرة – الطبعة الاولى ١٩٩٦م.
١٠) البلاغة العربية – قراءة اخرى الدكتور محمد عبد المطلب ، الشركة المصرية العالمية للنشر – لونجمان الطبعة الاولى ١٩٩٧ م
١١) البلاغة والاسلوبية ، محمد عبد المطلب ، دار نوبار للطباعة والنشر – مصر – ١٩٩٤م
١٢) بنية الايقاع في الخطاب الشعري ، يوسف اسماعيل ، وزارة الثقافة – دمشق – ٢٠٠٤م .
١٣)) تحليل النص الشعري (بنية القصيدة) ، الدكتور محمد فتوح احمد، دار المعارف ، مصر ١٩٩٥ م .
١٤) التفسير النفسي للادب ، عز الدين اسماعيل . دار العودة – بيروت (د . ت) .
١٥) التكملة لكتاب الصلة ، ابن الابار القضاعي البلنسي(ت ٦٥٨هـ) تحقيق ، عبد السلام الهراس ، دار الفكر للطباعة والنشر بيروت ١٩٩٥م .
١٦) جدلية الخفاء والتجلي – دراسات بنيوية في الشعر – كمال ابو ديب ، دار العلم للملايين ، بيروت – الطبعة الاولى ١٩٧٩م .
١٧) جماليات الاسلوب ، الصورة الفنية في الأدب العربي ، الدكتور فايز الداية ، دار الفكر المعاصر – دمشق– الطبعة الثانية ١٩٩٦م .
١٨) دروس في علم اصوات العربية، جان كانتنو ، ترجمة : صالح القرمادي ، مركز الدراسات والبحوث – تونس– ١٩٦٦م

١٩) دلائل الاعجاز ، الامام عبد القاهر الجرجاني ، حققه وقدم له محمد رضوان الداية ، مكتبة سعد الدين دمشق – الطبعة الثانية ١٩٨٧م .

٢٠) شعر الفرزدق- دراسة اسلوبية- اطروحة دكتوراه ، محمد السيد الدسوقي مصر ١٩٩٢- جامعة طنطا .

٢١) الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث ، الدكتوره بشرى صالح ، المركز الثقافي العربي – الدار البيضاء الطبعة الاولى ١٩٩٤ م

٢٢) الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي ، جابر عصفور ،دار المعارف – القاهرة ١٩٧٤م

٢٣) ظاهرة الايقاع في الخطاب الشعري ، الدكتور محمد فتوح ، مجلة البيان ، العدد ٢٨ ، ١٩٩٩م .

٢٤) فلسفة البلاغة بين التقنية والتطور، الدكتورة رجاء عيد ، منشأة المعارف بالاسكندرية ، مطبعة اطلس (د . ت)

٢٥) فن الجناس ، علي الجندي ، طبع ونشر دار الفكر العربي- مصر- القاهرة- الطبعة الثانية ١٩٦٦م

٢٦) في البنية الايقاعية للشعر العربي – نحو بديل جذري لعروض الخليل- ، كمال ابو ديب ، دار الشؤون الثقافية العامة – بغداد- الطبعة الثالثة ١٩٨٧م

٢٧) في سيمياء الشعر القديم (دراسة نظرية تطبيقية) الدكتور محمد مفتاح ، دار الثقافة- الدار البيضاء – المغرب ، الطبعة الاولى ١٩٨٢م .

٢٨) القصة والرواية ، عزيزة مدين ، دار الفكر العربي - دمشق ١٩٨٠م .
٢٩) اللغة العربية معناها ومبناها ، الدكتور تمام حسن ، عالم الكتب - الطبعة الرابعة ، ٢٠٠٤م .
٣٠) مبادئ اللسانيات ، الدكتور احمد محمد قدور ، دار الفكر - دمشق - الطبعة الثانية ١٩٩٩م .
٣١) معجم النقد العربي ، الدكتور احمد مطلوب وزارة الثقافة والاعلام - دار الشؤون الثقافية العامة - بغداد ١٩٨٩ م . .
٣٢) من ديوان الشعر العربي (ديوان صفوان التجيبي) ، جمع وتحقيق ودراسة ، دكتور محمد سالمان ، الهيئة المصرية العامة للكتاب . ٢٠٠٧م.
٣٣) منهاج البلغاء وسراج الادباء ، حازم القرطاجني ، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة ، دار الكتب تونس ١٩٦٦ .
٣٤) موسيقى الشعر ، الدكتور ابراهيم انيس ، مكتبة الانجلو - مصر - الطبعة السادسة ١٩٨٨ م
٣٤) نظرية البنائية في النقد الادبي ، الدكتور صلاح فضل ، مؤسسة المختار للنشر - القاهرة ١٩٩٢م .
٣٥) النقد الادبي الحديث ، محمد غنيمي هلال - دار الثقافة - بيروت - ودار العودة ١٩٧٣م .
٣٦) نقد الشعر ، لأبي الفرج قدامة بن جعفر (ت٣٣٧هـ) ، تحقيق ، كمال مصطفى ، مكتبة الخانجي ، - القاهرة - الطبعة الثالثة ١٩٨٧م

النزعة العنصرية في الفكر السياسي الغربي الحديث

الدكتور أنس ابراهيم العبيدي
جامعة بغداد/ كلية الآداب/ قسم التاريخ

الملخص :

يتناول البحث النزعة العنصرية التي تسود بعض المجتمعات والأقوام . ووقف الباحث عند الفكر السياسي الغربي الحديث ، وذكر أشهر من نادى بالنزعة العنصرية وانتهى الى أن الدراسات أثبتت من خلال العرقية عدم صحة ما ذهب اليه العنصريون ، وأن ليس هناك من تمايز بين الاجناس البشرية ، وإن وجدت بعض الفروق فهي نتيجة طفرات وراثية ، أو اثر الظروف الاجتماعية والبيئية وغير ذلك من الأحوال .

المقدمـــة :

لا يخلو موضوع النزعة العنصرية في الفكر السياسي الاوربي الحديث من اهمية ، بل إنه ينطوي على الاهمية كلها ، فعلى الرغم من أن النظريات العنصرية تعد جزءاً من الماضي لا سيما القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين حيث أوجها ، إلا أن آثارها ما زالت ماثلة للعيان في مناطق كثيرة من العالم ، ويبدو أنها ترسخت في عقول وجدتها المكان المناسب لتنمو وتترعرع فيها ولا تفارقها أبدا.

ان فكرة سمو الحضارة الأوربية على باقي الحضارات ... بشكل جديد :

تصاعد ظن الاوربيون بتفوقهم بأنهم مسيحيون ليس غير . وبالضرورة فإن إله المسيحيين سيفضل عباده . لا سيما اولئك الذين يعبدونه طبقا لشعائر معينة . وسيعمل الإله على تحسين القابليات المتوارثة التي ستجعل من السهل على عباده الازدهار والذكاء والتقدم والسيطرة على العالم . كما إن رب المسيحيين حسب رأيهم سيحرص على جعل المحيط الذي يحيا فيه المسيحيون أكثر ملاءمة من المحيط الذي يعيش فيه الوثنيون ، والوثنيون في نظرهم كل من كان على غير ديانتهم ، لذا فإن مناخ اوربا ليس بالحار ولا بالبارد جدا ، وليس بالجاف ولا بالممطر ، لكنه معتدل لطيف[1]. وبكلمة أخرى ، ساد اعتقاد أن الشعوب الاوربية عموما ، تمتلكون تفوقا حضاريا ، وتفوقا جسديا ، وتفوقا محيطيا بيئيا أيضا[2]. وبالامكان ارجاع هذه الفكرة ، طالما ان اية قضية لا تأتي من فراغ بل نتيجة لحدث ما ، فكرة التفوق المسيحي الى الصراع الذي كان محتدما بين أكبر ديانتين سماويتين المسيحية والاسلام خلال الحروب الصليبية التي كانت مستعرة على جبهتين في شرقي البحر المتوسط وغربيه .

وبما ان أوربة لم يقطنها شعب واحد بمعنى الكلمة ، كما كان ينظر إليه في العصور الوسطى أوج الكنيسة والوطنية المسيحية ، بل شعوب

James M. Blaut, The Theory of Cultural Racism. http:/ www.mdcbowen.org, P.2.

David Frawley, The Agyan Dravidian Divide. http:// www.hindubooks.org,P.1

مختلفة متصارعة ، بدأت أساطير تبحث عن اصل كل شعب وتطويره في نهاية العصور الوسطى في اسبانية وفرنسا وانكلترة وايطالية والمانية وروسية ، وحاولت كل ثقافة منها البحث عن اختراع بكورة مزعومة في ضوء الكتاب المقدس من بين أحفاد النبي نوح ، وحاولت تصوير كل ما هو فريد بها في إرثها الخاص وترابطه بما ورد بالكتب المقدسة ، او ربما تجد صلة لها مع أثينا وروما ، او صلات مع القوى التي هيمنت على اوربة بعد سقوط الامبراطورية الرومانية[3]. وقد تفاوتت هذه المحاولات النسبية بين شعب اوربي وآخر ، فبينما حاول الانكليز ربط انفسهم بالفلسطينيين القدماء ، جهد الالمان على ترسيخ اعتقاد بأن أفضل شعوب العالم الانجيلي كانت ألمانية منذ البداية حتى إنه قيل أن لسان آدم وحواء كان ألمانيا. وهذا ما فسر حسب وجهة نظرهم ، بقاء اللغة الجرمانية وصمودها في وجه اللغة اللاتينية[1].

ومن الملاحظ إن النظريات الدينيه العنصرية Religion Theory of Racism كانت لها أهدافا استعمارية. إذ أن الله حبا الاوربيين بمنطقة عدوها موطنهم الحضاريcultural hearth ، أرض الانجيل Bible land. واعتقدوا أن جنة عدن واقعة في بقعة ما حول منابع نهر دجلة في جبال أرمينية ذات المناخ المعتدل الصحي ليس بعيدا عن جبل ارارات الذي يعتقد

---

(3) Richard H. Popkin, The Aryan Myth: A History of Racist and Nationalist ideas in Europe. Translated by E. Howard. New York, 1974. The Journal of Moderns History. vol. 47. Number 4, Dec. 1975. P. 719.

(1) Blaut. Op.cit., P. 3.

أن سفينة نوح رست عليه ، وليس ببعيد عن جبال القوقاز التي عرفت بأنها موطن الجنس القوقازي الابيض ، الواقعة كما أشير دائما ، في النطاق الجغرافي نفسه الذي يضم أثينا وروما[٥]. ولم تكن هناك أدنى فكرة عن تطور الحضارات المبكرة ، فالانسان منح تعلم الزراعة وبناء المدن والحضارة في أيام سفر التكوين Genesis ، وكل أحداث تاريخ ما قبل المسيحية حدثت بين النيض في منطقة صغيرة من سطح الارض تقع بين روما وبلاد الرافدين اما بقية العالم فلم يكن مسكوناً[٦]. وقد هاجر البشر من هذا الموطن بكل الاتجاهات وبذلك استوطنوا أسية وافريقية ، وخلال مجرى الهجرة او سفر الخروج Exodus انحط degenerated البشر الذين هاجروا الى اسية وافريقية بايلوجيا وتحولوا الى جنس ليس بالابيض ، وفقدوا فنون الحضارة على الرغم من أن السيويين ظلوا يحتفظون ببعضها. كل هذا عد لأوربة العصور الوسطى حقائق تاريخية ، وقد نتج عن ذلك كله فكرة مفادها أن الجنس الابيض كان ومازال متفوقا لأسباب جلية[٧].

أما الديانة اليهودية التي تشتق منها المسيحية ، فان النظرة الاستعلائية الاستعمارية واضحة في كتبهم ، فمثلا ورد في نصوص التوراة أن النبي ابراهيم كلمه الرب في الرؤيا "في ذلك اليوم قطع الرب مع ابرام ميثاقا قائلا : لنسلك أعطي هذه الارض من نهر مصر الى النهر الكبير نهر

---

(٥) Ibid., P 3.

(٦) Popkin, Op.cit., P. 719.

(٧) Ibid., P. 720.

الغرات . وجاء فيه بأن الرب قال "واقيم عهدي بيني وبينك وبين نسلك من بعدك في اجيالهم عهداً ابدياً لاكون الها لك ولنسلك من بعدك ... واعطي لك ولنسلك من بعدك ارض غربتك كل ارض كنعان ملكاً ابدياً"[9]. وقد تضمنت التوراة افكاراً عنصرية يستغرب المرء كيف يمكن عدها شريعة منزلة اذ منعت بني اسرائيل من ان يتعاملوا مع اهل الارض التي يقطنونها ، وانهم يعتقدون ان صورة الانسان تتجسد بهم فقط ، وان الله خلقهم وحدهم على صورته وسلطهم على جميع مخلوقاته[10] . وورد في سفر التكوين "لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا ، وليتسلط على سمك البحر وطير السماء وبهائم الارض ، وكل الدابات الدابة على الارض"[11] ، ولا ندري ايقصد بالدابات البشر من غير اليهود. ولا يجوز لبني اسرائيل الزواج من غيرهم ، فقد جاء في سفر التكوين "فدعا اسحق يعقوب وباركه وأوصاه فقال له لا تأخذوا نساء من بنات كنعان"[12]. وفي التلمود تأكيد مبدأ الاستعلاء والتفوق العنصري اليهودي على بقية شعوب الارض ، وجعل الناس عبيداً لهم كونهم شعب الله المختار ، وانه اصطفاهم من دون سواهم من شعوب الارض . كما تتجسد في التوراة انعزالية الشعب اليهودي وحقه في جميع خيرات الارض التي وهبها له الاله الخاص به من دون الآخرين ، فالتلمود

---

(9) الكتاب المقدس ، العهد القديم . سفر التكوين ، الاصحاح الخامس عشر ١٨.
www.http://st-takla.org/pub_oldtest/01_gen.html

(10) الاصحاح السابع عشر ٧-٨ .
ينظر : الاصحاح التاسع .

(11) الاصحاح التاسع : ٦ و ١٠.

(12) الاصحاح الثامن والعشرين : ١

صدور اليهود بأنهم من طبقة أرفع من طينة باقي البشر ، وإن عبرهم خدم لهم كغيرهم من الحيوانات غير العاقلة[١٣].

إن مثل هذه الافكار كانت راسخة ولقرون في عقول الاوربيين سواء أكانوا مسيحيين أم يهودا ، ولم يستطع اولئك محوها او التخفيف من غلوائها بل أن ظروفا جديدة طرأت على مجرى التاريخ ساعدت على تعزيزها هذه المرة على أسس جديدة .

بحلول القرن السادس عشر وبداية تزعزع الكنيسة جزئيا نتيجة لحركة الاصلاح الديني Religious Reformation Movement – الذي كان للألمان الحظ الأوفر فيها لما قيل أن الاسباب الرئيسة التي دعت الالمان تبؤ الدور البارز في الحركة هي أصالة اللغة الالمانية ومقاومتها للغة اللاتينية – فتنازعت الثقافات الاوربية في محاولاتها لاستخلاص أصلها بين عالم الانجيل وبين الجهود المبذولة في إضفاء الصفات الخاصة بجموعهم بعيدا عن ذلك العالم[١٤]. وبذلك بدأت البذور الأولى للقومية التي تطورت الى عنصرية استعلائية فيما بعد ، وأول عمل اتسم بالنفس العنصري انبثق من اسبانية في محاولتها تمييز المسيحيين الجدد الذين تحولوا عن الاسلام واليهودية بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢ ، عن المسيحيين القدماء الذين عدوا الاسبان الحقيقيين المنحدرين من أصل القوط الغربيين[١٥].

---

(١٣) سهيل حسين الفتلاوي ، الصهيونية حركة استعمارية استيطانية توسعية ، بغداد ، ١٩٩٠ ، ص ٣٣ .

(١٤) Popkin, Op.cit., P. 720.

(١٥) Blaut, Op.cit., P. 3.

في الوقت الذي شرع فيه تشكيل العنصرية (البيولوجية) ، انبثقت أفكار خطيرة لدى منظري أوربية تهدف إلى إعادة النظر بأصول الجنس البشري وتنوعه نتيجة لبدء حركة الاستكشافات الجغرافية التي تبعتها حركة الاستعمار ، إذ أن اكتشاف أقوام غير معروفين حتى ذلك الوقت في الأمريكتين واسترالية قاد الى انتعاش تأملات عدت في ذلك الحين هرطقية تماما حول أصل البشر ، والى تشكيل فرضية شكلت صدمة حقيقية للمعتقدات السائدة عرفت بفرضية ما قبل الآدمية Pre-Adamite hypothesis كان أول من نادى بها اسحاق لا بيرييه Isaac La Peyrère عام ١٦٥٥ ، الذي نفى تحدر البشر من أصل واحد وادعى وجود أجناس شبه آدمية قبل آدم المعروف هي أقرب الى الحيوانات غير العاقلة منها الى البشر ، وبذلك أنكر ما ورد في الكتب السماوية . إن هذه الفرضية التي كانت واحدة من بدع الفكر الغربي الحديث ، أصبحت في عصر الاستنارة Enlightenment Age قاعدة لفكر عنصري (انثروبولوجي شامل) ، وزودت الفكر بالأساس الذي استند إليه فصل سلالة آدم من القوقازيين عن أقوام الملونين ، الأفارقة والامريكيين واستراليين؛ وفصل سلالة آدم الساميين ، عن الوربيين الحقيقيين المبدعين Real and Creative Europeans .[١٢]

إن اهتمام عصر الاستنارة بعلم الانسان science of man تضمن في جزء كبير منه تفسير اختلافات النوع البشري . وعمل أفضل العلماء

---

(١١) Arnold Toynbe, The Study of History, New York, 1961, P. 51.

(١٢) Poplon, Op.cit., P. 720.

لـ...ة على هذه الاشكالية ، متخذين أسسا لنظريات عنصرية خطيرة ، إذ

فلاسفة الاستنارة من أمثال مونتسكيو Montesquieu (١٦٨٩-١٧٥٥) وماوبرتيوس Maupertuis (١٦٩٨-١٧٥٩) أن للمناخ أثرا حاسما في عملية النمو السياسي والاقتصادي والاجتماعي وحتى (البايولوجي) . فالحرارة المرتفعة تتصبب معها القوة والشجاعة عند الرجال ، في حين يدعو المناخ البارد باعتدال الى انبعاث القوة في الجسم والنشاط في العقل ، ويتيح للانسان المقدرة على القيام بأعمال كبيرة وشاقة تمتاز بالجسارة والاقدام . وهكذا نتج المناخ الحار جدا في افريقية عن نظام سياسي متأخر متمثل بالاستبدادية الذي أعاق حرية الافراد[١٨] ، وان البعد الذي يفصل افريقية عن مركز الحضارة العالمي حجب عنها الاشعاع الحضاري الأوربي ، كل ذلك أدى الى انحطاط تلك الشعوب (بايلوجيا) من حالتهم الأصلية السوية التي حافظوا عليها (بيضا) وتحولوا بالتدريج الى اجناس ملونين[١٩] .

هذه الافكار الاستعلائية سادت اوربة على مدى القرن الثامن عشر ومطلع القرن التالي وبروز القومية عززت تلك الافكار ، اذ مما لا شك فيه ارتباط النظريات السياسية التي تقوم على مفاهيم التفرقة أو النزعة العنصرية وتبرير سيطرة جنس على آخر ارتباطا وثيقا بالنزعة القومية ، ويمكن القول بأن النزعة القومية هي القوة الدافعة وراء النزعة العنصرية . لقد سعى دعاة العنصرية الى بلورة الفكرة التي مفادها أن العنصر الأسمى السيد له الحق في

---

(١٨) Patrick Harries, Origins and Deconstruction of Racial Theories. http:// www.Images. uct.ac.za/ P.2.

(١٩) J.A. Hobson, Imperialism: a study, London, 1936, P. 227.

عزو العناصر الأدنى وحكمها بادعاء التفوق على ضحاياه ، والى تبرير مركز السادة قياسا بالنبعة على أساس سمو متأصل ، ومسئولية في تمدين العالم ، وحق إلهي في الحكم [٢٠]. وقد أسهم مشاهير الفلاسفة في تطوير هذا الفكر خلال القرن التاسع عشر .

من بين أبرز أولئك الفيلسوف الالماني يوهان كوتليب فيختة Johann Gottlieb Fichte (١٧٦٢-١٨١٤) الذي أدى دورا قياديا جريئا كان له بعيد الأثر في تاريخ الفكر السياسي الاوربي عموما والألماني خصوصا. حيث استغل معركة يينا ١٨٠٦ لجعلها منبرا يصلح من خلاله الأمة الألمانية ، المصطلح الذي أكده هو الأمة الذي لم يكن قبله أمرا بارز المعالم والحدود خارج نطاق الأمه المسيحية[٢١]. وقد لاقى فيختة نجاحا منقطع النظير في ذلك ، إذ أصدر خطبه في أثناء احتلال نابليون بونابرت لما عرف فيما بعد ألمانية ، مؤكدا فيها أن الشعب الألماني وحده هو الشعب الحي ، وهو وحده الذي حافظ على لغة حية[٢٢]. لقد اظهرت خطابات فيختة اليقظة الأولى للنزعة العنصرية الالمانية فكان وقعها كبيرا في نفوس الالمان لاسيما وهم يرزحون تحت نير الاحتلال الفرنسي في اعقاب هزيمة مذلة ، حيث قال "إن الشعب الالماني شعب سابق على الشعوب الاخرى ، وهذا

---

(٢٠) ادوارد بيرنر ، افكار في صراع النظريات السياسية في العالم المعاصر ، ترجمة عبد الكريم أحمد ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ١٦٣.

(٢١) يوهان غ. فيخته ، خطابات الى الأمة الألمانية ، ترجمة سامي الجندي ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ٢٠.

(٢٢) جان ادوار سبنلة ، الفكر الألماني من لوثر الى نيتشه ، ترجمة تيسير شيخ الارض ، دمشق ، ١٩٦٨ ، ص ١٠٢.

يعني أنه نقي من كل اختلاط تاريخي وليس ناتجا مشتقا ولذته الحضارة ... إن الشعب الألماني هو الشعب المطلق الوجود"[23]. ويضيف فيخته "إن الشعب باختصار هو الذي لا يستمد حقيقة من التاريخ ، بل هو الذي يولد وجوده وتاريخه عن طريق فكره ووعيه بذاته ... إن جميع الشعوب الانسانية لا تشارك بنصيب واحد من الروح الكلية ، وليست مستعدة استعدادا متساويا لتلقي وعود الحياة الابدية"[24].

لقد رأى فيخته إن الشعب الالماني شعب أصيل ، لأنه نقي من اي مزيج خارجي. وإن الشعوب الاخرى لا تحيا حياة حقيقية ، بل حياة مستعارة منقولة منعزلة ، حياة انفصلت عن المنابع الأصلية ، فأصبحت شبه ملحق للانسانية. وهناك شعب واحد شعب مختار حافظ خلال التاريخ على اتصاله بالمنابع الاصلية للانسانية وهو الأمين على الحياة الأبدية[25]. لقد حاول الفيلسوف الالماني من خلال طروحاته هذه عزل الشعب الالماني عن الشعوب الاخرى ، حفاظا على نقاوة العنصر[26] ، وبذلك يعد من دون منازع خالق النزعة العنصرية الألمانية.

ثم يبتعد فريدريك هيجل Georg Wilhelm Friedrich Hegel (١٧٧٠-١٨٣١) كثيرا عن ذلك الطرح ، إذ وصف الدولة البروسية بأنها

---

[23] نقلا عن : المصدر نفسه ، ص ١٠٤.

[24] يوهان فيخته ، المصدر السابق ، ص٨١ .

[25] عثمان أمين ، رواد المثالية في الفلسفة الغربية ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ص ٣١٢.

[26] ينظر: فخته المصدر السابق ، ص ٨٤.

مثال الدولة الاكثر توافقا مع روح العصر ، وهي مثل الحرية الأعلى[27] .
وفي هذا نلمس النزعة العنصرية عند هيجل. وعلى الرغم من إنكاره نظرية الشعب المختار ، إلا أنه نجده يمجد الأمة الألمانية حيث يقول: "إن انبعاث الأمة الجرمانية كان بوحي من المسيحية... وإن العمليات الثقافية قامت بها شعوب اوربية لا سيما الأمة الجرمانية"[28]. ويضيف "إن الحضارة الجديدة هي الحضارة الجرمانية المسيحية"[29]. وحسب رأي هيجل فالشعب الألماني هو الشعب المتميز بين الجرمان لان له خلقا قوميا وروحا قومية[30]. لقد أثرت على هيجل موروث نظرية الشعب المختار اليهودية ربما من دون قصد ، وورث إلى جانبها نزعة عنصرية مع اختلاف بسيط ، ذلك ان اليهود يدعون بأنهم الصفوة على جميع الشعوب الأخرى على مر الزمان ، في حين يجعل هيجل تفوق الجرمان للدور الحضاري الايجابي الذي قدموه للبشرية ، بخلاف تفوق اليهود العائد بنظرهم الى سبب عنصري (بايلوجي) استعلائي يقرن التفوق بالعنصر اليهودي لما يجري فيه من دم متميز[31].

---

[27] عبد الرحمن بدوي ، المثالية الالمانية ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص١٣١.

[28] هيجل ، محاضرات في فلسفة التاريخ ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام ، ج١ ، بيروت ، ١٩٨١ ، ص ١٥٥.

[29] المصدر نفسه ، ص ١٥٥.

علي حسين الجابري ، فلسفة التاريخ بين هيجل ونيتشه في المصادر العربية ، مجلة كلية الآداب ... ع٥ ... ١٩٨٠ ، ص ٩٥.

[31] عبد الوهاب محمد احمد المسيري ، نهاية التاريخ: مقدمة لدراسة بنية الفكر الصهيوني ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١١٢.

وجاء فردريك نيتشه Friedrich Wilhelm Nietzsche (١٨٤٤-١٩٠٠) ليضيف شيئا للنظرية العنصرية. ونيتشه هو ذلك الفيلسوف الذي فقد ايمانه بإله آبائه ، وأمضى بقية عمره يبحث عن إله جديد ، اعتقد أخيرا أنه وجده في السوبرمان (الرجل الأفضل)[٣٢]. إذ يقول في كتابه زرادشت "موتى هي الآلهة جميعا ونريد أن يعيش السوبرمان... أني سأخبركم من هو السوبرمان ، إنه الانسان الذي ما ينبغي التفوق عليه"[٣٣]. لقد استهدف نيتشه خلق نوع بشري جديد تمثل بالسوبرمان ، "ذلك الفرد المتفوق الصاعد من حمأة العائدين من الناس ، يدين بوجوده الى الاستنسال المتوخى والتربية"[٣٤]. ويرى أن بالامكان خلق السوبرمان بواسطة الانتخاب البشري وحسب ، "فيالها من حماقة ان نسمح للأفراد الارقى بالزواج عن حب ، فنسمح للابطال بالزواج من الخادمات والعباقرة بالاقتران بالخاطئات . ويرى نيتشه أن الحب ليس أمرا استنساليا ، لذلك يقول "يجب أن لا يسمح للعاشق اتخاذ قرارات تؤثر في حياته بأكملها ، وينبغي أن نعد عهود العشاق باطلة ، ويجب أن يتزوج الأفضل الفضلى لأنه ليس من وراء الزواج التناسل فقط بل ينبغي أن يكون الهدف منه التطوير والتحسين... والطابع المميز للسوبرمان هو حب الخطر والنزاع شريطة أن يكون لهاتين المزيتين غرض وقصد ، وإن

لويس عوض ، دراسات في النظم والمذاهب ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص١١٦.

[٣٣] نقلا عن : ويل ديورانت ، قصة الفلسفة ، ترجمة أحمد الشيباني ، بيروت ، ص ٧١٩.

[٣٤] المصدر نفسه ، ص ٧٢٣.

الحيوية والعقل والكبرياء هي التي تخلق السوبرمان[٣٥]. إن فلسفة نيتشه تبدو كأنها أداة انتقاء تفصل بين الأعراق القوية القادرة وحدها على فهم ضروراتها ، وبين الأعراق الضعيفة المنهارة غير القادرة على إنجاب السوبرمان[٣٦]. ويظهر أن فكرة الجنس لم تكن واضحة المعالم ومشوشة لديه ، فلم يفكر بشكل واضح بالأمم والشعوب حين وضع نظريته في السوبرمان ، بل يرى إنه فرد عبقري من طراز نابليون ، فيقول "كيف يمكن أن نجد أمة في مجموعها ، فحتى بين الأعريق كانت العبرة بالأفراد ... ولا يهمني إلا صلة شعب من الشعوب بنشأة الانسان الفرد"[٣٧] ، ذلك الفرد الخارق القادر على قيادة المجموع.

والحقيقة إن سمة العنصرية كانت بينة في نظرية السوبرمان ، هذا إذا ما علمنا أن نيتشه كان معتنقاً بالداروينية الاجتماعية التي تمجد بقاء الأصلح في صراع البقاء الذي لا هوادة فيه[٣٨]. غير أن تلك العنصرية نراها جلية بين ثنايا كتابه الذي حمل عنوان "مولد المأساة من روح الموسيقى" ، إذ يذكر "من الروح الألمانية انبعثت قوة لا تمت بأية صلة الى الأوضاع البدائية ... وأعني بهذه القوة الموسيقى الألمانية... ابتداء بباخ فبتهوفن ففاغنر . فالروح الالمانية قد تأملت مدة طويلة جداً... فلتتحقق الأمة

---

[٣٥] المصدر نفسه ، ص ٧٣٢.

[٣٦] ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٧١.

[٣٧] لويس عوض ، المصدر السابق ، ص ١٤٢.

[٣٨] ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٦٨.

المتدنية من أن غرائزها ستسلم وأصبح من تلك الحضارات الآخذة بالانحطاط[39].

الى جانب أفكار أولئك الفلاسفة العنصرية كانت تسير جنبا الى جنب اكتشافات علمية غاية في الخطورة صبت في بوتقة العنصرية وصاغت تلك الأفكار في قالب ظن إنه علمي صريح ، كانت الغاية منها كما ذكر فهم التاريخ من منظور عنصري[40]. وبانتهاء نهاية القرن الثامن عشر كان مثقفو اوربا ، من علماء كان بعضهم رجال دين في السابق ، يجوبون الحقول والغابات في المناطق المعزولة محاولين فهم محيطهم البيئي عن طريق تصنيف النباتات والحيوانات والصخور الى فئات categories وأجناس species وانواع مختلفة ، ونجم عن ذلك علم التصنيف اللينناوي Linnaean نسبة الى عالم النبات السويدي كارل فون ليني Carl von Linnè (١٧٠٧- ١٧٧٨) . ولم يكتف العلماء بتصنيف الكائنات غير العاقلة بل تعدوها الى البشر[41].

إن النزوع الى وصف أجناس البشر المختلفة وتحديدها قاد الى نقاش حام دار على من أين جاءت تلك الاجناس ، وقد تمسكت الكنيسة بأن كل البشر متحدرون من ادم وحواء ، غير أن أوصوانا معارضة دعت إلى أن الأفارقة والهنود الحمر والاوربيون متحدرون من أجناس مختلفة ، وعرف أولئك بدعاة تعددية الأجناس Polygenists الذين عملوا على توسيع الهوة

---

(39) ديورانت ، المصدر السابق ، ص ٧٠٨ .

(40) Pobkin Op.cit., P. 720.

(41) Harries, Op.cit., P. 3.

الحيوية والتعقل والكبرياء هي التي تخلق السوبرمان[٣٥]. إن فلسفة نيتشه تبدو كأنها أداة انتقاء تفصل بين الأعراق القوية القادرة وحدها على فهم ضروراتها ، وبين الأعراق الضعيفة المنهارة غير القادرة على إنجاب السوبرمان[٣٦]. ويظهر أن فكرة الجنس لم تكن واضحة المعالم ومشوشة لديه ، فلم يفكر بشكل واضح بالأمم والشعوب حين وضع نظريته في السوبرمان ، بل يرى إنه فرد عبقري من طراز نابليون ، فيقول "كيف يمكن أن نجد أمة في مجموعها ، فحتى بين الأعريق كانت العبرة بالأفراد ... ولا يهمني إلا صلة شعب من الشعوب بنشأة الإنسان الفرد"[٣٧] ، ذلك الفرد الخارق القادر على قيادة المجموع.

والحقيقة إن سمة العنصرية كانت بينة في نظرية السوبرمان ، هذا إذا ما علمنا أن نيتشه كان معتنقا بالداروينية الاجتماعية التي تمجد بقاء الأصلح في صراع البقاء الذي لا هوادة فيه[٣٨]. غير أن تلك العنصرية نراها جلية بين دفتي كتابه الذي حمل عنوان "مولد المأساة من روح الموسيقى" ، إذ يذكر "من الروح الألمانية انبعثت قوة لا تمت بأية صلة إلى الأوضاع البدائية ... وأعني بهذه القوة الموسيقى الألمانية... ابتداء بباخ فبيتهوفن ففاغنر . فالروح الألمانية قد تأملت مدة طويلة جدا... فلتتحقق الأمة

---

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ٧٣٧.

(٣٦) ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٧١.

(٣٧) لويس عوض ، المصدر السابق ، ص ١٤٢.

(٣٨) ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٦٨.

بين الاوربيين وباقي الشعوب . لكنهم أحجموا بادئ الأمر في حكمهم على قدرات الاجناس المختلفة وقابلياتهم [٤٢].

والحقيقة أنه استحدث في ذلك الوقت علم جديد قائم بحد ذاته عرف بالانثروبولوجي Anthropology اختص بدراسة اجناس البشر وأنواعهم ، أول من نادى به هو العالم الطبيعي يوهان بلومنباخ Johann Friedrich Blumenbach(١٧٥٢-١٨٤٠) الذي صنف البشر عام ١٧٧٥ الى خمسة أجناس على أساس لون بشرتها وهم الجنس القوقازي أو الأبيض ، والجنس المنغولي أو الأصفر ، والجنس الأثيوبي أو الأسود ، والجنس الأمريكي او الأحمر ، والجنس الملاوي أو البني[٤٣].

وفي حضد مجرى تطور النهضة العلمية في القرن التاسع عشر ، نشأت طرق جديدة لتفسير اختلاف الجنس بدأت تصبح مقبولة كإثباتات لدعم النظريات العنصرية المختلفة . كانت الملاحظات الشخصية المباشرة وقياسات الجسد والمقارنات والتجارب واحدة من تلك الطرق. إذ بدأ الانثروبولوجيون يخضعون الجسد البشري الى فحوصات دقيقة صارمة محاولة منهم جعل دراسة الانسان مطابقة الى ميثودولوجيا Methodologyأو منهجية العلوم الطبيعية الحديثة[٤٤]. وقد قاد هذا الى ظهور حقول علمية جديدة (على انها اثبتت عدم صحتها فيما بعد) مثل علم الفرينولوجي Phrenology وكرانيولوجي Craniology اهتما بقياس حجم

---

(٤٢) Ibid., P. 3.

(٤٣) عادل شكري ، النازية بين الايديولوجية والتطبيق ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٤٩.

(٤٤) Harries, Op.cit., P 4.

الجمجمة والدماغ وشكلهما . وظهر علماء الفسيوكنومي Physiognomy والانثروبومتري Anthropometry وهما إحدى تلك العلوم الزائفة او الدعية Pseudo-Sciences حيث حاولا إيجاد قوانين عنصرية تختفي خلف ملامح الوجه ، واحجام الاجسام ، وهيئة الشعر[٤٥]. وبذلك ظهرت تقسيمات أخرى انضوت تحت تقسيمات يوهان بلومنباخ الخمسة تراوحت بين ثلاثة الى أكثر من مائة تقسيم ، منها ثلاثة رئيسة فيما يخص الوجه والرأس ، وهي الرأس المستطيل dolichocephalic ، والرأس المتوسط mesocephalic ، والرأس المدور brachycephalic[٤٦]. كل هذا قاد الى الاكتشاف بأن الرجل الابيض حسب زعمهم يملك الدماغ الأكبر ، تليه المرأة البيضاء ، يتبعهما بقية الأجناس[٤٧]. لم يدرك علماء (انثروبولوجيا) القرن التاسع عشر إنه لا توجد بين حجم الدماغ والذكاء البشري ، إذ لا يستخدم الانسان إلا جزءً يسيرا من دماغه في التفكير ، وإن حجم الجمجمة وبالتالي حجم الدماغ يحددهما المناخ وحرارته لا سيما كمية اشعة الشمس التي يتلقاها الانسان لا سيما في أشهر عمره الأول وسنيه[٤٨]. بدلا من ذلك فإن ملاحظاتهم رسخت ما كانوا مقتنعين به مسبقا ، في أن

---

(٤٥) Ibid., P. 2.

(٤٦) Dobzhanky, Races: Nature and Origins, The Encyclopedia Americana, The International Reference, Vol. XXII, New York 196[illegible], P. 10[illegible]

(٤٧) Harries, Op.cit., P. 4.

(٤٨) ممدوح حقي ، العنصرية والأعراق ، بيروت ، ١٩٦١ ، ص ٦٩.

الرجال البيض هم أذكى من نسائهم ، وأن الجنس الأبيض بذكوره وإناثه أذكى من بقية الأجناس[49].

من المفيد أن نذكر هنا أن بعض الحقول العلمية في منتصف القرن التاسع عشر مثل الفرينولوجي ، لم تكن نتاجا لجهد علماء شاذين ، ومع أننا نستغرب اليوم من ادعاءاتهم ، فانهم في ذلك الوقت دُعموا من معاهد علمية دولية لها صيتها ، من أمثال (الجمعية الانثروبولوجية الباريسية Anthropological Society of Paris) وإن ادعاءاتهم قد وجدت طريقا لها في الانسكلوبيديات التي عاصرتها[50].

ومن اجل إلقاء نظرة قريبة على اكتشافات ، إن صح التعبير ، أولئك العلماء ، نأخذ على سبيل المثال نتاج دراسات العالم الطبيعي اكاسيز Jean Louis Rodolphe Agassiz (١٨٠٧-١٨٧٣) الذي هاجر من سويسرا الى الولايات المتحدة الامريكية في عام ١٨٤٦ وأصبح رائدا في علم الحيوان (والجيولوجيا) ، وكان قبلها قد استغرق مدة في علم الفسيولوجي الذي قاده الى ملاحظة وجود اختلافات ثابتة أكيدة بين البشر ، دفعته الى تأييد تفسير أصحاب تعددية الأجناس لمشكلة تباين الاجناس ظاهريا. لذلك قال أن أجناسا بشرية مختلفة قد نشأت في بقاع مختلفة من العالم كل على حدة ، وبانتقال تلك الاجناس الى مناطق اخرى لم تستطع التأقلم فيها ما أدى الى انحطاطها (بايلوجيا). واعتقد أن الاجناس البشرية أنواع مختلفة (بايلوجيا) لا يمكنها بأي حال التكاثر من خلال تمازجها أو تزاوجها مع

---

(٤٩) Harries, Op.cit., P.4.

(٥٠) Ibid., P.5.

جنسين أخرى مختلفة miscegenation مثل الحمار والفرس وناتجهما البغل ، فإن بإمكان أفراد الأجناس المختلفة إقامة علاقات تناسلية لكنها غير قادرة على استيلاد نوعها نفسه[51] وهذه الفكرة ماثلة ومترسخة الى يومنا هذا حيث يسمي الاوربيون الشخص المولد من أبوين احدهما ابيض والآخر اسود بـ ميولاتو mulatto وهي كلمة اسبانية هي نفسها بالانكليزية والفرنسية نصفها الأول mule أي البغل[52] وهو الخلاسي بالعربية .

لاقت ادعاءات اكاسيز تأييدا جيدا وقد نشر مساعده كارل فوكت Carl Christoph Vogt (١٨١٧-١٨٩٥) وهو عالم طبيعي أيضا نتاج دراسات لأكاسيز وصاغها بعنصرية أكبر ، حاول فوكت إثبات أن الانسان أقرب الى الحيوانات الرئيسة منه الى الملائكة كما تؤمن الكنيسة . لقد كان فوكت متطرفا جدا ، إذ صنف سلما (نايلوجيا) للكائنات الحية واضعا الانسان الجرماني على قمة السلم ، وفي قعره وضع "المخلوق" الافريقي ، الذي تأتي بعده القردة مباشرة. واعتقد فوكت أن الجنس الجرماني جنس قوي لأن عرقه لم يختلط بالعروق الأخرى ، في حين أن الانكليز اقل نشاطا نظرا لكونهم نتاجا بين تزاوج الجرمان والساكسون والدانيين والنورمان[53] .

---

(51) Ibid., PP. 5-6.

(52) See: Webster's New Collegiate Dictionary; Cambridge International Dictionary of English, Oxford Advanced Learner's Dictionary

(53) Harries, Op.cit., P. 6.

ويسوق صامويل كارترايت Samuel Adolphus Cartwright (١٧٩٣-١٨٦٣) في كتابه المثير "الاجناس البشرية من ذوات الأفكاك البارزة" "Natural History of The Prognathous Species of Mankind" الذي نشره في ١٨٥٧ حججا تسير في تأكيدها وتضمينها للفروق الجسدية بين الابيض والاسود لتصل إلى دعوى لوجود فروق جسدية وذهنية عريضة. حيث ذكر أن ملامح الزنجي المثالي أقرب إلى "المخلوقات القريبة simian والبهيمية brute" منها إلى الانسان الأبيض. وأن لون الزنجي القياسي هو اللون الأسود الدهني البراق ، وأن الألوان الأفتح التي يحملها بعضهم ليست متأتية من تمازج جنسي مع البيض ، لكن نتيجة لإصابتهم بمرض ما أو جراء انحطاط جيني genetic degeneration[٥٤]. وفي مجرى عملية التبييض أو القصر bleaching process الناجمة عن مرض أو انحطاط يفقد الزنجي لون عينيه ، والزنجي المنحط عرقيا تجده يعاني من عشو ليلي. ولا يملك الزنجي شعرا حقيقيا "فحسل كل شعرة محاط بحراشف مثل صوف الخراف ، وهذا الشعر كالصوف له قابلية التلبد ، والشعر الحقيقي لا يمتلك مثل هذه الخاصية. ويشبه الزنجي الحيوانات في حاسة الشم ، فبامكانه تحديد مكان الأفعى بتلك الحاسة وحدها. وكل حواسه أكثر حدة ، لكنها أقل رهافة وتمييزا من حواس الأبيض . ويذكر كارترايت هنا أن كتب التاريخ الطبيعي مثل الانجيل "تثبت وجود ثلاثة انواع من الأجناس البشرية المتمايزة في الأصل

---

(٥٤) Philip W. Commings, Racism, The Encyclopedia of Philosophy, Vol. 7, New York, 1967. P. 60.

Natural History books, like the Bible, "proves the existence of at least three distinct species of genus man"

ويستطرد إن هذه الاجناس تختلف في الغرائز ، والشكل ، والعادات ، واللون. ولدى الجنس الابيض قابليات لا يملكها الجنس الاسود . الأول يتمتع بعقل حر ، والثاني يمتلك عقل عبودي ، الاول كائن being مفكر ومتأمل ، والثاني مخلوق creature يفتقد خلال تقريبا من كل أنواع ملكات التأمل والتفكير ، وبالتالي غير قادر على التطور أو حماية نفسه[٥٥].

واظن أن كارترايت قد فاق كل عنصريي العالم عنصرية ، غير أن هذه النزعة في إظهار إن الانسان الافريقي لا يرقى إلى كونه انسانا بل هو حيوان فعلا ، هي النزعة التي عملت من اجل تبرير فكرة العبودية التي كانت تدر ربحا وفيرا على المستوطنين الأوربيين في مستعمراتهم في امريكية الشمالية ، ولم تعدم هذه النزعة سببا لبقائها بعد منع تجارة العبيد وتجريم العبودية وهو الخشية التي انعكست في الكثير من النظريات العنصرية التي عززت الخوف من الانقراض النهائي للجنس الابيض الاوربي في أمريكة الشمالية جراء ارتفاع نسبة الولادات بين الافارقة والاسيويين وبزها لمثيلاتها الاوربية فضلا عن التزاوج بين عامة البيض والاجناس الأخرى[٥٦].

كان هذا هو الدافع الرئيس وراء فكرة نقاء الجنس Pure Race فبالاضافة إلى الخوف من تفوق الاجناس الاخرى على البيض في العدد ، وجد العديد من الافراد لا ينتمون الى التصنيفات العديدة التي أشرنا إليها من

---

(٥٥) Ibid., P. 60.

(٥٦) دوارم بيرنز ، المصدر السابق ، ص ٣٦٤-٣٦٦.

التي تم ابتكارها جزافا ، لذا عن مثل هؤلاء قيل بأنهم مولدون من نماذج جنسين او أكثر . وهكذا افترض وجود اجناس نقية ، كانت قائمة في وقت ما من الماضي ظل بعضها يحتفظ بصفاته متناثرين هنا او هناك في الارض ومن بينهم الجرمان[٥٧].

ولمزيد من الارباك اضيفت اللغات الى ذلك الخليط لتصنيف الجنس ، على الرغم من أن اللغة لا يمكنها بأي حال من الأحوال ، أن تكون شيئا موروثا (بايلوجيا) ، فظهرت بذلك تعبيرات من أمثال الجنس الاري Aryan Race والجنس الانكلو - سكسوني Anglo-Saxon Race وتصنيفات (بايلوجية) شبيهة اخرى لا تمت الى العلم والمنطق بصلة[٥٨].

من ثم جاء كتاب العالم الشهير تشارلس داروين Charles Robert Darwin (١٨٠٩-١٨٨٢) "في أصل الاجناس" On The Origin of Species الذي نشره في عام ١٨٥٩ فألهب النقاش والجدل حول أهمية الجنس ، وقد فسر بعضهم لا سيما هربرت سبنسر Herbert Spencer (١٨٢٠-١٩٠٣) الفيلسوف الانكليزي ، أفكار داروين بشأن الانتخاب الطبيعي او اختيار الطبيعة natural selection أن الجنس البشري مثل الحيوان والنبات كل مشتبكاً في صراع من أجل البقاء. وقد عنى ذلك لبعضهم أن الافارقة السود كانوا (بايلوجيا) أضعف من الاوربيين الذين يملكون جنسا متفوقا ، الحق الطبيعي في اجتياح افريقية واستغلالها . وقد صدر فرع هذه "المدرسة" سمّيت "يوجينية" اي تحسين النسل ، التي

---

(٥٧) Dobzhansky. Op.cit., P. 108.

(٥٨) Frawley. Op.cit., PP. 1-2.

تنبأت بالانقراض التدريجي للانواع البشرية الضعيفة او أجناس بسرها في طريقها الى الفناء[59]. وهذا ما لمسناه في فكر نيتشه ونظرية السوبرمان الذي سيولد عن طريق تكرار تزاوج الفضلاء بالفاضلات .

مما لا شك فيه أن الفكر العنصري التي امتازت به اوربة في القرن التاسع عشر كان يصب في مصلحة الحركة الاستعمارية ويهيء لها الجو الفكري الخصب الذي يمكنها ان تترعرع فيه وتزدهر ، ولا يمكن ان يختلف اثنان في هذا القرن بأنه بعد بحق عهد الامبريالية الاوربية. لقد امن جل الاوربيين جراء ذلك الجو الفكري بأنهم ينتمون الى جنس متفوق وإن ديانتهم المسيحية هي ديانة متفوقة مقارنة بالديانات الاخرى التي عدوها برابرية[60].

لقد شعر الاوربيون أن من واجبهم تنصير الشعوب غير النصرانية بأية وسيلة وإن تطلب الامر استخدام القوة والارهاب والرشوة ، ويقول أحد الباحثين المحدثين "يجب أن نذكر بأن هذه العقلية وآثارها ما تزال مستعملة في عدد من البعثات التبشيرية في الهند في يومنا هذا "[61]. لقد نظر الاوربيون الى الشعوب غير النصرانية كأنهم الاطفال الذين هم بحاجة الى تعلم الانضباط والتدريب كي يغدوا متمدنين. وسيطرت النظرية العنصرية على مفكري هذا العهد ، تلك النظرية التي فسرت على اساس مصطلح اللون بصورة رئيسة . وبما أنهم ينتمون الى الجنس الأبيض القوقازي المتفوق فإن

---

(59) Harnes, Op.cit., P. 7.

(60) David Frawley, Racial Theories, http:// www.hindubooks.org, PP. 1 2.

(61) Ibid., P. 2.

ان منهم بالطبع المستعبد الملونين[٦٢] . وإن لم يكن استعبادا بالمعنى الفج للكلمة فهي رسالة يحملها الرجل الأبيض في تمدين الأمم المتأخرة غير القادرة على مساعدة نفسها او حكم نفسها بنفسها ومما نتج عن نظرية عبء الرجل الأبيض White Man's Burden التي نادى بها الروائي الانكليزي جوزيف كبلنج Joseph Rudyard Kipling (١٨٦٥-١٩٣٦) وهي تطور طبيعي لنظريات تفوق الجنس الأبيض[٦٣]. وأوضح اثر لها نظام الانتداب احدى ابتكارات عصبة الأمم الذي صنف شعوب الارض من مستعمرات المعسكر المهزوم في الحرب العظمى إلى ثلاث اصناف[٦٤].

إن نظرية تسلط الجنس الأبيض لنفوذه (بايلوجيا) وفكريا على الاجناس الملونة ، كانت فكرة أقل تعقيدا بكثير عن فكرة ظهرت في منتصف القرن التاسع عشر ، مفادها إن ذلك التفوق لا يتحدد بين جنس وآخر فقط ، بل انه موجود في الجنس الواحد نفسه ، وصح ذلك بالتحديد على الجنس القوقازي الأبيض المتفوق ، فظهرت تعبيرات اريد لها أن تصف أجناسا جديدة من أمثال الجنس الآري ، والتيتوني Teuton ، والنورديكي Nordic ، والانكلوسكسوني[٦٥]. ولما كانت نظرية تفوق الجنس الأبيض نتاجا طبيعيا فكريا للحركة الاستعمارية الأوربية ، فإن النظرية الجديدة كانت انعكاسا

---

(٦٢) Harries. Op.cit., P. 7.

(٦٣) حند الاصور ، جذور الفكر العنصري في اوربا ، اسلام اون لاين/مساحات ثقافية ص ١.

(٦٤) ينظر ميثاق عصبة الامم ونص الانتداب في:

(٦٥) Dobzhansky, Op.cit., P. 108.

[illegible] السياسية والاجتماعية لبعض الأقطار الأوربية لا سيما فرنسا والمانيا. فالأولى كانت تعاني من صراع اجتماعي مرير بين الطبقة الارستقراطية الغنية والطبقة الكادحة الفقيرة وصراع سياسي ايضا للاستحواذ على السلطة . أما في الثانية فكانت تعاني بعد توحيدها ، من وجود أقليات إثنية كانت تبغي الاستقلال بنفسها كالسلاف والماكيار والبولنديين[٦٦].

إن النظرية العنصرية الحديثة ترجع الى حد كبير الى ابتكار الروائي الارستقراطي الفرنسي ارثر دي جوبينو Joseph Arthur Comte de Gobineau (١٨١٦-١٨٨٢) الذي نشر مؤلفه "مقال عن عدم التكافؤ بين الاجناس البشرية" An Essay on the Inequality of the Human Races في اربعة اجزاء في المدة (١٨٥٣-١٨٥٥) ، حاول من خلاله اثبات أن كل ما هو نبيل وعظيم ومفيد من أعمال الانسان على هذه الارض انتجه جنس واحد حكمت فروعه كل البلاد المتمدنة . وقال إن هذا الجنس هو الجنس الآري الذي يضم الاغريق والرومان ومعظم شعوب شمال أوربا وغربها ، واسمى من يمثله هم الجرمان الحديثون[٦٧]. وقد ميز جوبينو بين خصائص الجنس الابيض الخلاقة النشطة ، وخصائص الاجناس الملونة الضعيفة . ليخرج بنتيجة مفادها إن رسالة الجنس الابيض تتمثل في خدمة الانسانية . ثم بيّن فروع الجنس الابيض ، وأشاد بالعنصر الآري الذي إليه تعزى مدنيات العالم اجمع . ويقول إن أية مدنية انسانية تخلو من التأثير

---

(٦٦) Ibid., P. 109.

(٦٧) الدوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ٣٦٣.

الأرى لا يمكن ذكرها أو التفكير فيها[٦٧]. وقد نعت السود أو الزنوج بأن لهم صفات حيوانية تتضح في شكل الحوض ، وقدراتهم العقلية متلبدة كما أنهم فرديون فوضويون ، والجنس الأصفر بأنه نزاع الى الشيوعية ولا يحلمون او يضعون النظريات وقابلياتهم البدنية ضعيفة ، غير أن الجنس الأبيض اصحاب ذكاء متقد ، ومثابرون ، لديهم ميول متأصلة الى الليبرالية ، والبرلمانية ، والفدرالية ، والامبريالية الخيرة[٦٩]. ولكل من الاجناس الكبرى ، وكذلك كل فرع من فروعها ، سمة خاصة بها لم تستطع العوامل المناخية والجغرافية والاقتصادية محوها. ويقول جوبينو ، إن الحضارات تنهار بسبب اختلاط دماء الجنس المحلي بدماء الجنس الغازي عن طريق الزواج بالمهزومين ، وإن امتزاج الدماء هو السبب الأساسي في الانحدار القومي[٧٠]. لذلك حذر جوبينو بأن الاوربيين قد يفقدوا "تفوقهم العرقي" اذا ما هم تمازجوا مع الشعوب من ذوي البشرة الداكنة من سكان ضفاف البحر المتوسط وافريقيا[٧١].

ومن ثم طرح المفكر والمؤرخ الفرنسي اوكستين تيري Jacques Nicolas Augustin Thierry (١٧٩٥-١٨٥٦) ، في كتابه "رسائل عن تاريخ فرنسا" Lettres sur l'histoire de France عام

---

(٦٨) عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٣٤.

(٦٩) Gobineau and Racism,

ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ٣٦٤.

Joseph Marko. The Law and Politics of Diversity Management: A Neo-institutional Approach, P.2. http://www.uni raz.at/en/print.

(٧١) Gobineau and Racism, P.1.

١٨٦٧ نظرية عرقية تخص فرنسا قائمة على اساس ان الأخيرة منقسمة على نفسها سياسيا واجتماعيا منذ زمن بعيد ، بسبب تكون الشعب الفرنسي من عرقين هما الغال والفرنجة ، وهم الغزاة الجرمان. وفي الوقت الذي يتواجد فيه الغال بين الفلاحين ، يتواجد الفرنجة في الطبقة الارستقراطية ، وهذه في الحقيقة انعكاس لأفكار المؤرخ الفرنسي بولاينفيلرز Henri de Boulainvilliers (١٦٥٨-١٧٢٢)[٧٢] ، غير ان تيري يرى أن الثورة الفرنسية هي امتداد للصراع المزمن بين هذين العرقين الغال أنصار الثورة الفرنسية أميل بطبيعتهم الى مناصرة الحرية والديمقراطية ، أما الفرنجة أكثر ميلا الى حب النظم السلطوية المستبدة[٧٣]. وظهرت بذلك نزعة تقول أن الغال هم مواطنو فرنسة الحقيقيون وعليهم أن يرسلوا أنجال الفرنجة الجرمان الى غاباتهم في ألمانيا[٧٤].

أصدر جوبينو في عام ١٨٧٤ كتابا آخر هو "الثريا" Les Pléiades الذي عارض فيه المساواة الاجتماعية الذي نادى بها دعاة الثورة ، أكد فيه أن الاختلاف العنصري هو في كل أمة بين الارستقراطية والشعب ، فالأول ينحدر من الجنس الآري وهو عرق مسيطرة بحكم طبيعته ومبدع للحضارة والثقافة ، أما الثاني فمنحدر أصلا من العروق الوضيعة التي خضعت للآريين[٧٥].

---

(٧٢) Wikipedia, the free encyclopedia

(٧٣) صادق جعفر الاسود ، علم الاجتماع السياسي أسسه وابعاده ، بغداد ، ١٩٩٠ ، ص ٥٥٥.

(٧٤) Harmes. Op.cit., P. 2.

(٧٥) صادق الأسود ، المصدر السابق ، ص ٥٥٧.

جاء بعد جوبينو المفكر الفرنسي دي لابوج Georges Vacher de Lapouge (١٨٥٤-١٩٣٦) ، والعالم الاحيائي فرانس كالتون Francis Galton (١٨٢٢-١٩١١) صاحب فكرة تحسين النسل ، اللذان قاما بتثبيت نظرية جوبينو بدراسات تجريدية على حجم واشكال الجماجم لدى الأمم[٧٦].

كما ظهرت في فرنسة نظريات تمجد الجنس الصلتي وهو فرع ينبثق من الجنس الأبيض ، بعد اندحار فرنسة أمام ألمانية في ١٨٧١ وتؤكد أن البروس ليسوا آريين وإنما هم مغول ، وترى أن فرنسة أمة صلتية وإن العرق الصلتي أرفع من العرق الجرماني[٧٧].

أما ألمانية فكانت عنصريتها أعنف وأبشع ما عرفه العالم الحديث من عنصرية والمتمثلة بالنازيه القائمة أسسها جميعا على العنصرية. لقد كانت ألمانية بحق كما لو أنها النهر العظيم الذي تصب فيه جميع جداول العنصرية وروافدها في العالم ، وإنها ملتقى الطرق الذي التقت عنده كل النظريات والأفكار وتصارعت هناك مشكلة إعصارا حقيقيا تمثل بالنازية. لقد اقتبست ألمانية جميع نظريات التفوق الأوربي الغربي وجرمنته وأضافت إليه الشيء الكثير بأقلام فلاسفتها وعلمائها ، وكان من روادها المؤرخ والفيلسوف هينريخ فون ترتشكه Heinrich Gotthard von Treitschke (١٨٣٤-١٨٩٦) الذي يعد من دعاة الامبريالية والعنف والعنصرية ومناهضة السامية في ألمانية ، فتحت تأثير التقليد الهيجلي كان يقدس الدولة

Wikipedia, the free encyclopedia

[٧٧] صادق الأسود ، المصدر السابق ، ص ٥٥٧-٥٥٨.

الأمة[٧٨]. وقد استعمل ترتشكه في نظريته السياسية تعبيري الأمة والدولة بمعنى واحد في كثير من الأحيان ، وأكد أن الدولة قديمة قدم الجنس البشري نفسه ، ولم يستطع تصور قيام الدولة الحديثة إلا على أساس الجنس ، وسخر بفكرة الدولة العالمية . وقال بأن كل انسان في عصره كان يحس بأنه ألماني أو فرنسي أو انكليزي وليس عضوا في اخوية بشرية مشتركة[٧٩]. ويذكر أن لكل شعب الحق في الاعتقاد بأن بعض سمات العقل الإلهي تتمثل فيه بأكمل صورها ، وذهب بأن الأمم لا تزدهر وتنتعش إلا في ظل المنافسة الشديدة التي يندثر فيها الضعيف ويعزز القوي قوته ، وهو بذلك يجسد الصراع الدارويني من أجل البقاء . وكان ذلك يعني عند ترتشكه أن الحرب دائمة وحتمية ، فبدون الحرب لا يمكن أن تبقى الدولة ، فكل الدول الراقية أصلها في الحرب ، وتظل حماية مواطنيها بالقوة المسلحة المهمة الأولى والأساسية لها. والغزو هو الاسلوب الرئيس والوسيلة الأوحد لانقاذ البشرية من الانانية والمادية[٨٠].

كانت النزعة العنصرية عند ترتشكه راديكالية فهو لم يبرر أساليب سياسة القوة وحسب ، وإنما أصر على ضرورة الحصول على مستعمرات بأية وسيلة ممكنة ، لقد شعر بحسد مرير نحو بريطانيا لنجاحها في توسيع سيطرتها على ربع الكوكب . ولكن بدا عليه أحيانا إنه لا يرغب بامتلاك

---

(٧٨) برتراند رسل ، الفلسفة [illegible] ترجمة فؤاد زكريا ، الكويت ، [illegible] ، ص [illegible].

(٧٩) فايز [illegible] جابر ، الفكر [illegible] الحديث ، القاهرة ، [illegible] ، ص [illegible].

(٨٠) ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ٣٥١.

مستعمرات ما وراء البحار ويفضل عليها اقتناء الأقاليم المتصلة ، وربما من هنا جاء اهتمام هتلر بفكرة المجال الحيوي لألمانيا.

كما ابدى ترتشكه بدلوه في الفكرة العنصرية العامة القائمة على أساس اللون ، فهو يرى أن الشعوب الصفراء ليست لديها مواهب فنية ، ولا إدراك للحرية السياسية ، فطابع حكوماتها في دولها كان دائما يتسم بالاستبداد ومصادرة الحريات . أما الشعوب السوداء فلم تكن قط صالحة لشيء إلا للعمل ، فمصيرها أن تظل في خدمة الرجل الأبيض ، وهدفا لازدرائه إلى الأبد. والتحدي المولد هو كالاسود في كل شيء ، سوى إن لونه أقل دكنة ، واختلاطه بالسود الآخرين دليل على إنه يدرك ذلك[81]. وتبعا لفكر ترتشكه فإن التماسك العنصري للأمة يتطلب أيضا تكوينا طبقيا للمجتمع ، إذ أعلن أن طبيعة الكائن العضوية الاجتماعية ذاتها ، تنطوي على اختلافات في المراتب الاجتماعية والحالة الاقتصادية بين مكوناته ، ويجسد ذلك في قوله: "لا يمكن أن تكون هناك حضارة من دون وجود خادمات في المطابخ"[82]. في الحقيقة إن امبريالية القرن العشرين الألمانية استمدت تعاليمها من فلسفة ترتشكه وإن عنصرية هتلر تحمل شبها من عنصريته[83].

ويذكر أن جوبينو الفرنسي تمتع بشعبية كبيرة في المانية اكثر من فرنسة التي هو منها وقيل انه عرف فيها في زمانه ، وانعش وطبع من جديد

---

[81] فايز ابو جابر ، المصدر السابق ، ص ٢١٦.

[82] برتراند رسل ، المصدرالسابق ، ص ٣٣٩.

[83] ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ٢٣٧.

... في ١٨٩٠ في ... جمعية ... جمعية غوبينو ... ص ٨ ...

Gobineau Society تألفت من جماعة من القوميين المتعصبين والمعادين لليهود ، الذين كانوا يتمتعون بقوة مناسبة كبيرة بالرغم من قلة عددهم ونسبة كبيرة منهم كانوا من المعلمين والمدرسين[84].

ثم ظهر أحد مريدي جوبينو المفكر الالماني الجنسية الانكليزي الأصل هيوستن ستيوارت تشمبرلن Houston Stewart Chamberlain (١٨٥٥-١٩٢٧) الذي زاد في صرح العنصرية الالمانية الكثير ، وقد نشر في عام ١٨٩٩ عرضا محكما لنظريته العنصرية في كتاب حمل عنوان "أسس القرن التاسع عشر The Foundations of the Nineteenth Century". وقد أضفى تشمبرلن على لفظ تيتوني المعنى نفسه الذي أضفاه جوبينو على لفظ الآري ، ومنح جميع سلالات اوربة الحديثة وكذلك الاغريق والرومان القدامى أصلا تيتونيا ، وإن كل فرد أبدى عبقرية أو أصالة خلال الالفي سنة الماضية ادعى بأنه من الجنس التيتوني. وحتى دانتي كان تيتونيا ، لأن له وجها معبرا وجبهة عريضة وعلى الرغم من أن تشمبرلن أقر بأن أكثر أبناء الجنس التيتوني أصالة قد يكونون من ذوي الشعور السوداء ، فإن خياله الشاعري استطاع وصف الانسان التيتوني المثالي بأنه ذو عينين عظيمتين وبراقتين وجمجمة مستطيلة نتيجة للذهن النشط الذي يعذبه التطلع ، وخطوط الجمجمة دائرية تتسع باتجاه الجبهة العريضة"[85]. وقد اعترف بصعوبة الأسس التي بنى عليها هذا الوصف وإن

---

(84) Gobineau and Racism, P.2

(85) عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٢٦.

بعض العناصر الدخيلة مثل اليهود ، يمكن أن يكون لأفرادها هذه الصفات ذاتها ، وقال "هناك بعض اليهود لا يمكن تمييزهم عن الألمان التيتون ، ولكن من الممكن معرفة اليهودي بأنه الرجل الذي إذا دخل حجرة بها طفل ألماني فإن الطفل ينفجر بالبكاء"[٨٦]. وهو بذلك ساعد على إذكاء الحركة اللاسامية لدى الألمان وحذر من خطر الشعوب السامية على نقاء الجنس الالماني الآري ووصفه بصراع سوف يتطور الى معركة بين الخير والشر وبذلك حاول تقعيد الحرب العنصرية على اسس اخلاقية[٨٧]. وكان تشمبرلن يقول إن الاجناس البشرية تختلف باختلاف طبيعتها واستغلالها لمواهب أفرادها ، وإن الالمان تميزوا بموهبتهم الموسيقية[٨٨]. وقد ميز تشمبرلن التيتون فبدلا من اعتبارهم فرعا عرقيا ، كما يعرض الكتاب من قبل ، عدهم أمة هي الأمة الألمانية[٨٩].

تبنى الألمان نظريات تشمبرلن لأنها تبرر مطامعهم التوسعية في سيادة العالم ، وقربه القيصر وليام الثاني وقلده وسام الصليب الحديدي ، وأمر بزيادة توزيع كتابه نظرا لتأثيره الكبير فيه . وقد التقى تشمبرلن بأدولف هتلر في ١٩٢٣ قبل كتابه لمؤلفه الشهير "كفاحي" Mein Kampf

---

محمد عبد المعز نصر . فلسفة السياسة عند الالمان ، الاسكندرية . ١٩٧١ . ص١٤٠.

Gobineau and Racism, P.2.

Ashley Montagu. Man's Most Dangerous Myth: The Fallacy of Race. New York. 1945. P. 76.

ادوارد بيرتر ، المصدر السابق ، ص ٢٦١.

بوقت قليل. واتخذ النازيون من أفكاره الكثير من أسس عقيدتهم بعد أن أجروا عليها بعض التعديلات[٩٠].

من هذا يتضح اهتمام رجال الفكر الالماني بإبراز أهمية العنصر الآري وفضائله على المدنية الانسانية ، وحقه في السيادة ، ويمكن إجمال آرائهم في هذا الخصوص في ان العنصر الاري هو أقدر العناصر البيضاء على خلق المدنيات وإن بقاء هذا العنصر نقيا من اندماج العناصر الأخرى هو الشرط الأساسي لتقدمه[٩١]. وقد تطورت النظريات العرقية في أواخر القرن التاسع عشر على يد جوبينو وتشامبرلن ، وعلى الرغم من تنازل بعض المفكرين عن آرائهم ، من أمثال ماكس مولر Friedrich Max Müller (١٨٢٣-١٩٠٠) الذي ابتدع العنصر الآري في ١٨٥٣ ، الذي أعلن بعد اربعين سنة أنه لم يكن يقصد جنسا آريا ، وإنما فئات كانت تتكلم اللغة الآرية ، لكن نفيه آراءه الأولى لم يفد كثيرا ، إذ كانت أُسطورة الجنس قد تأصلت في كثير من المؤلفات والأذهان[٩٢].

وقد ذهب مفكرو النازية بالبحث عن كل ما يؤيد نظريتهم في التفوق العنصري Racial Supremacy ، فتمسكوا بنظرية جديدة تنسب العنصر الالماني إلى العنصر النورديكى الشمالي Nordic Race الذي تشتهر قبائله

The Encyclopedia of Philosophy. Vol. 8, P. 363.

[٩٠] عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٣٧.

[٩١] احمد خاكي ، فلسفة القومية ، القاهرة ، ١٩٦٣ ، ص ٣٣.

لم فين بالشجاعة والاقدام[٩٣]. وقد ارجع مفكرو النازية اسباب النكبات التي حلت بالشعب الالماني ، إلى أسباب تتعلق بإغفاله خصائصه الموروثة عن أسلافه ، وإنه إذا ما اقتنع الشعب الالماني بأصله المجيد وعاد إلى التمتع بخصائص اسلافه ، فإن ألمانية ستعود إلى تبوء مكانتها الطبيعية بين الدول العظمى[٩٤] وجعلت النازية الجنس الجرماني أرقى الاجناس البشرية من بين الاجناس السادة Herrenvolk وهم البيض ، أما الطبقات السفلى وصفوهم بالاجناس الفعلة Hilfenvolk وهم الملونون وكلا جُعل مراتب ودرجات[٩٥]. أما الجنس الهدام وهم اليهود الذين يحملون صفات مغايرة تماماً للجنس الآري وهم على طرفي نقيض ، فاليهودي لا يقبل التضحية بنفسه في سبيل بلده أطلاقا ، ولا يتمتع بالمثالية ، وهم متفقون عندما يواجهون عدوا مشترك وانهم إذا عاشوا في عالم بمفردهم فسيأكل بعضهم بعضا[٩٦].

لقد استفادت النازية من اسطورة الأعراق واتخذتها ذريعة لاضطهاد الاجناس غير الآرية ، وزعم مفكرو النازية إن الدم الآري أو النورديكي يجب أن يجري في عروق الألماني[٩٧]. وربما من المفيد أن نذكر هنا وجهة النظر

---

(٩٣) Beals L., An Introdection to Anthropology. New York. 1959, P. 177.

(٩٤) محمد عبد المعز ، المصدر السابق ، ص ١٤١.

(٩٥) جمال حمدان ، استراتيجية الاستعمار والتحرير ، دار الشروق ، ١٩٨٢ ص ١٢٠.

(٩٦) محمد كمال الدسوقي وعبد التواب عبد الرزاق سلمان ، الصهيونية والنازية ، القاهرة ، ١٩٦٨ ، ص ٧٥-٧٦.

(٩٧) احمد حاكي ، المصدر السابق ، ص ٢٣.

النازية حول قضية نقاء الدم العنصر حيث اصبحت في فترة معينة قضية مسلم بصحتها "أن اتصالا واحدا بين يهودي وامرأة آرية كاف لتسميم دمها إلى الأبد ، فإلى جانب الآح الغريب او الاجنبي alien albumen الذي يمتص جزئيا أو كليا من قبل جسد الأنثى دخل بذلك دورتها الدموية ، وامتصت معه الروح الغريبة alien soul ، وهكذا تلوث جسدها وروحها : ولن تتمكن أبدا مدى حياتها إنجاب اطفال آريين أنقياء"[٩٩].

كان من بين ابرز مفكري النازية وقادتها هما الفريد روزنبرغ Alfred Ernst Rosenberg (١٨٩٣-١٩٤٦) ، وادولف هتلر Adolf Hitler (١٨٨٩-١٩٤٥) . لقد أعطى روزنبرغ النظرية العنصريه النازية شكلها النهائي. وكان كتابه "اسطورة القرن العشرين" عبارة عن احاديث مفصلة متعجرفة عن العرق ، وقد تأثر بكتاب "أسس القرن التاسع عشر" لتشمبرلن. وتعد فكرته عن العنصرية خليطا من آراء تشمبرلن وجوبينو ونتشه وترتشكه[٩٩]. بدأ روزنبرغ نظريته في ما أسماه سر الدم ، فالتاريخ ليس صراعا بين طبقة ضد طبقة لكنه بين دم ضد دم ، وعنصر ضد عنصر ، وشعب ضد شعب ، وذكر "إن الروح هي الجزء الداخلي للعنصر ، والعنصر هو الإطار الخارجي للروح ، لذلك تكون الصورة النهائية لعالمنا اليوم هي عالم الروح العنصرية" وادعى إن هناك "ديانة جديدة ستظهر في

---

(٩٩) Philip W. Cummings, Racism, The Encyclopedia of Philosophy. Vol.7, New York, 1967, P 60.

(٩٩) John Gunther, Inside Europe, London 1938, P. 106.

القريب ... هي استحواذ الدم على كل الاجزاء القيمة في الانسان ... انها ديانة تفوق الدم النورديكي". وطالب الشعوب النورديكية باتخاذ مثلها العليا في الشرف والعمل ونبذ العاطفة[١٠٠]. وهاجم روزنبرغ المسيحية والكنيسة الكاثوليكية حيث يقول "إن فكرة الشرف الوطني هي لنا بداية تفكيرنا وأفعالنا ونهايته ... ولن تسمح هذه الفكرة لأية فكرة أخرى ، سواء الحب المسيحي ، أو الانسانية الماسونية ، أو الفلسفة الرومانية بالوقوف أمامها"[١٠١]. ونادى بالتحالف مع بريطانيا وقال إن رسالة البلدين هي اقتسام العالم فيما بينهما ، فالدم النورديكي في شعبها يؤكد تفوقهما ويبيح لهما ذلك[١٠٢]. وقد صور روزنبرغ شعوب العنصر النورديكي ومستقبلها بقوله "إن دول اوربة كلها قد أسست وحفظت بواسطة الانسان النورديكي ، وإن اندثار صفاته تعني ضعف اوربا... ولكي يمكن استعادة قوة اوربا ، يجب اتحاد القوى النورديكية فيها"[١٠٣]. ومعنى ذلك اتحاد ألمانية وبريطانية والدول الاسكندنافية . ويؤكد أن "مستقبل اوربة مرهون بالحفاظ على العنصر النورديكي ووحدته... ليكون قلب الامة النورديكية ألمانيا" تدافع بريطانية من الغرب والبحار ... والدول الاسكندنافية من الشمال والشمال الشرقي"[١٠٤].

---

(١٠٠) عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٣٩-٤٠.

(١٠١) Roymond Murphy, National Socialism. Washington. 1943. P. 175.

(١٠٢) ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٧١.

(١٠٣) Murphy Op.cit., P. 179.

(١٠٤) نقلا عن : عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٤١.

لقد اتفق كل من روزنبرغ وهتلر على اعتبار أن الشعب الألماني هو المحتوي على أكبر نسبة من العنصر النورديكي[105] ، الذي يتميز بمواهب مبدعة ولَّيدة مواهبه العقلية ، وأكبر دليل على ذلك بنظره ، هو بقاؤه محافظاً على طبائعه وخصائصه على الرغم من تعرضه قبل ألفي سنة لظروف قاسية ، ولدت لديه حب البقاء والصراع من أجله ، إنه الشعب الذي بالفعل له الحق في أن يسمي نفسه الشعب المختار[106].

في الوقت الذي اقتصرت فيه آراء فلاسفة ما قبل النازية على محاولة التبصير بأهمية العنصر ، ونحا بعضهم منحى عن عدم تكافؤ العروق البشرية (بايلوجيا) [107] ، بما ينعكس من تباين حضاري إذ يوجد توافق بين التقدم والعرق الأبيض وبين التأخر والعروق الملونة[108] ، فإن مفكري النازية قد اتخذوا من العنصر اساساً لرسم هيكل المذهبية النازية في كل ما توحنت له النظرة النازية من آراء عن الفرد والمجتمع والدين والدولة ، وإن نظرية التفوق العنصري واستخدامه بين الجنس الواحد قد خدمت انتشار النازية في ألمانيا واكسبها طابعاً مميزاً عن دعوات الأحزاب الأخرى ، وجذبت الجمهور الذين اطربهم الكلام على المجد الآري ورسالة الشعب الألماني الموروثة في السيطرة على العالم[109].

---

(105) المصدر نفسه ، ص ٤٢.

(106) ادولف هتلر ، كفاحي ، ترجمة لويس الحاج ، بيروت ، ص ١٧٠.

(107) ستيفن سوينكار ، خلاصة الفكر السياسي ، ترجمة مجيد عبد الله ، بغداد ، ١٩٤٥ ، ص ٢٨.

(108) صادق الاسود ، المصدر السابق ، ص ٤٥٥.

(109) ستيفن سوينكار ، المصدر السابق ، ص ٣٠.

لقد استغلت النازية مذهب نيتشه في الصفوة الفاضلة بين أفراد المجتمع لتنادي بأن الجنس الاري له من صفات سيادة السوبرمان ما يؤهله للسيطرة على غيره من الأجناس ، حيث صورت النازية مذهب نيتشه على أنه تطاحن بين الافراد لبلوغ الذرى ، وهو مذهب يمايز بين الأمم لبسود أقواها إرادة ، وهي بالتأكيد الأمة الألمانية. والنازية بهذا مزجت شوفينية ترتشكه العنصرية بفلسفة نيتشه الفردية ، وجعلت من بربرية نيتشه بربرية سياسية أخرجتها من معناها الأصلي[١١٠]. وإن مفهوم الفكرة النازية عن الدم والارض يعكس بدائية لا تتفق مع النمط التقليدي الامبريالي. وبهذا لم تترك النظريات العنصرية أثرا ذا مغزى في الفكرة النازية الوحشية إلا في حدود اعتناقها الداروينية الاجتماعية التي تمجد البقاء للأصلح الذي هو الجنس الآري وحقه في السيادة العالمية[١١١].

لقد أذكت النازية في الشعب الالماني النزعة العنصرية من خلال زرع العصبية للجنس الآري ، وأخذت تمجد له خصائصه وصفاته الموروثة ، ثم دفعته للاعتقاد بأهمية تفوق هذا العرق على غيره من الاعراق ، مما يؤهله السيادة عليها[١١٢].

يذكر هتلر في كتابه "كفاحي" ، "إن العلم (والتكنيك) يكاد يكون كله ثمرة النشاط الآري الخلاق ، وهذا الواقع يجيز لنا الاستنتاج بحق أن الآريين قد أسسوا في الماضي مدنية متفوقة". لقد كان الآري في نظره "ولا يزال

لويس عوض ، دراسات في النظم والمذاهب ، بيروت ، ١٩٦٢ ، ص ١٤٢-١٤٣.

[١١١] ادوارد بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٦٨-١٦٩.

[١١٢] محمد كمال الدسوقي ، المصدر السابق ، ص ٧٤.

المشعل الإلهي الذي يضيء السبل أمام البشر ، فشرارات العبقرية الإلهية انبعثت دائما من جبينه المشرق ، وهو الذي قاد الانسان على دروب المعرفة ، ودله على السبيل التي تجعل منه سيد الكائنات ... فإذا توارى الآري يغشى البسيطة ظلام دامس وتتلاشى الحضارة البشرية ويستحيل العالم قفرا " (١١٣). وهذا المثال وحده كاف لإظهار عواقب اختلاط الاعراق ، فالجرماني الذي حافظ على دمه نقيا ، اضحى سيد القارة الأمريكية ، وسيظل هذا شأنه ، ما دام محافظا على طابعه الخاص. ومجمل القول إن كل اختلاط بين الاجناس يفضي إلى تدني مستوى الجنس المتفوق ، وتأخر مادي وروحي يؤدي في النهاية إلى التفسخ والانحلال ، واختلاط كهذا يشكل تحديا لإرادة الخالق وتحديا لمنطق الطبيعة . ويستطرد هتلر "المدنية هي نتاج النشاط الخلاق لشعوب معدودة ، وربما كانت في الأصل عرق واحد ، وعلى هذه الشعوب يتوقف استمرار الحضارة ، فإذا ادركها التفسخ والانحلال ، لحق بها إلى القبر كل ما هو رائع وجميل على هذه الارض . وقد انهارت الحضارات الكبرى في الماضي ، لأن العرق الخلاق الذي أوجدها قد ذهب ضحية سريان السم في دمه ، لذا يجب الحفاظ على الانسان الذي أوجد الحضارة ، وهذا المبدأ مرتبط بحق الأصلح والأقوى في التفوق والسيادة " (١١٤). ويذكر "اذا صنفنا البشر الى ثلاث فئات : الفئة الاولى الى خلقت الحضارة ، والثانية التي حافظت عليها ، والثالثة التي قوضت دعائمها ، فاننا نجد أن الآري هو الممثل الوحيد للفئة الاولى ، فهو الذي

---

(١١٣) هتلر ، المصدر السابق ، ص ١٦٤.

(١١٤) المصدر نفسه ، ص ١٦٣.

[illegible] الأولى

التنفيذ كل عرق على طريقته الخاصة[115]. لقد وزعت النازية أجناس البشر إلى مراتب فوضعت في الطبقة العليا الجرمان من أهل الرايخ، يليهم الجرمان الذين لا يعيشون في الرايخ الألماني، ويأتي بعدهم النورديون الخلص النرويج والسويد، ثم الانجلوسكسون والنورمانديين، أما الطبقة السفلى فقد وضعت النازية الزنوج فيها ثم وزعت بقية الأجناس فيما بين هاتين المنزلتين[116].

لقد أراد النازيون إيجاد نظام جديد في أوربة تتحكم فيه النازية وتستغل جميع مواردها لمصلحة [illegible]، فيغدوا أهلها عبيدا أرقاء لزمن الدولة الألمانية السيد، وتباد منها العناصر غير المرغوب فيها، على مبدأ نقاء العرق وتحسين النسل Eugenics، وإن كانوا من البلد نفسه، إذ لا يحق لغير أعضاء الأمة أن يكونوا مواطنين في الدولة، ولا يحق لغير الذين ينحدرون من دم ألماني مهما كان مذهبهم أن يكونوا أعضاء في الأمة[117]، وفي طليعتهم الساميون (اليهود) والكثير من سلاف الشرق. وكل أولئك ليس من حقهم العيش إلا إذا كانت هناك حاجة إلى بعضهم، كما أراد هتلر طمس معالم كل من البولنديين والسلاف[118]. ويقول حنق البولنديون

---

(115) المصدر نفسه، ص ٩٦.

(116) محمد كمال الدسوقي، المصدر السابق، ص ٧٥-٧٦.

(117) احمد عبد الله ابراهيم الزعبي، العنصرية اليهودية وآثارها، ص ٥٢.

(118) وليام شرر، تاريخ المانيا الهتلرية نشأة وسقوط الرايخ الثالث، ترجمة خيري حماد، بغداد، ١٩٦٦، ص ١٢

... للقيام بالأعمال التافهة ، وأنهم لم يكن لهم يوماً [illegible] واحد وأمة واحدة[١١٩]. أما السلاف فيصور بعض المؤرخين الألمان على أنهم ليسوا محاربين حقيقيين بل إنهم يولدون عبيداً ، ويدللون على ذلك بإيراد اسم هذه القومية (Slav) الذي يقولون أنه يعني عبد (Slave)[١٢٠] ، فلا يستطيع السلافي قبول معركة على ميدان مفتوح ، ولا يملك دروعاً ، ويفضل القتال إذا هو اجبر عليه بالرماح في اعماق الغابات[١٢١]. إن الهدف الاستعماري كان واضحاً وراء هذا الاستعلاء على القوميتين البولندية والسلافية من العرق الأبيض ، فهاتان القوميتان تقطنان في الاراضي المجاورة لالمانية إلى الشرق والجنوب الشرقي التي عدها ادولف هتلر المجال الحيوي لالمانية للتوسع فيه ، ومن اجل ايجاد ذريعة للاستحواذ على اوطانهم تم ابتداع هذه الفكرة .

---

(١١٩) المصدر نفسه ، ص ١٤.

(١٢٠) سلاف Slave بالإنكليزية تعني الرقيق ، العبد ، الأمة ، الجارية؛ ضد حر. وبالفرنسية Esclave تعني العبد ، ينظر قاموس المنهل ، بيروت: دار الآداب. وبالعربية صقالبة من الكلمة الاسبانية Esclavo كان يطلق أول الأمر على الرقيق والأسرى الذين يقبض عليهم من الجرمان ، وغيرهم من القبائل السلافية . ثم أصبح هذا الاسم يطلق فيما بعد على كل الأجانب الذين يباعون ، وفيهم الرقيق الاسباني ، ومن على شاكلتهم.

ينظر : الأرقم الزعبي ، قضية البوسنة والهرسك : دراسة تاريخية وإنسانية ، بيروت : دار النفائس ، ١٩٩٣ ، ص ١٤.

(١٢١) S., Pribichevich, Macedonia its People and History, The Pennsylvania State University Press. 1982, Op. cit., p. 66.

لا يمكننا هنا إغفال أن مسألة تحسين النسل المذكورة آنفا شملت ابناء البلد نفسه وطبقت في المانيه بكل ما في الكلمة من معنى قاسٍ ، حيث مرر قانون في الرابع عشر من تموز ١٩٣٣ عرف باسم منع تناسل المنقوصين جينيا Prevention of Genetically Defective Progeny والذي يشرعن عملية إعقام الاشخاص اجباريا ممن يعانون من امراض ادعي بأنها تحمل صفة وراثية مثل امراض العوق الذهني ، الشيزوفرينيا ، والجنون ، والعمى ، والصمم ، وإدمان الكحول ، والعوق الجسدي . استغل القانون لتشجيع نمو الجنس الاري النقي من خلال إعقام الاشخاص الذين سقطوا تحت جماعة المنقوصين جينيا. وفي خلال سنتين من تاريخ اقرار القانون أعقم واحد بالمائة من المواطنين تتراوح اعمارهم ما بين ١٧ و ٢٤ عاما ، وتمكنت الحكومة النازية من اجراء عمليات تعقيم اجباري لحوالي ٤٠٠ الف فرد جزءا من هذا البرنامج . وابتداءً من نحو شهر آذار ١٩٤١ إلى نحو شهر كانون الثاني ١٩٤٥ أجريت تجارب عمليات الاعقام في منطقة أوشويتز ومناطق أخرى تحت اشراف الدكتور كارل كلاوبيرك ، كان الهدف من تلك التجارب تطوير وسائل إعقام حديثة لأجرائها على ملايين الناس في اقصر وقت وأدنى جهد. والنتيجة النهائية لتلك التجارب كان الخيار المفضل في النهاية تعريض الشخص لفترة معينة لكمية معينة من اشعة اكس مما يدمر قابلية الانسان على انتاج سواء حيامن او بيوض. كانت هذه العملية تجرى عن طريق التضليل . حيث يجلب الاشخاص الذين يراد اجراء عملية الاعقام لهم ويوضعون في غرفة الاشعة ويطلب منهم ملء استمارة معلومات وفي غضون ذلك يتم تعريضهم للاشعة من دون علمهم في

عملية لا تستغرق اكثر من ثلاث دقائق فيتحولون إلى اشخاص عقيمين تماما سواء كانوا ذكورا ام إناث . وقد عاني الكثير منهم فيما بعد من حروق اشعاعية خطيرة [١٢٢].

استكملت النازية نظريتها العنصرية ، من خلال الدعوة إلى اللاسامية ، وهو المبدأ المناهض لاندماج العنصر السامي في العناصر الآرية من أجل الحفاظ على حصائصها الموروثة . هدفت بالدرجة الأساسية إلى توجيه أنظار الألمان إلى عدو مشترك ، ليقتنعوا بخطورته على كيانهم ومستقبلهم ، من خلال إرجاع كل النكسات الالمانية إلى اختلاط الجنس الآري مع الجنس السامي وبالخصوص من معتنقي الديانة اليهودية[١٢٣]. ويقول ادولف هتلر "إذا تخلى الآري عن نقاء دمه ، فقد تبعا لذلك إقامته في الفردوس الذي أقامه لنفسه ، وغدا غارقا في مزيج عنصري ، ثم فقد تدريجيا قوته الذهنية الخلاقة " [١٢٤].

لقد بنت النازية على الدعوة اللاسامية كيانها ، حيث بدأت تطارد معارضيها بحجة البدء في تنفيذ نظرية اللاسامية ، ثم كست اللاسامية الدعوة الامبريالية النازية ، حيث بررت الغزو والاحتلال بالقضاء على اليهودية

---

(١٢٢) http:// en. Wikipedia. Org /wiki/ Nazi human experimentation cite.

Morgentau. Op. cit., P. 21.

رجاء جارودي ، الاساطير المؤسسة للسياسة الاسرائيلية ، ترجمة دار الغد ، القاهرة ، ١٩٩٦ ، ص ٣١.

العلانية . وكان هناك شرط في عرف القادة النازيين هو إخلاء اوربا كلها من اليهود[125].

إن الحركة اللاسامية لم تكن من بنات أفكار هتلر ، فقد ظهرت اللاسامية في آراء جوبينو الذي ذكر بأن هناك بعض الاجناس الدخيلة التي ترمي إلى الاندماج مع العنصر الآري ، رغبة منها في اكتساب صفاته الرائدة ، وإكسابه خصائصها الضعيفة ، وفي مقدمتها اليهود الذين يجب توخي الحذر منهم[126]. وارجع تشمبرلن اضمحلال المانية وانقسامها إلى التسلل اليهودي فسار على المنوال نفسه محذرا من اليهود . وقد ظهرت هذه الفكرة في كتابات بلومنباخ الذي نسب لليهود دورا كبيرا في تفرق المجتمع الألماني .

وصلت اللاسامية في المانيا درجة نشأت فيها طائفة تتبرأ من السيد المسيح عيسى كونه من بني اسرائيل ويقول احدهم "لأي شيء ندرس اولادنا تاريخ أمة اجنبية ، ولماذا نقص عليهم قصص ابراهيم واسحاق؟ ينبغي أن يكون إلهنا ايضا المانية ". فظهرت في ألمانيا نزعة وثنية ترمي الى إحياء الآلهة القومية القديمة ، التي كان يعبدها الشعب الجرماني في عهده الغابر[128].

---

(125) وليم شرر ، المصدر السابق ، ص ١٣؛ رجاء جارودي ، المصدر السابق ، ص ٢١.

(126) عادل شكري ، المصدر السابق ، ص ٥٠.

(127) المصدر نفسه ، ص ٤٨.

(128) احمد الزعبي ، المصدر السابق ، ص ٥٢؛ ابو الحسن علي الندوي ، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ، ص ١٦٦.

ويبدو إن النازية في دعواها إلى اللاسامية قد خدمت الحركة الصهيونية إذ ساعدتها في اقناع اليهود على الهجرة إلى فلسطين ، كما أن الترابط بين الصهيونية والنازية كبير ، فقد كان آباء النازية السياسيون والمفكرون يشاركون الصهيونية فذلكاتهم ، ففكرة الجنس المختار عند النازية لم تكن تختلف عن فكرته عند الصهيونية إلا في هوية هذا الجنس ، أهو الجنس الآري أم اليهودي ، ولم يكن الصهاينة يستشعرون اية كراهية للنازية وسياساتها وممارساتها اللاساميه ، وقد طلب بعضهم ذات مرة إيضاح أهداف الحركة الصهيونية ومضامينها لأدولف هتلر الذي لم يكونوا يرون فيه معاديا للصهيونية[129]. حتى إن أوامر هتلر التي صدرت في ربيع ١٩٤١ وعرفت بـ"الحل النهائي" التي تتعلق بطرد اليهود نهائيا من اوربه لم تكن تعدو عن كونها أوامر شفهية[130]. والتشابه بين طبيعة الصهيونية والنازية واضح جدا ، فقد نادت الصهيونية بالتطهير العرقي النابع من مبدأ النقاء العرقي الي يمانع امتزاج الدم اليهودي بأي "دم دنس" من دماء الآخرين[131].

وهناك حركة أخرى في اوربة حاولت تبني بعض المفاهيم العنصرية وهي الحركة الفاشية ، فقد حاول موسوليني Benito Mussolini (١٨٨٣-١٩٤٥) تبني بعض الأفكار العنصرية ، بإيحاء من هتلر في المدة

---

(١٢٩) ريجينا الشريف ، الصهيونية غير اليهودية جذورها في التاريخ الغربي ، الكويت ، ١٩٨٥ ، ص ١٢٩.

(١٣٠) رجاء جارودي ، المصدر السابق ، ص ١١.

(١٣١) Arnold Toynbee, Op.cit., P. 51.

(١٩٣٦-١٩٤٥) ، إذ نسخ من دون مبرر اسوأ مظاهر النازية[١٣٢]. وظن موسوليني أن هناك فائدة من عدم المساواة بين الاجناس البشرية ، التي لا يمكن إغفالها أبدا ، واعتقد ان الحرب هي التي تضفي على الكائنات الآدمية نبلا وسموا[١٣٣]. على الرغم من ذلك فإن الفاشية لم تكن لها نزعة عنصرية واضحة المعالم ولم يكن لها أساس عنصري ، ومع أن موسوليني قد أصدر بعض القرارات ضد اليهود بعد تكوين محور روما برلين ١٩٣٦ لكن معظمها لم ينفذ[١٣٤].

اثبتت الدراسات (الانثروبولوجية) خلل النظريات العرقية ، وإن لا توجد أسس علمية للتمايز بين الاجناس البشرية بل لا توجد أجناس أصلا . وانما وجدت بعض الفروق نتيجة طفرات وراثية ، وطبيعة الانسان ذاته وإلى الظروف الاجتماعية والبيئية وغير ذلك من الاحوال المعيشية للانسان حتى أن العلم اثبت ان المجتمعات المغلقة التي لا تسمح بالزواج بالغرباء من خارج نطاقها يكون نسلها اضعف يعاني من تشوهات خلقية وتفتك به امراض مستعصية .

من السهل في يومنا هذا للمثقف أن يفند تلك النظريات العنصرية التي اتصفت في بعض الاحيان بالسذاجة ، بلا كبير عناء ، ومن دون الرجوع إلى آخر ما توصل إليه العلم في حقل الجينات التي اثبتت تتطابق الجينات البشرية تطابقا تاما تراصيا ، وليس كما وصف علماء القرن التاسع

---

[١٣٢] جون كلارك ادمز ، نظام الحكم في جمهورية ايطاليا ، ترجمة احمد نجيب ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ص ٧٥.

[١٣٣] بيرنز ، المصدر السابق ، ص ١٦٨.

[١٣٤] المصدر نفسه ، ص ١٧٤.

عشر وشبه الجينات البشرية بالجينات الحيوانية التي تختلف بالطبع بين فصيلة وأخرى ، يفندها عن طريق المقارنة فقط بين اوربة وبقية قارات العالم والحضارات التي ظهرت على مر الزمان في مختلف بقاع الارض حتى امريكة التي وصفت بالعالم الجديد الذي لم يكن يعلم عن الانسان الاوربي شيئا . ولو أحصينا حضارات اوربة فلا تتعدى الثلاث حضارات الاغريق والرومان والحضارة الامبريالية الجديدة ، وحتى تلك الحضارتان القديمتان لم تكونا في حقيقتهما حضارة جرمانية او انكلوسكسونية بل إن هذين العرقين كانا هما القبائل البربرية التي حطمت تلك الحضارتين . ولا يخفى للعيان إن غاية النظريات العنصرية الاولى والاخيرة هي تهيئة الجو الفكري المناسب للحركة الاستعمارية في ما وراء البحار او داخل أوربة نفسها .